

مَنْدَى مَكْنِيَّةِ الْأَسْكَندَرِيَّةِ

العقل
والسلفية
والحرية



العقل

والسلفية

والحرية

يسري حسين

الإهداء:

إلى أُمِّي الراحلة:

عطيات فرحات أحمد

التي لم تعرف القراءة أو الكتابة

وأصرت على تعليمي، محبة في نسيم الحرية

يسري حسين

فهرس

الإهداء:	٣
فهرس	٤
أزمة التنوير	٨
العقل وحرية الاختيار	٢٠
طار فوق مستشفى المجانين	٢٦
الحرية والجمال	٢٨
حرية الاختيار	٣٣
مشكلة حبيبي	٣٧
بهاء وعمود الوعي	٤١
رسالة عمرها ٨٠٠ عام	٤٣
حقائق وأكاذيب	٤٧
المرض الخبيث	٥٣
حجب العلم	٥٩
إنسان.. موقف	٦٥
من روجرز إلى السادات	٧١

عقل وعضلات	٧٧
تنويعات على أنماط الحياة	٨٢
الديمقراطية دواء أفغانستان	٨٧
تحديات التنمية والتحديث	٩١
قانون "دارون"	٩٨
متقفون وعسكر	١٠٧
الرؤية العلمية والحوار مع وقائع التاريخ المعاصر	١١٣
العلم المستورد ولغة الحضارة	١٢٧
دعه يفكر	١٣٢
جذور العنف	١٣٧
الحل الآخر	١٤٣
البديل لخالد محمد خالد	١٤٩
الحوار مع الخطر	١٥٥
رسالة هذا الرجل	١٦١
حجارة الانتفاضة على معسكر التخلف	١٦٧
أسباب الأزمة	١٧٢
موسم الحوار	١٧٧

العقل والديمقراطية.....	١٨٢
المنقذ من الهلاك.....	١٨٨
المجهول الغامض.....	١٩٣
قراءة في التراكمات.....	١٩٨
قضية الأصالة والمعاصرة.....	٢١٢
دعوة للحوار.....	٢٢٢
تيارات وأنظمة وأفكار.....	٢٣٣
التعليم لمن؟.....	٢٣٨
الحرية والصحافة.....	٢٤٣
الانتحار على الطريقة الأوربية.....	٢٤٩
أنوار العقل.....	٢٥٥
تحالف صحافة "الزبالة".....	٢٦٠
العميد وبرومينوس وسقراط.....	٢٧٢
التطرف أوربيًا.....	٢٧٦
كيف نحافظ على التاريخ؟.....	٢٨٠
التراث والمعاصرة.....	٢٨٥
سلاح الفكر الغربي.....	٢٩٣

٣٠٦	مواقف التفكير العنمي.....
٣١١	القضايا الأساسية.....
٣١٦	السلفية السياسية.....
٣٢١	تأملات في الخطر.....
٣٢٦	عنف الشوارع وعنف السياسة.....
٣٣٢	الديمقراطية هي الحل.....
٣٣٧	مثقفون وجواسيس.....

أزمة التنوير

لم يتمكن الفكر الليبرالي التنويري من إنجاز خطته الفكرية العامة؛ لأنه لم يكن في أي وقت يعبر عن تيار عام داخل المجتمع. إن هذا الفكر ظل دائماً في أشد لحظاته انطلاقاً، محصوراً داخل فئات رقيقة من تكوين المجتمع، وهي قطاعات المثقفين، والقوى التي تقود بعض تيارات التحديث.

وهذه القوى الليبرالية التنويرية، ظلت دائماً في حالة حرب وفي موقع دفاع عن فكرها. ولم تكسب هذه القوى أية معركة؛ لأن التيار العام كان ضد التحديث بشكل عام. لأن الأطر السياسية حتى في ظل صعود المعارك الوطنية والقومية، ظلت تقليدية، ووقفت من فكر الحداثة موقفاً نقدياً. ويكفي أن ننظر لمعارك طه حسين ولطفي السيد، والإمام محمد عبده، وسلامة موسى، لنعرف أن الفكر التحديثي، ظل في موقع الدفاع، وكان ما يطرحه يثير القوى

المحافظة التي لا ترحب بالتغيير، وتقف من الرياح الجديدة موقف الرفض الكامل.

والسبب وراء هذه الوضعية، هو أن التحديث كان يأتي دائماً من احتكاك بعض القوى بتيارات فكرية غربية فتأثر بها، وتحاول بدورها نقلها إلى بيئة غير مهيئة، وغير جاهزة لاستقبال الفكر الجديد.

ومن المهم أن نعلم أن الأفكار الغربية، خرجت في بيئتها كنتيجة لتطورات مادية، حدثت على أرضية الواقع الغربي ذاته. ففكر ديكارت الشكي، أبرزه نجاح مناهج العلوم الجديدة، التي لا ترحب بالأفكار الجاهزة الثابتة، والتي تعتبر أن الشك في أية معلومة هو الطريق الصحيح لإثبات صحتها.

وهذه الفكرة الشكية، عندما حاول "طه حسين" نقلها وتطبيقها على مجالات العلوم الأدبية والاجتماعية والتاريخية، حدث الزلزال الرهيب؛ لأن طه حسين نقل منهجاً علمياً في بيئة، كانت تعتمد على الأرض بالطريقة نفسها التي كان يستعملها الفراعنة منذ سبعة آلاف عام.

فكرة طه حسين الشكية، أشعلت النيران في بناء المجتمع القديم لأنها وافدة، ومستوردة، وليس لها علاقة بالبيئة وتطورها؛ لذلك لم يتمكن طه حسين من الدفاع عن كتابه (الشعر الجاهلي). لأن البرلمان الليبرالي - تجاوزاً - الذي كان قائماً آنذاك، لم يكن له علاقة بالمناهج العلمية التي تتعلق بقواعد البحث والتقيب، والتي كانت سائدة في أوروبا منذ عصر النهضة، وبعد دخول مرحلة التطوير الصناعي.

كان أعضاء مجلس النواب، الذين تولوا التصدي لطله حسين، مجموعة من أثرياء الريف وملاك الأراضي. بالإضافة إلى بعض المحامين، الذين يشكلون القيادة الخطابية التي تقود معركة الجدل السياسي.

وكانت معركة طه حسين الأولى، حول قضية الشعر الجاهلي، أوضح مثال يعكس عملية الصدام بين فكر أوروبا، وبين بيئة محافظة لم تتقدم علمياً ومادياً على طريق التغير والتحديث.

إن المجتمع المصري آنذاك في بداية الثلاثينات. كان قد خرج من قبضة الجمود. بعد فشل الثورة العربية، والملمح الرئيسي على جبهة التطور كان تحقيق بعض

الإصلاحات السياسية التي سمحت بوجود برلمان وأحزاب. إلا أن هيكل المجتمع بشكل عام كانت تسيطر عليه الأمية. وتقود خطاه بعض الأفكار الإصلاحية البسيطة التي تركز على إدخال بعض التعديلات في الممارسة السياسية.

وكان الهيكل العام للمجتمع زراعي متخلف من ناحية الأداء في كافة مجالات الإنتاج. وبعان بالزراعة تواجد إنتاج صناعي بسيط يتبلور في صناعات استهلاكية متواضعة. وهذا يعني عدم وجود التطورات الاجتماعية التي تسمح بوجود قوى جديدة، تعبّر عن تغيرات في هياكل المجتمع.

والنهضة لا تحدث في أن يذهب "فلان" إلى بعثة لقراءة "هيجل"، أو معرفة "ديكارت" إنما النهضة مرتبطة بتطور عام، يشمل قطاعات المجتمع المؤثرة.

وقد كان غريباً، أن يكون طه حسين الأزهرى الكفيف قادراً على هز المجتمع القديم. لكن تلك الهزة كانت مجرد رد فعل غاضب، وأشعلت معارك ونقاشات. لكن لم يولد عنها إنتاج يغذي فكرة النهضة الجديدة؛ لأن المجتمع كان يدور داخل دائرة غير مهيئة بعد لتطور فكري جديد. فلم يكن أثرياء الريف، على قدر من الطموح بحيث إنهم يفكرون في

إدخال صناعة جديدة وتطوير هياكل أسس تكوين المجتمع، وإنما كانت كل أحلامهم هي المضاربة في البورصة بالأموال التي تدفقت بسبب ارتفاع أسعار القطن.

وكان ملاك الأرض لا يستخدمون أموالهم في تطوير صناعة مرتبطة بالزراعة، وإنما كان المظهر الوحيد الذي يمارسون من خلاله التعبير عن ثرائهم هو شراء العقارات في المدينة وارتداء الزي الغربي، والسعي إلى الزواج من بنات المدن.

هذه القوى الاجتماعية، كانت هي التي تصدت لطفه حسين في البرلمان، الذي خرج من معطف ثورة ١٩١٩. وكانت هذه القوى، هي التي اتهمت طه حسين بالكفر والعمالة للأجنبي.

والمنثير في الأمر أنه بعد مرور أكثر من خمسين عامًا. ما زالت هذه القوى تقف الموقف نفسه. ورغم أنها لا زالت متمسكة بفكرها القديم إلا أن تطورات عديدة حدثت داخلها ليست في صالح التغيير، وإنما على وجه اليقين في صالح الجمود والأفكار الثابتة.

تصوّر طه حسين العائد من بعثة السوربون أنه قادر على نقل فكر "ديكارت" إلى بيئة زراعية مختلفة.. إلى برلمان يسيطر عليه بعض الأثرياء والأدعياء من عناصر الطبقة الزراعية المتوسطة.

وكان طه حسين، يريد نقل فكرة أصبحت عادية وقديمة في بيئتها إلى واقع جامد محافظ لم تتقدم فيه لا مناهج البحث أو أدوات المنهج العلمي.

وقد ثارت على الأزهري العائد من فرنسا، القوات المدرعة لقيادات المجتمع القديم. فما علاقة الشك باليقين، والنقد بالأفكار الثابتة المحافظة.

وقد حاول طه حسين المجدد طوال حياته نقل أفكار الغرب إلى الشرق. لكن ظلت دائماً مقولة أن الشرق شرق، والغرب غرب، تعمل بسبب عدم دخول الشرق في مراحل تطويرية، تجعله يقبل الفكر الجديد، الذي أفرزته قريحة الإنسان واجتهاداته.

إن النظرية النسبية، واكتشافها، ليس لها علاقة بالشرق أو الغرب، لكن استيعابها وفهمها مرتبط بمناخ عام وتطورها حددته ظروف علمية، لا بد أن يدخل فيها المجتمع حتى يصل

إلى فكر النسبية. بمعنى أن الفلاح الذي يحرق أرضه بآلة عمرها سبعة آلاف عام، لا يمكن أن يفهم النسبية، ولا يمكنه استيعاب نظرية ديكارت ولا يعني هذا أن الفلاح الغربي يفهم تمامًا تفاصيل هذه الأشياء وإنما تحوطه إنجازات وأدوات هي كلها مترجمة للفكر النسبي، وللأفكار التي تسقط عمليات اليقين من الجرد الإنساني.

وقد اجتهد طه حسين، في كسر مقاومة عناصر المجتمع القديم، وبسبب ذلك دخل في معارضة ضارية، وخرج من الجامعة أكثر من مرة، وهوجم مئات المرات. لكن كل محاولاته، كانت من نوعية إصلاح فردي، لا يرتبط بالهيكل العام، لذلك ظل دائمًا في موقع النقد، وداخل بؤرة الرفض.

وقد ركز طه حسين على التعليم الجامعي، وساعدته بعض الشرائح التنويرية، إلا أن أفكاره ظلت محصورة داخل البيئة الأكاديمية. وكانت كل مهمته هي نقل الأفكار من الغرب إلى الشرق، وكان أغلب النقل بعيدًا عن البيئة غير المهيئة للفكر الجديد.

وكان المتصور، بعد حركة يوليو، أن يكون طه حسين، هو وزير التعليم، الذي يقود معركة التغيير. إلا أن هذا الموقع شغلته الأسماء المحافظة التقليدية. وهذا يوضح أن العناصر التي قامت بالتغيير السياسي، لم تكن لديها نظرية تغييرية تدفع بها عناصر المجتمع إلى الأمام. لذلك استعملت نهج التجريب ففشلت مرات ونجحت مرات أخرى.

وكانت هذه القوى، تدعي أنها تريد إحداث ثورة، لكن الذين قاموا بهذه الحركة كانوا عناصر ليست لها علاقة بفكرة التحديث. لذلك كان من المتوقع في ظل حركة تغييرية أن يكون طه حسين في بؤرة هذا الحدث. لكن الذي تم غير ذلك. ولقد وجد الفارس الذي كان يحارب المجتمع القديم نفسه في موقع بجريدة الجمهورية. وجاء حلمي سلام، وقام بفصله منها وانتهى طه حسين بوفاته في أكتوبر ١٩٧٣ وهي المرحلة التي شهدت بداية انتصار الفكر السلفي، الذي هو أقرب إلى التعبير الصحيح عن تركيبة المجتمع الذي لم تصل إليه أضواء التحديث أو أسلاك كهرباء التنوير.

وهزيمة طه حسين، الشخصية، هي هزيمة وسطاء الفكر، الذين حاولوا نقل بعض الأفكار إلى واقع غير مهيب لها.

وما حدث بعد ١٩٧٣، يبين وجهة نظر الجماعات السلفية لفكر طه حسين. إن أنور الجندي، في كتابه "طه حسين في ميزان الإسلام" يراه كعميل صهيوني، ورجلاً ضلّته زوجته الفرنسية، التي غررت به ودفعته لتبني الأفكار المعادية للإسلام.

هذه النقطة المحورية، هي التي يستند عليها الكتاب تقريباً، وهي محور كل الهجوم على طه حسين الآن. لقد حاول طه حسين فتح ثغرة في جدار التخلف. وتصور أن بعض أفكار ديكارت كافية لإحداث ثورة، وكان الرجل رومانسياً حالماً يتصور أن التاريخ يصنعه أفراد حالمون مثله. ولم يكن يدور بخله أن التقدم، ليس مرتبطاً بفكرة أو شخص. وإنما مسألة مرتبطة بقدرة كل القوى في المجتمع وبالعناصر المادية التي تسعى لإحداث التطور وتحقيق الإنجازات الواقعية على أساس علمي.

وبينما يرتبط التتوير في حياتنا حتى بأشخاص، ولا يشكل التيارات المؤثرة، يمسك التيار الآخر قاعدة كبيرة وعريضة من معمار المجتمع.

وحتى في ظل ثورة يوليو، لم يتمكن التتويريون من إنجاز أفكارهم داخل حركة البناء والتغيير؛ لأن القوى المحافظة البيروقراطية، كانت تريد تحقيق التغيير على طريقها. لذلك عندما اختفت موجة قوية من هذا الاتجاه سقط كل شيء في مستقع النسيان؛ لأن التغيير جاء من أعلى، وجنوده لم يكونوا من عينة طه حسين، ولا سلامة موسى، ولا حتى لويس عوض.

بل إن أغلب هذه الأسماء، وجدت نفسها معزولة عن التيار العام، ورغم أن طه حسين فصله "حلمي سلام" من "الجمهورية" إلا أن الرجل اختار السلامة، فمكث في منزله يكتب مقدمات روايات يوسف السباعي.

وعندما حدثت النكسة، كان الوقت مناسباً لبروز فكر آخر، يعبر عن مجتمع محافظ، ما زال زراعياً في الأساس اختلطت على أرضه بعض الأوراق والأفكار، إلا أن تيار النكسة دفعه بعنف نحو التيار السلفي، الذي يملك في يديه

مواثيق فكرية، ليست هي الهيجلية أو الديكارتية، وإنما أشياء أخرى. تفهمها القطاعات البسيطة من تركيبة المجتمع. وبينما ظلت رموز التنوير أفرادًا كان الاتجاه الآخر، يعبر عن وضع المجتمع وشكله. لذلك نجحت الحركات السلفية في التواجد والانتشار، ليس لأنها تقول الأشياء الحقيقية، أو لأنها تعبر عن طموحات الحاضر والمستقبل. وإنما لأنها تعبر أزمة انهيار مشروعات التنوير وإخفاق خطط التنمية الفكرية.

والمشكلة، أن مشروع التنوير فشل، رغم أنه لم يتمكن أبدًا من القيادة أو الزعامة. لكن ما هو مطروح الآن ليس على وجه اليقين المشروع القادر على تحقيق التقدم إلى الأمام، لأنه أولاً يرفض التحديث، لأنه فكرة غريبة، ولا يقبل العلوم باعتبارها من البدع، لكن سيطرة هذه القوى على مقادير الفكر تؤكد شيئاً واحداً، هو أن المحاولات التي قامت بها رموز التنوير في نقل الأفكار التحديثية فشلت؛ لأن المجتمع لم يكن لديه أية نية لقبول مغامرات هذه الأفكار التحديثية.

ولا يعني سيطرة الفكر السلفي، أن ذلك هو المطلوب،
وإنما الذي يعنيه أن هذه السيطرة راجعة لفشل المجتمع في
إنجاز ثورة تحديثية، وتعني أيضاً فشل رموز التنوير في
اختراق حواجز الجمود والمحافظة.

العقل وحرية الاختيار

تغلب على موجات السلوك العربي شحنة الانفعال،
فنحن نفكر بقلوبنا دائماً ونعطي الوجدان صفة السيادة، بينما
نهمل العقل وأحكامه ومنطقه.

وهذا الانحياز إلى الجانب الانفعالي، ليس أصيلاً في
تكويننا، وإنما جاء نتيجة ممارسات طويلة، ومن تدخل
السلطات سواء كانت سياسية أو اجتماعية، التي عاقبت على
مر التاريخ الاختيار العقلي، والانحياز إلى المنطق، بينما
منحت الهدايا والمكافآت للطريق الآخر، الذي يهمل العقل
تماماً، ويعتمد على أحكام الوجدان المتقلبة وغير الثابتة، التي
تتحكم فيها دائماً الأهواء والمصالح والأذواق.

وقد حاولت اتجاهات متعددة منذ عصر النهضة الحديثة
دفع حياتنا إلى العقل والانحياز له، إلا أنها كانت دائماً تواجه
بعنف خارجي من مؤسسات يهتمها الإبقاء على حالة البلاهة

العامّة، وتجريد المواطن من عقله، حتّى يصبح أكثر سلاسة وخضوعاً للقيادة.

والذي يقلّب في صفحات التاريخ، يجد أن مفكراً عقلانياً مثل طه حسين، تعرّض لعاصفة من النقد العارم؛ لأنّه اجتهد في نظريات الأدب، وليس نظريات السياسة، وكان المطلوب رأس عميد الأدب العربي، إلا أن مجموعة من العقليين الذين كانوا يتمتعون ببعض السلطة في زمان الأنظمة الشمولية تدخلوا للإبقاء على طه حسين، مع تعهد مكتوب منه، أن يكون أقلّ اعتدالاً، وأن يمزج نظريته العقلية الجديدة ببعض الألوان الوجدانية لتخفيف جرعة الوعي، حتّى يستقبلها الجسد العربي، ولا يرفضها بشكل عنيف.

وكان طه حسين، يحاول السير على طريق المنطق، إلا أنّه تراجع بعد أن واجهته عاصفة ضارية، واضطرّ بعد ذلك أن يكسو أفكاره ببعض المساحيق الخفيفة لتخفيف قوتها. لكن رغم محاولاته الفكرية بعد ذلك، إلا أنّها لم تحقّق قوة دفع لتيار صدامي، يريد نقل التفكير العربي من ميدان لآخر.

وكان طه حسين مشبعًا بفكر النهضة الأوروبية وبحركة العقلانيين _____ بين الفرنسيين، واعتقد أن مجرد نقل هذه الأفكار إلى الجسم العربي، سيحقق ثورة على إرث طويل من اللامنطق نبتت جذوره في داخل خلايا فكر المنطقة.

إلا أن طه حسين، لم يدرك صعوبة مهمته، إلا بعد حملة غير العقلانيين التي كانت ضارياً وعنفية.

وقد اختار طه حسين، الطريق الطويل الآخر، لزرع قيم العقل في جيل جديد، يتعلم في المدارس والجامعات، وركزاً العميد جهده على التعليم، عندما رفع شعار العلم كالماء والهواء حق لكل مواطن. وأعتقد أنه كان يقصد أن الارتكاز على العقل كالماء والهواء، حتى يعيش المواطن كإنسان يفكر ويتأمل، ويستنتج.

وقد استمرت جهود طه حسين في تخريج الأجيال التي تنمّن قيمة العقل والمذاهب العقلية، والاعتماد على المنطق كوسيلة للتحليل والفهم.

لكن نهج طه حسين في مجال التعليم تعرّض للانهدام عندما جاءت ثورة يوليو، فرغم أنها فتحت الأبواب أمام

التعليم المجاني، وحققت شعار العميد يجعل العلم كالماء والهواء، إلا أنها نتيجة خوفها من الديمقراطية والتعددية استغلت هذه المجانية لزرع الأفكار الغوغائية، التي تلغي التفكير كقيمة، وتمنع استخدام العقل.

إن أسس فكرة العقل، قبول الجدل، والرأي الآخر وتربية الإنسان على النقاش الحر المفتوح، وعدم قبول المسلمات النظرية على أنها حقائق غير قابلة للنقاش.

ومن أخطاء ثورة يوليو الفادحة الكارهة للتعددية، أنها جعلت التعليم مجرد تلقين، وحفظ المعلومات الجاهزة. فلم تشجع الفكر النقدي، وكان من يختلف معها في التحليل العام يجد نفسه إما خارج مؤسسات التعليم، وإما في منزله، وإما في المعتقل.

ومن المؤكد أن العديد من المفكرين خرجوا من دائرة الحوار مع الحكومة لا لشيء سوى اعتراضهم على أسلوب التعليم وطرق تدريسه في الجامعات والمدارس.

وقد قامت الثورة نفسها بطرد عشرات من الأساتذة في الجامعة، تحت شعار التطهير فخرج مفكرون لم يكونوا ضدها، وإنما كانت لهم أفكارهم ورؤيتهم، ورفضوا الخضوع

لمنطق الغوغائية الفكرية؛ فكان مصيرهم الطرد من مؤسسة الفكر والتعليم والرأي الآخر وهي الجامعة.

وظل داخل مؤسسة التعليم أصحاب الرؤية غير العقلية في الفنون والسياسة والآداب. هؤلاء الذين ظلوا مع السلطة دائماً وباستمرار، وعندما تبدّل الحكام، تبدّلت بالتالي جلودهم السياسية والفكرية، فالذين كانوا مع الانغلاق، ويروجون له، أصبحوا سريعاً مع الانفتاح يطبلون على إيقاعاته.

هذه العملية أفقدت الأجيال المتعددة الثقة في العقل ؛ لأن الاعتماد عليه يعني الصدام مع الحكومة، ومع المؤسسات الرسمية سواء في مجالات الآداب أو الفنون أو السياسة.

وهذه الممارسات خلقت ما يسمى بالأسلوب الناجح، الذي عبّروا عنه بشعار "خليك مع الحكومة دائماً"؛ يعني استمر مع الاتجاه السائد، وتنازل للسلطة عن حق التفكير والتخطيط، وإدارة شئون حياتك.

وهذه عقلية ومنهج الأخ الأكبر، الذي تحدث عنه جورج أورويل في روايته ١٩٨٤، ولم يكن الروائي البريطاني، يقصد فقط تصوير أجواء الاستلاب في الأنظمة

الشمولية، وإنما كان يقصد كل من يعمل على نزع منطقة
العقل من داخل الإنسان.

طار فوق مستشفى المجانين

في نهاية السبعينات، والأنظمة الشمولية في عز قوتها،
قدم المخرج التشيكي مليوش فورمان فيلمه "طار فوق عش
الوقواق" الذي يعزف على نغمة السلطة المطلقة، التي تسلب
الإنسان عقله، وتجعله يعتمد فقط على الانفعالات والاحتكام
إلى القلب والوجدان.

عندما دخل ماك مورفي، الذي قام بأداء شخصيته
الممثل جاك نيكلسون إلى مستشفى الأمراض النفسية، وجد
ممرضة متسلطة، تعمل بكل جهد على إقناع مجموعة من
المرضى أنهم مجانين، ولا يحتاجون إلى استخدام عقولهم؛
لأنه غير موجود!

وعندما يتحدى مورفي أسلوب الممرضة التي تمثل
السلطة، يجد نفسه في النهاية داخل صدام شرس يؤدي إلى
أن تقوم إدارة المستشفى بنزع عقله، عن طريق عملية
جراحية تبطل عمل خلايا المخ وتنتهي وظيفتها.

وكان ميلوش فورمان المخرج التشيكي يتحدث عن مجتمعات تكره التعددية، وفكر الديمقراطية، وتسعى لفرض الشكل الوحيد لأداء الإنسان، وهو الاعتماد فقط على انفعالاته ومعاداته منطق العقل.

وشرح الفيلم أن المرضى الذين يعيشون باستخدام الانفعال، محاصرون داخل دائرة العجز؛ لأن أحكامهم متغيرة، ومتردة، وهم لا يعرفون على وجه الدقة ما هو الصحيح من الخطأ. لأن تقاليدهم العقلية، تم نسفها، كما أن التعليم داخل مدارس التحليل واستخدام الأسلوب الظاهري لمعرفة حركة الأشياء لم يعد موجودًا.

وكانت ثورة ماك مورفي التي قدمها ميلوش فورمان، هي صرخة ضد غياب العقل. مع الأنظمة الشمولية في أوروبا الشرقية كانت تتحدث عن فكر علمي، وكانت تصف المجتمعات الغربية بأنها غير علمية.

وقد تكون هذه المجتمعات استخدمت تحت ظل الحكم الشمولي طرق البحث العلمي المعمل، لكنها بالتأكيد حاربت الفكر العقلاني القائم على الحرية.

الحرية والجمال

وكان عباس محمود العقاد، يصف الجمال، بالحرية، وهو يعني أن كل عضو في التشكيل الجمالي يمارس حريته من دون الاعتداء على حرية العضو الآخر.

وهذا التوصيف الجمالي للحرية يعكس القيم الحقيقية لفكر التعددية. وهو أن كل رأي يتمتع بمساحة تعبر عن ذاته، ولا يضطر إلى الانحسار داخل خانة محددة بسبب إرهاب فكر آخر له.

وقد كان العقاد يناصر الحريات ويحارب من أجلها. وعندما تقدم هتلر النازي نحو أبواب مصر، قبل انتصار مونتجمري في العلمين. أصدر العقاد كتابه المعروف "هتلر في الميزان" الذي هاجم فيه النازية بعنف.

وقد اعتقد بعض المحللين، أن العقاد يعمل لصالح الحلفاء بل بلغ من سذاجة فريق سياسي أن أطلق على العقاد

صفة المرتزق من أموال الحلفاء؛ لأنه انتصر للحرية ووجهه
هجومه نحو هتلر!

والحقيقة أن العقاد لم يبلغ عقله، وهو المفكر "الفحل"
الذي شيد كل حياته على قيم ونظريات الحريات حتى وهو
ينظر إلى الشعر والرواية وفنون التشكيل.

لقد كان العقاد مع الحرية، وليس ضدها، تربي داخل
مدارس الفكر الليبرالي الغربي، ودافع طول حياته عن قيم
العقل والبطولة الفردية، في ظل مجتمع دعا إليه يقوم على
ذاتية الأفراد وحريتهم حتى ينمو بشكل يطبق قيم الجمال
الإنساني.

إن الإنسان الجميل في فكر العقاد، هو الذي يملك عقله
وأفكاره الخاصة به والذي لا يسمح لفكر آخر، بخطفه أو
إرهابه.

ولم يكن معقولاً أن يؤيد العقاد هتلر، لكن بعض
الاتجاهات السياسية فعلت ذلك، ولم تكن هذه الاختيارات
سوى التعبير عن أزمة فكر، وعدم استخدام العقل السياسي
السليم.

لقد اعتقدت بعض القوى السياسية المصرية، أن هتلر هو البديل للبريطانيين، الذين كانوا يحتلون مصر؛ لذلك خرجت مظاهرات في القاهرة، تقول بالصوت العالي "تقدم يا رومل" لقائد قوات النازية في العلمين.

وكان العقاد معادياً للاحتلال والسلطة الأوتوقراطية للحكم، لكنه رفض أن يكون البديل هو حكم النازي؛ لأن انتصاره يعني الهلاك لجنس البشر الذين يحملون عقولهم. وقد كان العقاد أيضاً يكره الشيوعية، لا لأنه ضد العدالة الاجتماعية وإنما بسبب معاداته لمنطق الدولة الشمولية التي تفكر بدلاً من الناس.

وموقف العقاد من الحرية، أي من العقل، جعل يتحفظ على ثورة يوليو، ولا ينسجم معها، وكما يذكر أنيس منصور في كتابه الرائع "أيام في صالون العقاد" كان مؤلف العبقريات الإسلامية لا يكف عن السخرية والاستهزاء من ضباط يوليو. والحقيقة أن العقاد شخصية لم تحظَ بالدراسة العميقة حتى الآن؛ لأنه الليبرالي الصلب الذي لم يتهاون أبداً مع أعداء العقل والحرية والجمال. وظل باستمرار في كل ممارسات حياته الفرد المعتز بعقله ومواقفه، الراض للتنازل

عن قلعتة العقلية، حتى لا يصبح مثل بطل "طار فوق عرش الوقواق".

وقد أنصف أنيس منصور العقاد، لكن أغلب الكتابات عن هذا الرجل صنعها كُتَّاب يميل البعض منهم إلى اليمين والآخر إلى اليسار، ولم يظهر بعد المفكر الليبرالي، الذي يتأمل كتب ذات عربية تدور حول الأنا وأفكارها ومطالعتها في وقت كانت المنطقة محتلة بجيش أجنبي يسلب الإرادة، وبأنظمة تحض على معادة العقل والهجوم على الذاتية المستقلة التي يتناقض وجودها مع بنية سياسية متخلفة، ورغم تحالفات هذه الأنظمة مع المجتمعات الغربية السياسية، إلا أنها كانت تمنع تدفق مناهج العقل إلى البيئة التي تحكمها؛ خوفاً من تبلور اتجاهات وأحزاب قومية، تتدخل بالقوة لمشاركتها في الحكم لتطبيق شعار العقاد، بأن قيم الجمال أي الحرية لا تغطي فيه أعضاء على أخرى.

ورغم أن العقاد مثل طه حسين حاول زرع قيم العقل والحرية، إلا أن ثورته العقلية ظلت داخل حدود نفسه، ولم تتطرق للتأثير على أجيال أخرى. فلم يجد العقاد فرصة طه حسين للتعليم في الجامعة والوصول إلى منصب وزير

التعليم. لكن في النهاية يظل العقاد شعلة عقلية ليبرالية سعت إلى تحطيم الحجاب عن العقل العربي وإطلاق قواه، حتى يرى الإنسان العربي ما يدور حوله ويملك قدرة التحليل والفهم والاستيعاب.

حرية الاختيار

لكن ثورة العقلانيين العرب لم تحقق شيئاً؛ بسبب الحصار المضروب من قِبَل الأجهزة المزروعة في كل قطاع التي تكرر نموذج الممرضة في فيلم ميلوش فورمان، الراضة أن يستخدم نزلاء المستشفى عقولهم، لأنهم مرضى، وأن الأفضل لهم الاعتماد على مشاعرهم وخيالهم فقط. ورغم أن عدد المدارس ارتفع، وكذلك عدد الجامعات إلا أن قبيلة العقلانيين العرب لا زالت صغيرة، ومحاصرة، ولعل حرب الخليج الأخيرة كشفت إلى أي مدى يمكن اللعب بمشاعر الناس الذين لا يملكون عقولهم ويستخدمون فقط القلب والوجدان.

لقد اعتقد بعض السذج، أن صدام حسين، هو الخلاص من مشكلات اجتماعية واقتصادية؛ لذلك خرجت مظاهرات انفعالية تؤيده، تماماً مثلما حدث في القاهرة أثناء الحرب

العالمية الثانية عندما خرج بعض القاهريين يطلبون تقدم رومل والذي كان معناه لو تحقق الخراب الإنساني الكامل. ومن وقف مثل العقاد مع الحرية، اتهمه بعض الأغبياء بأنه فعل ذلك طمعاً في المال. وحباً في المكاسب المادية. وهذه المواقف، تريد إلغاء دور الأفراد في الاختيار؛ لأنها لا تؤمن بحق الفرد في الانحياز إلى الطرف الذي يريده. ولعل بعض الأقلام التي انحازت في اليوم الأول للحرية تعرضت لهجوم، أقل ما يقال فيه إنه منحط؛ لأنه استخدم الألفاظ الجارحة في اتهام أصحاب مواقف بالانتهازية واللعب على الحبال. ومن عجائب الأشياء أن الفريق الذي استخدم مدافعه القدرة للهجوم على أصحاب الاختيارات الحرة، يروج لأبشع الأنظمة الدموية، ويريد سحل المنطقة كلها داخل وعاء واحد بعد تجريدها من عقلها. وقد اختار فصيل عربي ضفة الحق لأنها هي الطريق الصحيح، لأن علاج مشكلات المنطقة، يأتي عن طريق التنوير، والديمقراطية، والتعددية، وليس ببلع حرية وذاتية شعب آخر.

وكانت أزمة الخليج، هي التي كشفت عن اتساع غياب العقل. ونمو النزعات الانفعالية الكارهة للتعددية وللحريات بشكل عام.

وتحليل هذه الأزمة بالاعتماد على الرؤية الجاهزة التي تقول بصراع بين الإمبرياليين والقوميين، يبعد شكل ما حدث عن قنواته الحقيقية.

كما أن القول بأنه كانت هناك خطة خارجية للتدخل أيضاً مسألة تحاول خلط الأوراق.

وحقيقة ما حدث أن قوة عربية أصابها الغرور، حاولت التوسع على حساب آخرين، فتصدت لها قوى عربية أخرى من مصلحتها الإبقاء على أمة عربية تحتفظ خلالها كل دولة بسيادتها الخاصة مع ترك النمو الحضاري يتفاعل داخلياً.

تلك هي الأزمة، ولا علاقة لها بتفسيرات تعكس ظروف الستينيات على حقبة التسعينيات.

لكن من يكتبون، يعتمدون على أن المنطقة لا تقرأ وبعض الكتاب يعتمد على عدم جدلية العقل العربي، الذي

يأخذ الأشياء كما هي من دون تحليلها، أو محاولة الغوص في خلفياتها.

مشكلة حبيبي

وإذا كانت أزمة الخليج تكشف أن التيارات العربية العقلانية لم تتجح في وجود الرأي العام الذي يعتمد على عقله وأدوات المنطق؛ لذلك كانت المنطقة مستباحة لإعلام غوغائي، فإن بعض قبائل المثقفين العرب بدورهم من أهل اللامنطق، ويحبون الشعارات، ومن أن المفروض فيهم كونهم نخبة تمثل قيم الاختيار الفعلي. الذي يركز على الرأي والرأي الآخر.

ولعل قضية الروائي الفلسطيني إميل حبيبي ذروة هذه المأساة المضحكة.

لقد أعطت هيئة إسرائيلية غير حكومية جائزة أدبية للكاتب الفلسطيني الذي قبلها شاكرًا معتبرًا أن حصوله عليها يخدم قضيته.

إلا أن موقف حبيبي أثار قبيلة المثقفين غير العقلانيين، لماذا؟ لأن في رأيهم إميل حبيبي رمز طليعي وقبولة للجائزة

يعني الاعتراف بدولة إسرائيل! وكيف أن إسرائيل العدوانية تعترف بأديب فلسطيني، وهي تخطط لإبادة هذا الشعب. ولأن بعض الصحف العربية تبحث عن قضايا ساخنة تشغل بها الناس فإن الصحافة المصرية مثلاً مشغولة بقضية الرسام ناجي العلي، الذي اغتيل في لندن، وسبب الانشغال الجديد هو فيلم نور الشريف عنه الذي لا يعجب بعض الصحافيين فيشنون حملة خلطت بين السينما والوطنية وانتهت إلى ضرورة إعدام نور الشريف، أو على الأقل تجريده من جنسيته المصرية.

والحملة تعبّر عن أزمة، تعكس الأفكار غير الديمقراطية، فهي تريد نفي الآخر، الذي لا تتفق معه فمن وجهة نظر نور الشريف أن ناجي العلي شخصية وطنية عربية مكافحة، وهذا حقه في التحليل، لكن الرأي الآخر يرى أن ناجي العلي نصاب، وهذا حقه أيضاً، لكن المأساة أن يطالب بسحل الرأي الآخر، هو بذلك يريد أن يطغى بوجهة نظره على الآراء الأخرى.

وإذا كان البعض يريد إعدام نور الشريف بسبب ناجي العلي، فإن المتقنين العرب، يريدون صلب إميل حبيبي؛ لأنه

وافق على قبول الجائزة الإسرائيلية، وتعمد هؤلاء نسيان أن
إميل حبيبي كان عضواً في الكنيست الإسرائيلي، وأن كل
أفكاره لا تعارض وجود دولة إسرائيلية. لكن كفاحه هو من
أجل دولة ديمقراطية تضم العرب بجانب الإسرائيليين.

هذا موقفه، فلماذا نريد رؤيته كما نحب أن نراه؟
ولماذا نريد نفي الآخر وقتله إذا لم يفكر مثلاً، وعلى
طريقتنا، بلا عقل ولا منطق؟!

إن الحملة ضد إميل حبيبي، تصلح لأن تكون عيّنة
على تفكك وانهيار من يطلقون على أنفسهم صفة المثقفين.
لأن هوية المثقف هي رؤية كافة العوامل، وعدم الاقتصار
على بعد واحد.

لكن المأساة الحقيقية أن عمليات التصفية للعقل
العربي، طالت النخبة التي كان من المفروض أن تكون
حصن الأمان. ولعل أيضاً الرجوع إلى أزمة الخليج يكشف
عن سقطات فظيعة، فقد تحول بعض المثقفين إلى بوق يردد
شعارات فاشية، بل إن البعض تحدث عن أن صدام هو
بسمارك ومن حقه توحيد الأمة بالقوة، أي قتلنا نحن، الذين
نطرح تطور الأمة ونموها ليس عبر الدبابات، وصواريخ

الكيماوي التي ثبت فشلها، وإنما عبر أفكار طه حسين
والعقاد، وتعددية الأحزاب وتيار الديمقراطية العريض، الذي
يرفع لواء العقل باعتباره المنقذ من الضلال السياسي
والفكري.

بهاء وعمود الوعي

وقد كان عمود أحمد بهاء الدين على مرّ سنوات طويلة منبر لغة العقل في عالم مضطرب ينحاز إلى الانفعال الضار بالصحة النفسية في عالم مضطرب ينحاز إلى الانفعال الضار بالصحة النفسية والسياسية والاجتماعية.

وكان بعض المتشجنين يصفون مواقف بهاء بالوسطية التي تخاف التعبير عن رأيها انطلاقاً من رؤية انتهازية. وهذا المنطق يعبر عن ظلام دامس على عقول لا تريد رصد الحقائق، واعتمدت دائماً على مواقف متشنجة منحازة تغير الولاء من هذا الطرف إلى ذلك، وفقاً لاتجاهات الرياح المادية والمصالح.

وكتابات بهاء كانت تشكل عمود الوعي العربي؛ لذلك جذبت إليها الآلاف من أبناء الأمة الذين يبحثون عن كلمة حق في عالم تسيطر عليه الأوهام والخداع وتغير الأفكار والمصالح.

وأذكر أنني عاصرت حملة ضارية على الرجل انطلقت من بعض المنابر الصحفية. وكانت سوداء ومقرزة إلا أنها حاولت النيل من موقف صلب، يستند إلى المنطق، ووجهت الحملة نيرانها المكثفة لهز هذا الموقف، وكان أصحابها يعلمون أن أفكار بهاء تشكل نقطة وعي لهذه الأمة، وأن نسفها لتمرير منطق الدروشة والتوهان.

وشنت الحملة هجومها العنيف، ضد هذا العمود، الذي كان يكتبه بهاء، الذي تحول قبل توقفه إلى حزب عريض أنصاره أبناء العقاد وطه حسين والكواكبي وفارس الشدياق، وكل كوكبة العقليين العرب، الذين يرفضون اعتبار الوهم على أنه حقيقة، ويركزون على حق الإنسان العربي في استخدام عقله، ونقد الأفكار التي لا يوافق عليها.

صمت بهاء يجعل الساحة الصحافية خالية من رأي معتدل ومترن ما أشد حاجة الناس إليه الآن، في ظل عشرات الأفكار التي تعزف على نغمة الانفعال والشعارات وتعتمد على أن الناس مشغولة بحياتها اليومية، وأن المثقفين غارقون، إما في قضية ناجي العلي، وإما في موضوع إميل حبيبي.

رسالة عمرها ٨٠٠ عام

هزيمة ١٩٦٧، جعلت الكثير من الناس يبحثون عن النقاط المضيئة والمتوهجة في تاريخنا، وشجّع مفكرون وأدباء هذا البحث، بهدف شحذ الإرادة، وشحن الواقع لرفض هزيمة مُرّة.

الذين بحثوا في دفاتر الانتصارات، كان هدفهم ولا زال تأكيد قدرة المقاومة وانتشال الناس من كابوس الهزيمة ودائرة الإحباط. المروجون للسقوط تحت عجالات الاستسلام والانسحاق، ركزوا على بيان أن تاريخنا كله ليس إلا حلقات متصلة من الهزائم المتكررة، وأنها بالطبيعة لا يمكن أن تكون مستقلين!! وأن الهزيمة قدرنا تاريخيًا وحضاريًا.

كان همُّ هؤلاء ترويج الاستسلام، وجعله أمرًا واقعًا، وبما أن الهزيمة قدر ولا فرار منها، فإن توقيع صك الاستسلام هو عين العقل، واختيار واقعي، وعلامة على النضج والتحضر.

معسكر المقاومة، رفض هذه الفلسفة، وذهب ينقب في التاريخ عن مراحل الاستقلال، وعن فترات النصر. وقد خرجت دراسات عديدة قام بها باحثون ووطنيون، تؤكد أن محاولة تكرار النصر ممكنة بشروط معينة، وباستعدادات محددة، وبفلسفة تظهر البيت من الداخل، وتقصي منه كل حلفاء الهزيمة.

بعد النكسة خرج أدب أسود، وشعر قاتم، بعضه صادق يعكس حالة نفسية صدمتها الهزيمة، وهزّها الانكسار العسكري. لكن بعض هذا الإنتاج، كان المقصود منه قتل خلايا الرفض. كان يسعى إلى نشر حالة من الإحباط. مثل مسرحية رشاد رشدي "بلدي.. يا بلدي"، التي خرجت بعد الهزيمة، تسخر من الشعب مُرَّ السخرية، تتهم عليه، فهو مجموعة من الدراويش المخدرين يعيشون في غيبوبة دائمة ومستمرة.

لكن في مقابل هذا العمل المُحبط، خرجت مجموعة مسرحيات علي سالم، محمد دياب، ميخائيل رومان ونجيب سرور، أعمال غاضبة، لكنها تحتوي هذا الغضب المُفجّر للمقاومة، الشاحذ للهمم المُفجّر للطاقة.

إلا أن الشعر الحقيقي الذي صاغ وجدان المقاومة، هو ذلك الذي خرج من القريحة الفلسطينية من جعبة أحمد دحبور، ومحمود درويش، ومعين بسيسو، وسميح القاسم. وأعتقد أن بحث صلاح عيسى الرائع عن الثورة العرابية يمكن إدراجه ضمن البحث عن الحلقات التي تصدت للغزو العسكري الخارجي.. ورغم أن تجربة عرابي قد وصلت إلى نهاية مُرّة، إلا أنها محاولة وطنية أثبتت القدرة على مواجهة خصوم الوطن. وتأمل دروس هذه التجربة يكشف نوعية السلبات التي أجهضت أهدافها وجعلتها لقمة سائغة للمستعمرين.

ورغم أن النكسة مرت عليها ٢٠ عامًا، إلا أن نتائجها ما زالت تتفاعل على أرضنا، فما زال فعل النكسة قائمًا، لذلك مواجهتها قائمة، والتصدي لها مستمر، ولا يزال هذا الفعل يقسم الوطن قسمين، واحد تعايش مع النكسة وتصالح مع العدو، وقسم آخر لا يزال يرفض ويقاوم. والندوة الدولية التي شهدتها القاهرة للاحتفال بمرور ٨٠٠ عامًا على انتصار صلاح الدين الأيوبي على الفرنجة، تأتي ضمن جهود البعض في تذكيرنا بأن الانتصار ممكن. واستحضار هذه الذكرى

هدفه ليس إحياء المناسبة لذاتها، وإنما تنبيهنا إلى واقعنا الحالي، فالقدس ما زالت محتلة، وبعض أراضينا العربية تحت أنياب العدو.

إن الحوار مع النكسة بطريقة سلبية أو إيجابية مستمر. وبعض الوطنيين يريد أن يقول لنا إن صلاح الدين الأيوبي انتصر منذ ٨٠٠ عامًا على استعمار استيطاني عالمي، وإن تكرار التجربة ممكن وفي أيدينا، وأن الهزيمة ليست قدرًا ولا سخطًا ولا غضبًا وإنما هي نابعة من ضعفنا وتخاذلنا، وتجاوزها لن يأتي إلا عن الطريق الذي سلكه صلاح الدين الأيوبي منذ ٨٠٠ عامًا.

حقائق وأكاذيب

يهاجم بعض الصحفيين والكتّاب موجة كتابة المذكرات، التي غمرت حياتنا، خصوصًا بعد نسخة ٦٧. يرى هؤلاء أن هذه الكتابات هدفها التجارة والربح على حساب التاريخ. ويطالب فريق من الناس بمنع شخصيات معينة من كتابة مذكراتهم بدعوى الأمن القومي، وحفظ الأسرار. وأتصور أن هناك بعض القوانين خرجت لتمارس هذا المنع. بل إن بعض الحكومات طاردت بعض الكتب التي تحكي ذكريات مؤلفيها ومنعت تداولها، لا بسبب المعلومات التي تحويها، والتي تمس الأمن القومي وخزانة الأسرار الاستراتيجية، وإنما لأنها تقترب من المحظورات السياسية، وتضمنت رأيًا معارضًا في نهج هذه الحكومات.

لقد منعت الرقابة صدور كتاب "البيوت الزجاجية" للبرلماني الراحل محمود القاضي؛ لأن الكتاب كان يفضح جوهر نظام السادات بالكامل، ويسقط عنه ألقاب الديمقراطية المزيفة. لكن ذات الرقابة سمحت للمقاول عثمان أحمد

عثمان، أن ينشر مذكراته تحت عنوان "تجربتي" لسبب بسيط؛ هو أن ذكريات عثمان، تهاجم حكم عبد الناصر بضراوة. وكان نظام "السادات" يشجع هذا السلوك، فالهجوم على العهد الناصري، يعد بطريقة غير مباشرة مدحاً وتقريضاً له.

وهذا اللون من الكتابة منتشر للغاية في الأدبيات الغربية، وانتشاره يعكس نوعية فكر ديمقراطي، يرى أن كل إنسان لديه شيئاً ما يقوله، سواء كان رجلاً مسؤولاً على القمة، أو إنساناً بسيطاً يحتل أدنى السلم الاجتماعي.

وبروز هذا اللون في الغرب، علامة على تبلور الحياة نحو النضج، ونحو إبراز مواهب الأفراد وتعددتها. فهذا اللون من الكتابة في العصور القديمة، كان مقصوراً فقط على الحكام، وعلى السياسيين والمفكرين، والرجال الكبار في السلطة والحياة الاجتماعية.

هذا الحق متاح الآن للجميع، والجرائد السيارة، والمجلات الشعبية، لا يخلو صفحاتها من هذا اللون من الكتابة، يؤلفها ساسة وصعاليك و "حرافيش" صغار على باب الله. يحكون عن حكايات بسيطة ومفارقات طريفة مرت بهم.

يكتبون عن لحظات سعادة، وأخرى حزينة عاشوها بمُرّها وحلاوتها.

والقارئ، يفرز الجيد من الغث. يعرف بحسه، وثقافته ما هي الكتابة الناضجة التي تقول شيئاً، وما هي السطور المُسَفّة، التي همها الإثارة فقط، والضحك على ذقن القارئ، وبيع بعض الأوهام والحكايات المزيفة له.

وأتصور أنه مع بداية ظهور هذه الموجة في حياتنا، لم نكن نفرق بين الجيد والهابط، بسبب بسيط؛ هو أننا كنا متعطّشين لهذا اللون من الكتابة، الذي يفتح أمامنا صندوق الأسرار الخاصة والعامة، وبروز هذا اللون ترافق مع انفتاح جزئي، على قضية الحريات، وحقوق التعبير. لذلك تدفق هذه الكتابات علامة إيجابية على درب تخفيف القيود والموانع التي تصادر حرية الأفراد في الكتابة ونقل خبراتهم وآرائهم للآخرين.

وكلما نضج عقل القارئ، كلما اكتشف أن بعض هذه المذكرات تافه وسخيف، ولا يستحق الالتفات إليه وتضييع الوقت. وسيكتشف ذلك بنفسه بعد مطالعة هذه الكتابات وهي منشورة. لذلك نحن نؤيد النشر مهما كانت تفاهة المادة

وإثارتها؛ لأن القارئ نفسه سيدرك أنها أوراق سخيفة، لا تقدم لا رأياً ولا مذكرات، ولا حتى بعض الانطباعات الذاتية.

إن نشر مذكرات الفريق الشاذلي، عمل إيجابي، فالرجل قال في كتابه كلاماً في غاية الأهمية. ووجود هذه الأوراق منشورة إنجاز هام بكل المقاييس، أمّا ما ينشر الآن تحت عنوان مذكرات "مذكور أبو العز" فهو شيء، ليس له علاقة بالمذكرات، لا السياسية أو العسكرية، إنه كلام له هدف سياسي محدد؛ التشهير ورمي حقبة وطنية مزدهرة بالطوب والحجارة.

وإذا كانت مذكرات الشاذلي أحدثت ضجة هائلة؛ لأنها قادمة من رجل له وضعه وحيثياته، فإن مذكرات أبو العز، لا يلتفت إليها أحد، ولا تثير أي إنسان؛ لأنها سطور مجزأة لا تروي شيئاً له قيمته، وإنما هي آراء سياسية لصاحبها تقتقر المنهج والنضج.

والمثير في الأمر، أنه قبل نشر مذكرات أبو العز، كان البعض لديه صورة مختلفة عن الرجل، نتيجة الحكايات التي كانت تروى عنه، نشر هذه الأوراق كشف أن هذه الروايات

كانت محض خيال، فسطور الرجل تكشف هويته السياسية كاملة، وتقدم للمرة الأولى حقيقته بدون لف أو دوران. وإذا كانت مذكرات الفريق فوزي أحدثت ولا زالت تحدث ضجيجاً، فإن ما نشره، "كمال حسن علي" تحت عنوان "محاربون ومفاوضون" كان أقل كثيراً من وضع الرجل فكتابه عبارة عن انطباعات سريعة، وجمل خطابية حماسية، تفتقد للرؤية، سواء فيما يتعلق بالحرب أو السلام.

وإذا كانت مذكرات "محمد كامل إبراهيم" "البحث عن السلام الضائع"، عملاً على أهمية كبرى، فإن كتابات أخرى كتبها أصحابها، يدعون فيها دوراً ووظيفة مرت مرور الكرام، نشرت ووزعت في الأسواق وقرأها الناس، دون أن تترك أثراً أو أن يأخذها أي باحث بطريقة جدية.

نشر المذكرات عمل مطلوب، نؤيده؛ لأنه أولاً مفيد من ناحية توثيق المعلومات. وتقديم شهادات حية، ولأنه من ناحية أخرى علامة على رحابة صدر الحياة السياسية، التي تسمح بنشر الأوراق الخاصة والعامة، إلا فيما يتعلق بالأسرار العسكرية وقضايا الأمن. وأتصور أن هناك قوانين

تنظم هذه الأمور، معمول بها في العالم، ومعترف بها في منطقتنا.

لكن نشر ما هو ممكن مطلوب؛ لأنه يقدم خبرات جيدة، فمثلاً مذكرات السياسي الناضج محمود رياض، التي جمعت مؤخراً في ثلاثة كتب عمل يؤيد وظيفة نشر المعلومات في إطارها الصحيح والمفيد.

وأعتقد أن التوسع في هذا المجال مطلوب، دون الخوف من رواج الأفكار الرديئة وانتشار العمليات التجارية؛ لأن النشر في حد ذاته يبين الجيد والرديء، فلو لم ينشر الفريق فوزي مذكراته لما عرفنا خفايا حرب الاستنزاف. ولو لم ينشر أبو العز مذكراته لكنا ما زلنا نحتفظ ببعض الحكايات والروايات التي نفتها كتابات الرجل تماماً، وقدمت بدلاً منها الحقيقة كاملة، التي هي دائماً قاسية ومفجعة وغير قابلة للتصديق.

المرض الخبيث

ليست فكرة التعددية تخص مجال السياسة فقط، وإنما هي منهج وطريقة حياة، تشمل كافة الأنشطة والإبداعات، والأفكار والاتجاهات، إن التعددية ضد الأحادية بمختلف صورها، ضد فكرة البعد الواحد، ومن هذا المنطلق فالفكر التعددي ديمقراطي متنوع، والفكر الأحادي ديكتاتوري.

التعددية تؤمن بالدعوة التي تنادي بتفتح مئات الأزهار، بينما الأحادية ديكتاتورية فردية، لا تريد سوى حكم الفرد الواحد، ليس في المجال السياسي فقط، وإنما في ساحات الأدب والفن والاقتصاد.

والذين يرجون للأحادية، نرجسيون ومرضى، ويعيشون حالة من حالات الصراع الداخلي، ينظرون صباح مساء في المرأة فلا يجدون سوى أنفسهم، ويتصورون أن العالم لا يتسع إلا لذواتهم المريضة، وأحلامهم السخيفة في الانفراد بسطح الأرض.

هذه الأحادية مرض، وحالة غير صحية تعاني منها
الدول كما يعاني منها الأفراد، وهي من علامات الأزمة،
أكثر منها دليلاً على صحة أو عافية.

إن المجتمعات الغربية اختارت الطريق الديمقراطي؛
لأنها تعادي الأحادية بمختلف أشكالها، فلا يوجد كاتب واحد
معتمد مفروض على الناس بالقوة والإرهاب، وإنما هناك
مئات بل آلاف الكتاب الذي يكتبون أشياء مختلفة ترضي
الأذواق المتنوعة، فهناك الساخر، والجاد، والعملية،
والهادف، والطريف. وكل كاتب له جمهوره، والساحة
مفتوحة لعشرات المؤلفين الجدد، الذين تفرزهم الحياة الأدبية
والفكرية كل صباح.

إن من يتأمل الحياة الثقافية الغربية، يرى أن المطابع
تصدر كل لحظة تقريباً كتاباً جديداً لمؤلف شاب، يكتب
لمجموعة معينة من الناس، ومن يتابع ساحة الإصدارات
الغربية سيرى ألواناً مختلفة متنوعة، فالمجالات مفتوحة أمام
الجميع، فلا يوجد كاتب تدعمه السلطة ومفروض على
الجميع بإرهاب شرطتها، ولا يوجد كاتب وحيد ينفرد
بالساحة. إن هناك آلاف الكتاب الذين يكتبون لأذواق مختلفة؛

لأن الذوق في البيئات الديمقراطية متنوع ومتغير، وكل فرد له اختياراته وشخصيته التي شيدّها عبر سنوات تكوينه الحر والمستقل.

هذه الظاهرة الإنسانية، ترفض نظرية الكاتب الأوحـد الموهوب، الذي لم تتجب الطبيعة مثله، وسلّحته آلهة جبال "الأولمب" بدروع المعرفة والموهبة وأدوات الفصاحة والنباهة! هذا الكاتب الفريد غير موجود في الواقع، إنه موجود فقط في خيالات بعض الشواذ، وبعض الأدعياء وبعض المزيّفين، ولأن هذا الكاتب الذي يرضي الجميع غير موجود، لأن الفكرة أساسها فاسد، فهناك كُتّاب عديدون يكتبون لأذواق مختلفة متنوعة متنافرة، فما يعجبه هذا الكتاب، لا يقنع به آخر، وعظمة الحياة الغربية أن الكل موجود ولا توجد مزاحمة "فالسوق يتسع للجميع"، فالكل يقرأ، والكل له ذوقه واختياره؛ لذلك هناك طلب مستمر على الجديد، فالأجيال الشابة الصاعدة مثلاً تطلب كُتّابا يكتبون عن حاجات تشعر بها وتريد من يعبر لها في أشكال فنية وإبداعية مختلفة.

ومن يتأمل موسيقى الشباب في أوروبا سيفزع به هذا العدد الكبير من الفرق الغنائية والموسيقية، وأن هناك في بريطانيا فقط برنامجًا يقدم حوالي ٣٠ أغنية جديدة في الأسبوع.

هذه المظاهر تعكس حالات حيوية ونشاطاً ونمواً، فالذوق مختلف في البيئات الغربية، بينما نحن لأننا تعودنا على الزعيم الوحيد والفكرة الواحدة، والكاتب الواحد، والمغني الواحد فإننا أصبحنا مرضى بهذا الوباء الأحادي الخطير حتى بعض الذين تعلموا وتثقفوا منا، ويمارسون حرفة الكتابة طالهم هذا المرض الخطير يقعون في الخطأ الديكتاتوري ويطالبون بأن تسيطر الأحادية بثقلها العنيف علينا، لا يريد ظهور أقلام متنوعة ومتعددة فهذا في رأيهم تقاهة وانحذار بأداب المهنة! نفس الادعاء السمج القديم الذي يردده أنصار الحكومات الديكتاتورية. فعندما كانت الصحف خاضعة في القاهرة مثلاً لرقابة مشددة من الحكومة لم يكن مسموحاً بقراءة غير كاتب واحد، إلا أنه في عهد الانفراج الديمقراطي والنسبي يرى الناس في مصطفى شردي كاتباً جيداً ويرون في صلاح عيسى قلماً يعبر عنهم،

ويعدون فيما يكتب فيليب جلاب، وعادل حسين، وحامد زيدان، ووحيد غازي أشياء جديرة بالقراءة. هذه الأسماء لم يكن مسموح لها بالكتابة من قبل، عندما كان موسى صبري يفرض نفسه على الجميع بأمر النظام.

وأهمية الصحف أنها تخاطب قطاعات عريضة متنوعة، ذوقها مختلف، وأفكارها متنوعة والصحف البريطانية تصر على كتابة اسم كل كاتب، حتى ولو كتب سطرين. هذا الإصرار، على امتلاء الصحيفة بعشرات الأسماء هدفه إرضاء أكبر قدر من قطاعات القراء.

والصحف نفسها منفذ ديمقراطي لذلك عليها تتنوع الاتجاهات، وتتعدد الأفكار، يلتقي بعضها ويتصارع بعضها الآخر.

إن الذين يروجون للأحادية يعانون من أمراض نرجسية خطيرة، طالت من قبل شخصيات تاريخية مثل كاليجولا المجنون، الذي كان لا يرى سوى نفسه في المرأة، وكان مغرماً بالوقوف ساعات أمامها للتحدث عن عبقريته وتفرد ونبوغه، وهناك كتّاب عديديون، عانوا من هذه الحالة الخطيرة فكانت نهاياتهم مصحات الأمراض العقلية،

يهلوسون ليل نهار عن نبوغهم الذي لم يقدره الناس
وعبقريتهم التي لم يفهمها أحد.

إن التواضع علامة من علامات الصحة العقلية، وصفة
من صفات الاتزان. فالناس كلهم موهوبون ولديهم قدرات
معينة من الذكاء.

هذه الفكرة التي رسّخها سقراط وشيّد الغربيون على
قاعدها بناء النهضة، الموهبة تنمو في داخل الجميع. أما
البيئات الديكتاتورية بفكرها الفردي النرجسي فإنها شيدت
عبقريتها المفلسة بقمع الناس وتخويفهم وإرهابهم ونتصور أن
هذه الحالة واحدة من حالات الجذب وعدم الإبداع، أمّا الحالة
الحقيقية المبدعة فهي التي تتمسك بالشعار الجميل
"دع مئة زهرة تتفتح ومئة فكرة تتصارع".

حجب العلم

أرادت بعض العناصر المثقفة، وبعض الأعلام الموضوعية ترشيد عمليات التفكير، والتخفيف من الجرعات الانتحارية التي سادت واقعنا بعد النكسة. أكدت رغبتها في الإسهام والبحث في قضايا الفكر الديني، كان لديها رغبة في مناقشة التراث من خلال لغة الحاضر، كانت تريد دفع المادة التراثية نحو تبني أطروحات النهضة، لتكون باعثاً ومفجراً للمقاومة، وعاملاً على إزالة آثار العدوان، بطريقة تفتح الباب أمام الفكر الديني المستنير ليساهم في هذه الصيغة التحالفية. التي تمنح الجميع الفرصة لإعادة وصياغة الوطن على أسس علمية تتطلق من الواقع وتعاين التراث، وتتظر نحو المستقبل.

كانت كافة الأفكار الموضوعية، بعد النكسة تطرح فكرة الجبهة الوطنية العريضة التي تضم كافة الأفكار؛ لتشكيل حائط مواجهة ضد تقدم العدو وفكره وخططه الهادفة لضربنا من الداخل.

كان هذا المنطق يؤمن أن مهمته إزالة آثار العدوان، لا يتكفل بها حزب واحد، أو فكر واحد مهما كان نبيل مقاصدهما؛ لأن المهمة صعبة وشاقة، وتحتاج كل الجهود، وتريد كل الأيدي.

لذلك طالب هذا الفريق بدعم المطلب الديمقراطي، ونادى بالإصلاح السياسي. وكانت مظاهرات الطلبة في ١٩٦٨. التي خرجت من جامعة القاهرة، ومصانع حلوان الصناعية، تعكس دلالة هامة، فإن قوتين مؤثرتين، من قوى المجتمع تطالب بشيئين: التغيير السياسي الكامل، والحرية غير المنقوصة.

ونمت في هذه الفترة، تيارات الفكر الأصولي، فبدأت تطرح تنظيرات غيبية عن النكسة، شكلها ديني، لكن مضمونها سياسي واضح، وانجرفت قطاعات من هيكل النظام في هذه الموجة، عن وعي وقصد. فقد كانت بطبيعتها ضد مسيرة التغيير الاجتماعي، وضد فكرة تنوير المجتمع. تنبّه المفكرون لبروز التيار الأصولي. فقد كانت الظروف التي أعقبت النكسة مريرة، وتسمح بانتشار هذا الفكر، الذي

يضمد جراح الناس بأسبرين الإيمان، ونبذ المجتمع والعودة إلى سيرة الخلف.

حاول مفكرون ومصلحون، دفع الأمور في طريقها الصحيح. أرادوا التحاور مع "خالد محمد خالد" لعله يكون لديه بعض ما طرحه في كتابه من هنا نبدأ" لكن الرجل نتيجة جهل السلطة في الحوار معه اختار الصبر والصمت، وهو الشعار المجلجل الذي كان مرفوعاً آنذاك.

وإذا كان المناخ يرتد بسرعة مذهلة إلى الماضي فقد رأى التيار الموضوعي، أنه لا خلاف حول هذه القضية. إن التراث يدخل في تكويننا ويضيع شخصيتنا، لكن السؤال هو: أي تراث؟

لقد انشغلت المطابع سواء الحكومية أو قطاع خاص بطرح كتب غريبة الشكل على اعتبار أنها التراث.. كتب قديمة، أعيد طبعها، دون تحقيق، ودون نظر فيما تقوله. إن هناك تراثاً، تمت كتابته في أوقات المحن والنكسات، يدفع الناس إلى قنوات غريبة، تستمد أفكارها من نحل وجماعات دخيلة على الفكر الإسلامي، تستمد أفكارها من تراث "زرادشت" وبعض اتجاهات الصوفية الهندية، تسالت

إليها عادات غريبة، حاربها من قبل الإمام "الغزالي" في كتبه، وتصدى لها الفقيه "ابن تيمية".

حاول التيار الموضوعي، نشر التراث محققاً، ومرتباً، والأهم من ذلك انتقى حلقات التراث، المضيئة، التي قاومت تخلفاً وحاربت غزواً. وركز هذا التيار، على استعراض الشخصيات الإسلامية البارزة، التي تصدت للتخلف وقوات منع التفكير. ووقف موقفاً واضحاً من قضية العدل الاجتماعي بأفقها السياسي الذي يؤيد فكرة التعدد وحرية الرأي.

وقد وقف هذا التيار موقفاً متقدماً من التراث ككل، أراد صياغة نظرية بحيث تكون هذه المواد ركيزة نهضته، تعمق قضية الديمقراطية بروافدها المختلفة، وتضع في الأرض بذوراً صالحة للنمو والازدهار.

وقد بذل د. محمد عمارة، جهوداً جيدة على هذا الدرب، فأخرج الأعمال الكاملة لمفكري النهضة الإسلاميين، أمثال الكواكبي، والطهطاوي، وعلي مبارك، ومحمد عبده، وواكب هذا الجهد التحقيقي جهد آخر تأليفى، يناقش قضية

الحرية في إطار الفكر الإسلامي، وبسط الرجل آراء المتكلمين.

وساهمت كتابات د. حسن حنفي، ود. محمود إسماعيل، وأحمد عباس صالح في صياغة مشروع تراثي يستند على قواعد أساسية من الفكر الإسلامي. هذه المحاولة حاولت بكل جهدها أن تكون تياراً مؤثراً، ومحوراً يركز عليه الحوار الهادف لإعادة صياغة المجتمع على أسس جديدة، تتصدى للنكسة، وتمضي في إنشاء مشروع النهضة الحقيقي. لكن هذه المحاولة تبذرت.. تناثرت.. بلغتها ريح عاتية جاءت في السبعينيات.

فقد تدخلت السلطة السياسية بشكل مباشر في هذا الموضوع. حاصرت هذا التيار، أغلقت مجلة مثل "الكاتب" كانت تقود أحد روافد العملية الفكرية. عملت السلطة على تهيئة المسرح للجماعات الأصولية، لتكون هي المهيمنة على كل شيء؛ حتى تتمكن من تنفيذ مشروعات في غاية الخطورة: الانفتاح الاقتصادي، والصلح مع إسرائيل.

ولأن هذه الجماعات كانت تحتاج لبناء نفسها، فإنها رحبت بالانفتاح؛ لأنه سمح لقياداتها بممارسة التجارة وبناء

شركات الاستثمار، والاستحواذ على المدخرات القومية، وفي نفس الوقت تجاهلت عن عمد خط النظام السياسي، الذي كان ينمو في اتجاه الصلح، وينشط في جبهة التحالف مع القوى الاستعمارية الكبرى.

هذه المعادلة السياسية، كانت وراء سيادة جماعات غربية في فكرها وممارستها. تمكنت من إزاحة أية عناصر أخرى راغبة في طرح التراث كعنصر من عناصر تكوين الشخصية القومية، وكان نتيجة لسيادة هذه الموجة الطاغية تفكيك التيار الموضوعي، وتحول رجل مثل عمارة ليخدم تحت راية تحالف هذا التيار، وأصابته حسن حنفي موجة خمينية، وسقط عادل حسين في لجة الدروشة.

وكان سقوط ورقة العقلانيين التراثيين، لبنة أخرى في تشييد الصرح، الذي يحاول حجب العلم وتقويض النهضة، وتدمير أسس المعادلة السياسية.

إنسان .. موقف

لم تكن السبعينيات حقبة زاهرة على الإطلاق. إنها فترة الردة والضياع. مرحلة قاسية، عصبية، غليظة الملامح، دامية، دفعت بعناصر وطنية وأخرى راديكالية خارج دائرة الوطن، ألقت بهم في المناطق الباردة، وفي صحراء الغربية التي لا ترحم.

دفعت هذه الأيام المجنونة الباهتة البعض إلى تبني أفكار غريبة عنه، ومارس البعض الآخر أدوارًا لا تتفق مع تاريخه ولا اتجاهاته، وعمل البعض منا في مواقع غريبة عليه، مضادة لفكره، عدوة لمعتقداته وآماله وطموحاته.

هذه السنوات العجاف، مرحلة شديدة القسوة، أربكت الجميع، وأحدثت قدرًا كبيرًا من الخلطة والبلبل في صفوف الجميع.

لكن هناك عناصر فكرية، لم تسقط لا في موجة الإغراءات ولا تاهت في ضباب الهجرة، كانت دائمًا تمسك ببوصلة تحدد بها طريقها ومسارها فلم تتأفق العدو، ولم

تخلط بينه وبين الصديق. والأهم من هذا، أنها لم تنتقل إلى مواقع مناقضة لفكرها، لم تخدم أبداً إلا تحت الراية التي تؤمن بها.

لقد شاهدنا في الغربية نماذج مرعبة، باعت كل شيء، وتخلت عن كل شيء. ولم يمنعها حياء من ممارسة كافة الخطايا!! جعلت من الأعداء أصدقاء، ومن الأصدقاء أعداء. كل ذلك تحت "يافطة" تبريرية اسمها لقمة العيش ومستقبل الأولاد.

لكن إذا كان هناك من تخطى عن أفكاره، ومارس لعبة "الاستر بيتيز" السياسي والفكري، فهناك نماذج قبضت على الجمر، عانقت المستحيل، لم تكتب حرفاً تبريراً منافقاً، ولم تأخذ أية مواقف غريبة عليها، مضادة لتاريخها، من هؤلاء، محمود أمين العالم، رجل شجاع، تشرّد في المنافي، نتيجة وقوفه بشدة ضد ردة السادات. عاش في فرنسا منفياً عن الوطن بإرادته لأكثر من عشر سنوات. كان هناك يقول الكلام نفسه، الذي التزم بقوله لأكثر من ثلاثين عاماً. نفس الموقف الثابت والراسخ، لكنه طوّر الكثير من أفكاره ومقولاته؛ حتى تلاحق المتغيرات التي جدّت في مرحلة اشتد

فيها ساعد الثورة المضادة، والفكر المضاد لطموحات المنطقة.

وإذا كانت هذه السنوات الصعبة، أُلقت بالبعض في أحضان التخلف بمؤسساته الحديثة من الخارج، وهمجية السلوك من الداخل، فإن محمود أمين العالم نجا من السقوط في المصائد الخبيثة. لم تجذبه إليها ولم تتمكن من ضم فكره ليخدم مخططاتها الهدامة، والتي تستهدف تصفية الحلقات الواعية والمستنيرة في المنطقة.

لقد نجح "العالم" في استغلال سنوات المنفى، لتدعيم مواقفه الفكرية والسياسية الصلبة، واجتهاداته النظرية المتطورة.

إنني أقرأ له هذه الأيام كتابه الجديد "الوعي والوعي الزائف في فكرنا العربي المعاصر" وهو تجميع لمقالات نشرت أغلبها في سنوات المنفى. ومن يتأمل هذه الدراسات والمتابعات، سيجد أنها ملاحقة نقدية لما صدر في السنوات الأخيرة من أفكار واتجاهات. قراءة واعية ونقدية لبعض النظريات والمسارات الفكرية والممارسات السياسية.

يبدو "العالم" في هذا الكتاب أكثر تألقاً وأكثر حسماً.. إنه يشترك مع أفكار قديمة ما زالت تغرق حياتنا بإنتاجها، إنه يحاور مرة أخرى د. زكي نجيب محمود، ينتقد فلسفته، يتعرض لاجتهاداته، يبين حجم الخطر الذي ما زالت تشكله تأثيراته بالفكر الوضعي، خصوصاً المدرسة البرجماتية الأمريكية، التي تنظر للحياة من خلال مفاهيم المنفعة والمصلحة.

يحاور "العالم" في كتابه أنور عبد الملك، حول نظرياته الجديدة، التي ترتدي رداء العلمية، لكنها تجرف سفينة فكر المنطقة إلى شواطئ غير آمنة، يكتنفها الضباب الكثيف.

و"العالم" منذ عودته إلى تراب الوطن، بعد انتهاء الحقبة الساداتية المظلمة، وهو يسعى لتتوير الواقع وتحريكه نحو حلقات أكثر تقدماً واستنارة. إن "العالم" ينشر مجلة فكرية وسياسية اسمها "قضايا فكرية" منبر، يتحاور على صفحاته الفكر الوطني الراديكالي.

الأعداد الثلاثة، التي صدرت منها، تبين أن سنوات الهجرة لم تتل من حيوية الرجل، فما زال "العالم" صاحب

كتاب "في الثقافة المصرية" و "معارك فكرية" يسير على خطه السياسي بخبرة أثقلت سنوات الهجرة الصعبة.

لقد جرّب "العالم" سجن الحقبة الناصرية. عاش خلف الأسوار نتيجة خلاف مع القوى الوطنية الحاكمة آنذاك. وخرج أيام السادات، ليعيش في فرنسا، فأسلوب "السادات" كان مختلفاً، فلا خيار أمام معارضيه، فإمّا الهجرة إلى الخارج، وإمّا الملاحقة المستمرة والموت في الداخل!

وأتصور أن أيام فرنسا، كانت أقسى من أيام "أبو زعل" لسبب بسيط، هو أنك داخل الأسوار، أكثر تماسكاً، بينما في الخارج، التحدي في منتهى القسوة، فالإنسان وحيد، يواجه الإغراءات والمحاولات المستمرة لغزوه بأساليب مثيرة.

لقد صمد ناس كثيرون خلف الأسوار، لكنهم في الخارج تحولوا إلى أشياء "ماسخة" و "خرق" بالية. لعبت بهم الرياح، وقضت على تاريخهم وأفكارهم.

لم ينحن "العالم" للظروف القاسية، التي مر بها. والدور النشط الذي يقوم به حالياً سوائاً في المجالين السياسي والفكري يمنحنا الأمل مرة أخرى، ويؤكد أن الإنسان أقوى

من الظروف، وأن الإنسان موقف، وهو عنوان لكتاب ألفه
"العالم" منذ سنوات. وأتصور أن كل ما جاء فيه صحيح
وسليم، وأن التجربة المرة أثبتت أن الرياح العاتية لا تقلع من
الأرض إلا الحشائش الهشة والنباتات الطفيلية، أما الجذور
الضاربة في العمق، فلا ينال منها، لا الاعتقال ولا الجلد، ولا
حتى معتقلات لندن وباريس المكيفة الهواء.

من روجرز إلى السادات

صدر للصحفي اللبناني فؤاد مطر كتابه الجديد بعنوان "زلازل مصر السياسية" الذي يعود فيه إلى فترات سياسية ساخنة بدأت مع مرحلة ما بعد نكسة ٦٧ وقبل مبادرة روجرز خلال حرب الاستنزاف، ورحيل الرئيس جمال عبد الناصر، وتسلم الرئيس السادات السلطة ثم صدامه مع مجموعة سياسية معارضة له.

وأهمية الكتاب أنه من تأليف صحفي لبناني عاش هذه الفترة عندما كان مراسلاً لصحيفة "النهار" البيروتية في القاهرة.

ويبدو أن الكتاب محاولة للتذكر وإعادة نشر وثائق هذه الفترة الساخنة جدًا خصوصًا انتقال مصر الناصرية إلى مصر الساداتية. وهو مصطلح استخدمه المؤلف كثيرًا في الفصل الخاص بمرحلة صعود الرئيس السادات وبحثه عن خيار آخر غير الطريق الناصري.

هذا الفصل الذي عالج فيه المؤلف مرحلة السادات يبدو أنه الجزء الأول وهناك في ملف فؤاد مطر عدة أوراق أخرى سيقوم بنشرها حول زيارة القدس، وما ترتب عليها من تداعيات ومواقف.

والكتاب عبارة عن تحقيق طويل فيه روح المراسل الصحفي الذي يبعث بتقاريره اليومية عن تطور الأحداث؛ لذلك تعتمد مصادر الكتاب على قراءات للصحف حتى أن المؤلف يستعين بفقرات طويلة لمقالات كتبها الأستاذ محمد حسنين هيكل وأخرى لموسى صبري.

وهذا المنهج الذي استخدمه فؤاد مطر يعطي كتابه فكرة التوثيق بينما التحليل السياسي يحتل مكانة تالية مع غياب الوثائق الجديدة المتعلقة بظروف الزلازل التي عانتها مصر في هذه الفترة.

ويسجل الكتاب هذا التوثيق المهم لردود الفعل العربية على قبول عبد الناصر مبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكية. إن حجم الوثائق المنشورة بين حجم الغوغائية السياسية والضغط الدعائية المباشرة ضد مصر وقيادة عبد

الناصر. وهذا الموقف تجدد أيضاً مع مبادرة السادات تجاه زيارة القدس.

وتكشف أوراق الكتاب حجم الخطاب السياسي العدائي لعبد الناصر والذي انطلق من بغداد يهاجم هذا الموقف السياسي الذي اختاره الرئيس المصري في التعامل مع خيار الدبلوماسية الجديد.

ويرى مطر نفسه أن قبول مبادرة روجرز كان بداية الاعتماد على طريق الحل السلمي والوصول إلى كامب ديفيد.

ولأن الكتاب يقف عند أزمة مايو ١٩٧١ فإنه لا يصل بعد إلى حرب أكتوبر وهي التي طرحت الخيار العسكري حيث دخل المصريون في مواجهة عسكرية ضارية حققت النصر والعبور. ولا يمكن التعليق على موقف المؤلف إلا بعد صدور الجزء الثاني من كتابه.

يكشف الكتاب فصول الإيقاع السريع والمتلاحق الذي حدث بعد مبادرة روجرز وانفجار المواجهة بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية ودور الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في إنقاذ المقاومة من الفك الأردني المفترس.

ويضيف مطر جنازة الرئيس عبد الناصر والتطورات السياسية التي حدثت بإقالة السيد علي صبري والقبض على خصوم السادات السياسيين فيما عرف باسم مجموعة مراكز القوى.

ويبين الكتاب اقتراب فؤاد مطر من الحياة السياسية والصحفية المصرية من نافذة المراقب الخارجي الذي يرصد الأحداث اليومية عبر قراءة الصحف ومحاولة تحليل ما بين السطور لمعرفة ماذا جرى داخل كواليس دائرة الصراع بين المجموعات السياسية المختلفة.

والكتاب يقدم مجموعة من الأوراق الموثقة تجاه مراحل مهمة في حياة مصر كان ذروتها رحيل جمال عبد الناصر وبدء مؤشر التغيير في اتجاه آخر استمر مع الرئيس السادات حتى رحيله عن المسرح في أكتوبر عام ١٩٨١.

وبرغم حرص المؤلف على الوقوف على الحياد بسبب منهجه الموضوعي فإنه يقدم عدة آراء واجتهادات مهمة بل يقوم بمهمة نقد عنيفة تجاه ما حدث لوفاة الرئيس عبد الناصر حيث يتهم بالتقصير في التعامل مع مرض الرئيس الذي أصيب بأزمة قلبية وجرى إخفاء الأمر عنه. ثم عندما شعر

بالإعفاء الشديد خلال توديع أمير الكويت جرى نقله إلى منزله وليس إلى المستشفى.

وبالتأكيد لا يغيب عن فطنة فؤاد مطر السياسية أن توجهه موكب الرئيس إلى المستشفى كان يعني هزة كبيرة على المستوى السياسي لذلك اختار الرجل نفسه الانتقال إلى منزله.

وينتقد مطر الإجراءات الطبية التي جرت في المنزل، غير أن رحيل عبد الناصر المفاجئ تم امتصاصه عبر تحرك كيان الدولة التي أسسها للقيام بعملية انتقال إلى السلطة من خلال المؤسسات والدستور. ويعطي مطر إحياءات قوية عن دور الأستاذ هيكل في هذه المرحلة والتطورات التي أعقبت الصدام بين السادات ومجموعة "مايو".

ويعتمد المؤلف في الكثير من الوثائق على قراءة صحيفة "الأهرام" ومقالات الأستاذ هيكل، وفي مرحلة الانتقال إلى السادات بدأت تظهر مقالات موسى صبري.

وكتاب فؤاد مطر يعيد الذاكرة السياسية إلى هذه الفترة الساخنة جدًا من تاريخ مصر، حيث كانت تتعاقب الزلازل بسرعة شديدة، فبعد النكسة جاءت حرب الاستنزاف ثم دخلت

مصر في أزمة مبادرة روجرز وبعد ذلك اندلاع الحرب بين المقاومة والملك حسين وتدخل الرئيس عبد الناصر خلال قمة الهيلتون التي عقدت في القاهرة، وفي نهاية القمة رحل عبد الناصر وجاء السادات، ثم اندلعت المعركة الداخلية التي حسمها السادات لمصلحته.

ووثائق فؤاد مطر تكشف أنه لم تكن هناك مؤامرة من قبل مجموعة "مايو" التي قدمت استقالاتها وجلست في منازلها حيث قام السادات بعملية الاعتقال.

وتقول وثائق الكتاب إن السادات كان منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى السلطة عازماً على التخلص من إرث الناصرية بالكامل واتبع في ذلك السياسة التدريجية، حيث تمكن في النهاية، من ترسيخ حكمه بلا ناصرية أو ناصريين. والجزء الثاني من كتاب مطر يستحق الانتظار لمواصلة الوقوف على مرحلة مهمة في تاريخ مصر قبل الوصول إلى عهد الاستقرار الحالي بلا زلازل أو صدمات كهربائية وإنما عمل للبناء والتنمية ورخاء مصر.

عقل وعضلات

كان الحكيم الإغريقي القديم "سقراط" مغرمًا بالحوار مع أهل مدينته الأثينيين. كان هدفه شد بيئته إلى قيم الحوار، جذبهم إلى منطق العقل. فقد كانت "أثينا" في عهده، تعيش أيامًا انفتاحية، تسيطر عليها قيم الاستهلاك، والفتونة العضلية، برز في هذه الفترة رجال جوف أثرياء، يتاجرون في كل شيء، ويبيعون كل شيء، ويثرثرون حول أي شيء، إنه عصر الثروة، الذي أبرز رجالاً لهم ألسنة طويلة حادة، لكن عقولهم ضامرة قزمة عاجزة عن الحركة والتفكير.

كان همُّ "سقراط" هو إيقاظ ملكة العقل، في بيئة فقيرة عقليًا، لكنها ثرية بالمال والجاه. كانت مهمة الرجل الحوار مع الشباب بالذات؛ لاستفزاز ملكة التفكير لديهم، لتربيتهم على احترام عقولهم أولاً، واحترام الرأي الآخر ثانيًا. وكان تلميذه أفلاطون معجبًا بأستاذه خصوصًا عندما كان يتجول في الأسواق يخاطب الجنود المغرورين

بعضلاتهم، يحدثهم عن فضيلة التواضع، وعن قيم الخضوع للمنطق.

كان هدف الرجل، زرع العقل في جسم ضخم منتشٍ بالقوة العضلية، وبالانتصار في المعارك والحروب. ورغم أن "سقراط" مات منتحرًا محتجًا على عصر جاهلي إلا أن موقف الرجل ومهمته وتراثه، أشياء لا زالت داخل بنية الفكر الإنساني، وملفات الحياة الغربية.

لقد فتحت محطة البي. بي سي ٢ البريطانية نافذة الأسابيع الماضية، يطل منها منهج "سقراط" الأثير، العاشق للجدل من أجل الحقيقة، والمحب للمنطق من أجل المعرفة. أثار هذا البرنامج، لقطات من تاريخ البشرية، الذي يحب أن يراه البعض على أنه عبارة عن حوار متصل بين عقل وعضلات، بين المنطق وبين الغوغائية. والمسألة ليست درسًا في الفلسفة، وإنما هي درس في الحياة بأقنعتها المختلفة، سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية، فدائمًا هناك حوار بين السقراطيين، أنصار العقل والمنطق، وبين الغوغائيين، أصحاب العضلات، سواء كانت لسانية، أم جسمانية.

سقراط، كان يحسم حوارهِ بالعقل وحده. كان لا يدعي قوة، ولا يتباهى بجاه، ولا يدعي نفوذًا أو سلطانًا، إنه محاور بسيط لا يعرف كثيرًا ولا يثرثر طول الوقت، إنه إنسان عادي، يرى أن مهمته زرع فضيلة واحدة، داخل البشر، تدفعهم نحو استعمال عقولهم وتحكيمها في مسارات حياتهم. وهناك دائمًا في كل عصر، وكل فترة، سقراط، يضع سدودًا أمام الجنون والغرور، وأصحاب العضلات المفتولة. يقف أمام طغيان القوة، يقول كلمة بسيطة تلتزم بتقاليد قيم الحق والخير والعدل.

ويمكن قراءة تاريخ البشرية من خلال هذه الثنائية، العقل في ناحية، والقوة العضلية في ناحية أخرى، وهذه المعادلة جعلت "أفلاطون" في يوم ما يطالب بأن يحكم الفلاسفة العالم؛ لأنهم في رأيه حراس المدينة، التي يحمونها ضد هجمات الغوغائيين، والبلطجية.

لكن حلم أفلاطون لم يتحقق؛ لذلك ظلت المواجهة مستمرة بين السقراطيين وأصحاب العضلات، فيكفي أن نتأمل ما حدث مع "جاليليو" فقد تعاملت معه السلطات الكنسية بعنف شديد، لم تجادل منطقَه كما طلب "سقراط" ولم تبحث

في أوراق اجتهاداته، وإنما مارست معه العنف الإداري
ف عزلته واعتالته وأكدت عضلات سلطتها الطاغية، التي لا
تحتزم تقليد أن فكرة تناقش فكرة، أو أن قضية تنقض قضية.
وانظر كيف تحاور هنري الثامن مع العلامة توماس مور،
الأخير تمسك بالقانون، فالأول تحصن بالسلطة، فلم يتحقق
للحوار أي نوع من التكافؤ. ولأن توماس مور تمسك
بالمنطق، فإنه قدم رقبته ثمناً لقبضه على الحق في زمن
الباطل والفتونة والغرور.

وثنائية هنري ومور، تتكرر في العصر الحديث، لقد
قال محمود طه المفكر السوداني، بعض الكلام، القابل للنقاش
وللحوار، إلا أن النميري أمر بإعدامه. مرة أخرى تفشل
العلاقة بين الفكرة والسلطة، بين العقل والعضلات، وسيناريو
طه- نميري تكرر سواء عبر التاريخ القديم أو الوسيط أو
المعاصر.. إن هناك باستمرار مواجهة بين أصحاب العقول،
وأصحاب العضلات. والحوار بينهما غير متكافئ؛ لذلك كان
هدف سقراط القديم، هو تنمية بيئة تحترم العقل، لأن ذلك
سيكون ضماناً لإخضاع العضلات لقوانين المنطق.

هذه الفكرة السقراطية تنجح أحياناً، لكنها تفشل عندما يسود الجهل، وتهتز أعمدة القيم، وعندما يختل الميزان يهجم الحسيون على العقلانيين، يقتل الجنود المفكرين، يغتال الفتوات أصحاب العقائد والأفكار.

إن المنهج السقراطي بسيط، لا تحرسه قوات ولا مصفحات وإنما يحميه حسُّ الإنسان العادي، منطقَه الحاسم الواضح، لذلك عندما تنمو أشكال الديكتاتورية فإن ذلك لا يعني الدليل على عظمتها وقوتها، وإنما دليل على ضعفها؛ فقد فشلت في الحوار مع المنطق، فلجأت ببساطة إلى أسلحتها المادية، وعضلاتها المدرعة.

كان سقراط هدفه خلق الظروف الإنسانية حتى يتكافئ العقل مع القوة في ميزان واحد، لكن هذا الحلم البسيط يتحطم كل لحظة بسبب غرور القوة، وجهل أصحاب العضلات الذين يتصورون أن العنف يمكن أن يفرض فلسفته وقوانينه وقيمه وتقاليده.

تنويعات على أنماط الحياة

العقل، الذي كان يمثلُه سقراط، هو عقل المفكر الخلاق المبدع، الذي يشيّد أبنية سليمة تنتعش خلالها الأفكار المتطورة، التي تدعم الحياة الثقافية وتثري المناخ السياسي والاجتماعي، هناك عقل آخر، يفكر، لكن بطريقة سلبية، هدفها خنق الزهور، وقبر الأفكار وقتل الإبداع. هذا العقل اصطلح على تسميته بالعقل التأمري الذي يفكر ولكن في الإطار الخطأ.

وإذا كان العقل الخلاق يمثلُه سقراط، ومسيرة المفكرين، عبر مشوار الإنسانية، فإن العقل التأمري نراه من خلال شخصيات فاسدة، وجودها يشكل علامات سلب في مسيرة البشرية.

هذا العقل صورَه شكسبير في مسرحية "عطيل" من خلال شخصية "ياجو" هذا المتآمر الخسيس، الذي كان هدفه إثارة الحقد، والضغينة، وقتل الحب وسفك الدماء. وإذا كان العقل السقراطي شجاعاً ومقداماً وجريئاً، فإن عقل "ياجو"

جبان، وخسيس، يتآمر في الخفاء، ويطعن في الظل، ويقتل في الظلام.

سقراط كان يمارس دعوته في الأسواق المفتوحة، يقول كلمته واضحة جليّة مباشرة، أما "ياجو" فإنه كان يمارس دوره همساً، كان يتحدث في الخفاء، ويبث أفكاره الخبيثة تحت ستار الظلام، وفي الشوارع الخلفية المهجورة.

ولأن صوت "ياجو"، لا يستطيع أن يأتي علانية، فإنه يستغل وسيلة ضعيفة لا تفكر بعقلها، وإنما تتحكم فيها العاطفة غير المضبوطة بقواعد المنطق أو حدود العقل.

رسم شكسبير في تراجيديا "عطيل" طبيعة العقل الفاعل المتآمر، والعقل المنفعل الساذج. إنها معادلة "ياجو" و"عطيل". الأول مكر، والآخر ساذج مستعد لتصديق أي شيء، وفعل أي شيء.

إن "ياجو" كان يحب "ديدمونة" التي لم تشعر به، لكنها أحببت "عطيل" الفارس الشهم، الذي أعقد عليها الكثير من عواطفه ومشاعره. لكن "ياجو" أفسد هذه العلاقة، بدسسه الخسيس، فقد أوغر صدر "عطيل" ضد زوجته، زرع في قلبه الشكوك، واستثمر غيرته، ولعب على تركيبته المجردة من

العقل. اندفع "عطيل" ينفذ خطة "ياجو" بالكامل، دون أن يفكر لحظة فيما يقدم عليه. فقط سقط في شبكة وخيوط العقل التأمري بالكامل، تحول إلى أداة تنفذ خطته.

إن "عطيل" يقتل زوجته؛ لأنه صدق "ياجو" الغريم الحاقد، الذي استعمل ملكات عقله التأمريّة في استخدام انفعالات "عطيل"، الذي انجرف بعنف ينفذ خطة "ياجو" الجهنمية دون أن يقف أو يسأل نفسه أو يحاول معرفة ماذا يفعل ولماذا؟

معادلة "عطيل - ياجو" تتكرر في مشاهد عديدة، وهي تشكل محوراً في العلاقات البشرية والسياسية والفكرية، فهناك دائماً "عطيل" لا عقل له، و"ياجو" يملك عقلاً متآمراً، يدفع أدواته لارتكاب كافة الحماقات.

إن الرجل الذي قتل غاندي، بالتأكيد كان من فصيلة "عطيل" شخص متزمت استغله عقل متآمر، ودفعه لإطلاق الرصاص على شخص أعزل مسالم.

ونفس الشيء حدث مع الشيخ حسن البناء، فالذي قتله هو رجل من عينة "عطيل" استغلته حكومة حاكمة ضعيفة، أرادت تصفية الشيخ جسدياً، فسلطت عليه أداة جاهلة منفعة

لم تفكر لحظة في نوعية الفعل الإجرامي الذي ترتكبه. والذي قتل الشيخ "حسين الذهبي" هو من نفس الفصيلة، والذي أطلق الرصاص على مصطفى النحاس هو ذاته الانفعالي العاطلي، الذي تحركه حكومات وتيارات تريد القتل بسلاح الغير، وتريد الاغتيال بطلاقات مجهول، يطلقها معتوه.

وفي حياتنا اليومية، يواجهنا "عطيل" الساذج المسكين، الذي يحركه عقل أكبر منه، يفهم جيداً لعبته، لكنه يستغل انفعالات شخص مغرور لا عقل له، ويدس فيه سموماً تحرك فعله الإجرامي المجنون.

معادلة "عطيل" "ياجو" موجودة في مستويات عديدة، في السياسات العليا، وفي أمور الحياة البسيطة، نلمحها يومياً، ونراها على صفحات الجرائد ونقرأ عنها في كتب التاريخ، ونشاهدها في حكايات الدراما، والروايات والمسرحيات.

كان سقراط يمثل العقل الخلاق، إلا أن "ياجو" يمثل العقل العدمي. واللونان موجودان نراهما ونسمع عنهما ونشاهدهما، نشعر بالشفقة على "عطيل" المسكين وفي نفس الوقت نشعر بالغضب على "ياجو" الماكر، ونشعر بالاحترام تجاه العقل السقراطي.

لذلك إذا انطلق فعل همجي شاذ دائماً يبحث المرء
عن "ياجو" المختبئ خلف الأشجار، يشاهد في الظلام تنفيذ
وقائع مؤامراته الدنيئة والخسيسة.
إن الحياة يمكن النظر إليها من خلال هذه الأنماط
"سقراط" و"عطيل" و"ياجو": العقل، والسذاجة، والدهاء.

الديمقراطية دواء أفغانستان

سيطرة حركة "طالبان" على كابول لن تكون نهاية المطاف بشأن الأوضاع في أفغانستان، إننا نشهد جولة أخرى من تداول السيطرة على مقاليد عاصمة تحولت بالفعل إلى مدينة أشباح بسبب هذا الصراع الدامي بين تيارات سياسية وأخرى دينية، وثالثة قوى خارجية، تعمل على تقويض هذا الكيان وتدميره من الداخل.

والمشهد الدامي في "كابول" زاد عنفاً مع استخدام "طالبان" لأسلوب القمع بطريقة تصدم المشاعر الإنسانية، وكل أعراف القانون.

ويستغل الإعلام الغربي ممارسات "طالبان" لربطها بالإسلام، على نحو يصور الدين الحنيف وكأنه يحرص على العنف والدموية وشنق الناس في الميادين العامة.

واهتمت الصحف البريطانية والعالمية بالتركيز على لقطات دامية لجثة الرئيس الأفغاني الأسبق نجيب الله، الذي تم إعدامه بطريقة مستقرة للحضارة والأسلوب الإنساني.

وحركة "طالبان" هي تراكم طويل لأخطاء سياسية عالمية وآسيوية.

وتأمل خطاب هذه الحركة يعطي مؤشرات عن حصاد المواجهة بين العمالقة السوفيتي والأمريكي على أرض أفغانستان التي استخدمت الدين في معركة سياسية أولاً وأخيراً.

وقد انطلقت شظايا الأزمة الأفغانية إلى العقل العربي، والجسد السياسي في بعض الدول العربية، حيث تلقت بعض الاتجاهات الدروس العقائدية والجهادية في داخل المدرسة الأفغانية.

وعماد هذه المدرسة هو رد الفعل للوجود السوفيتي كما تتداخل فيه تأثيرات من أجهزة أمن، واستخبارات، وتجارة واسعة، وعمليات غسيل أموال معروفة.

وقد تستخدم حركة معارضة العنف، عندما تكون بعيدة عن السلطة، لكن عندما تحقق هدفها فإن التسوية السياسية التي تجمع الأطراف الأخرى هي قاعدة الاستقرار. وانفراد طالبان بالحكم، سيجعلها دائماً في مواجهة مع خصوم أقوياء، يملكون بدورهم السلاح والعتاد والرجال.

وإذا لم تتم تسوية فإن دائرة العنف ستستمر، والحرب الأهلية في أفغانستان ستقضي على المتبقي من هذه البقعة التي كانت منطقة صراع ومواجهة بين العملاء وتحولت إلى ساحة قتال بين رفاق الأمس؛ بسبب التطلع إلى السلطة والرغبة للانفراد بها.

وقد تم زرع بذور العنف في الأرض الأفغانية ويحتاج إبادتها إلى دواء "ديمقراطي" وليس إرهاب الناس وإطلاق اسم الدين على هذه الممارسات.

إن لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة، ونذكر أنه عندما دخل مكة منتصرًا على المشركين، لم ينتقم من أحد، ولم يحاول "صلى الله عليه وسلم" تصفية حسابات، وإنما قال لأعداء الأمس "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وهذه السنة السياسية والأخلاقية هي التي جمعت القلوب حول نبي الرحمة "صلى الله عليه وسلم".

ولو كان استخدام الغلظة السياسية لانفض الناس من حوله، وما قامت هذه الحضارة التي امتدت إلى بقاع الأرض بسبب السماحة والعفو.

هذا هو الإسلام الحق، أما هذا الذي تنتشره صور
الصحف البريطانية فهو أداة في يد أعداء الدين الذي يقول
رسوله الكريم إنه نبي الرحمة.

إن المرض الأفغاني سببه التلوث بداء عنف مريع،
لا علاقة به بسماحة الإسلام، وإنما هو نتيجة تدمير خلايا
المناعة بسبب أن أفغانستان كانت مسرحاً لمواجهة
سوفيتية - أمريكية.

ويدفع الأفغانيون ثمن "جرثومة" العنف، التي تمكن
من التسلل إلى بعض الخلايا العربية.

وعلاج العنف بالديمقراطية، والشفاء من نزعة
التدمير هو الانفتاح وليس الانغلاق وغلق النوافذ وحجب
شمس الحياة.

تحديات التنمية والتحديث

منعت حرب الخليج العالم العربي من الحوار مع متغيرات جديدة تسود العالم في ظل تقلص المعسكر الاشتراكي، وانتهاء دوره ككتلة سياسية تواجه المعسكر الآخر، وتتحدى أطروحاته السياسية، إن نهاية الحرب البرادة، وانحسار المواجهة بين العملاقين فرضت عوامل مختلفة، لم تكن سائدة منذ بداية هذا القرن، وبعد اندلاع الثورة السوفيتية، وتقسيم العالم إلى كتلتين تعتمدان على نهج أيديولوجي وفكري مختلف.

إن ظروفًا مختلفة تمامًا تجتاح العالم، وكان العرب يتطلعون إلى المشاركة في هذه التطورات، أو على الأقل فهمها لتحقيق إمكانية الحوار معها.

ومن يتطلع إلى خريطة المنطقة قبل اندلاع أزمة الخليج في أغسطس (آب) الماضي يلمس بعض التحركات تجاه الارتباط بالوعي العالمي، والاقتراب أكثر مما يحدث على المسرح الدولي، وكانت مسام المنطقة وخلايا وعيها

منفتحة على ما يجري، وتحاول الاستفادة منه والمشاركة فيه.

تابع العالم انهيار ديكتاتوريات شرق أوروبا، وكان هذا في حد ذاته يحمل الرياح المتفائلة بخروج المنطقة من منطق الحزب الواحد، إلى ساحة التعددية بأفاقها الرحبة وإمكانياتها المتعددة.

وقد بدأت رياح هذا التغيير تسود بعض البيئات العربية، وكان هناك ما يشبه الإجماع من التيارات المتعلمة والمستنيرة على توسيع المشاركة، وتقليص سلطة الحزب الحاكم الواحد، وفتح الباب أمام الرأي الآخر، وتعميق دور الصحافة الحرة المستقلة.

بدأت هذه الرياح تعم بيئات مثل الجزائر وتونس، واليمن ومصر وسوريا، والعراق ذاته كان يتعرض لضغوط كثيفة من القوى السياسية لإنهاء سيطرة وهيمنة الحزب الحاكم.

ومن يتابع ما كان يحدث في العراق قبل غزو الكويت من قبل النظام الحاكم في بغداد، يرصد ضغط القوى السياسية العراقية لإجبار الحكم على إقرار صيغة مختلفة

تنتهي انفرادة بالسلطة وسحقه لحقوق الإنسان. وقد اضطر النظام للحديث عن انتخابات حرة، وتعديلات في القانون، وصياغة دستور جديد.

وكانت القوى السياسية العراقية تطالب بحقوقها في المشاركة بالسلطة، بعد انحسار الحرب مع إيران، وسقوط جميع الادعاءات التي كان يطرحها النظام أثناء الحرب التي استمرت ثماني سنوات.

ويؤكد تحليل سياسي منطقي، أن النظام العراقي تحرك نحو الكويت لإجهاض هذه المطالب السياسية واغتيالها، وإسكات كل الأصوات التي كانت تطالب بالحرية وإنهاء الحكم الشمولي والتطلع إلى التعددية.

وهذا التحليل يعبر عن رؤية صحيحة؛ لأن النظام العراقي قبل تحريك قواته نحو الكويت في أغسطس (آب) الماضي، كان يتعرض لضغوط قوية من العراقيين لوضع نهاية لانفرادة بالسلطة، وقام النظام بمناورة مدمرة لجذب الانتباه السياسي من الداخل إلى الخارج. هذه الخطوة لم تجهض المطالب الديمقراطي داخل العراق فقط، وإنما جذبت

المنطقة كلها إلى مرحلة متخلفة عملت على تمزيق العالم العربي، ووضع المتفجرات داخله ونسفه من الداخل.

إن العملية العراقية في أغسطس (آب) الماضي، سعت إلى جر المنطقة بعيدًا عن رياح العصر، وكأن هناك مؤامرة محددة لمنع العرب من المشاركة في الحوار السياسي الذي يسود العالم.

لقد أشار الكاتب إميل حبيبي إلى هذا المعنى أثناء اللقاء معه في لندن، فقد قال في قاعة الكوفة، إن مؤامرة ما انطلقت من العراق لإجهاض ربط العرب بالعصر والمشاركة في الحوار مع المتغيرات التي حدثت في العالم.

هذا القول من إميل حبيبي حدد بالضبط نوعية الرياح السوداء التي انطلقت لإبعاد المنطقة عن تغيرات كانت محتملة ومؤكدة، نتيجة الهزة العالمية التي تمت بعد سقوط برلين، وانحسار الحرب الباردة، وتقلص حلف وارسو، ونهاية الاستقطاب على الساحة الدولية.

إن هذه المتغيرات، كانت تملك قوة زخم يمكن الحوار معها بالتفاعل الحي والإيجابي مع ما تطرحه، وكانت المنطقة بالفعل مهيئة لهذا الحوار قبل الغزو العراقي

للكويت؛ لأنها شهدت تطورات مهمة نحو استكمال القوى التي تطرح التغيير والتي تطالب بالتحديث، وكانت المنطقة معاركها من الخارج وليس الداخل، وسيطرت حالة من التفاوض بإمكانية تحريك البناء السياسي وتطويره ووضعه نحو العصر.

أجهض العدوان العراقي على الكويت هذه الطموحات كلها، ودفع بالأمة العربية نحو أزمة خطيرة، وكان على العرب اتخاذ القرار الصحيح لمواجهة هذا الغزو، الذي حاول فرض قوته الإقليمية من دون أن يتمتع بمؤهلات هذا الدور.

لقد واجهت الأمة العربية العدوان، وشاركت في التصدي له مع المجتمع الدولي، إلا أن الانقسام حدث وأثار عداوات قديمة، وحرك مشاعر فاسدة.

والآن بعد انحسار العدوان، يصبح من الأهمية تخطي هذا الإرث الذي حاول الغزو ترسيخه، بمعنى أن علينا الاعتماد على قوة الدفع الذاتية، لإخراج الوعي العربي من المأزق الذي يحاصره.

إن المنطقة مطالبة بالعودة إلى وعيها وعبور
المؤامرة التي حاول النظام العراقي زرعها لنسف العرب من
الداخل، وتدميرهم بإسقاطهم في حرب أهلية طاحنة.

إن تجاوز تضاريس هذه المؤامرة بعد انحسار
عدوانها العسكري، يتم بالعودة إلى روح العصر من جديد،
والتركيز على الثوابت الأساسية المتعلقة بالتحديث والتطوير
وتوسيع إطار المشاركة.

إن الأمة العربية أمامها التحديات الأساسية، وهي
تطوير مؤسساتها، وتنمية التعليم وقهر البطالة، والدخول إلى
عصر العلم والتكنولوجيا.

إن تلك هي المهام الضرورية التي علينا العودة إليها
لعبور مخلفات المرحلة العدوانية التي تمت في أغسطس
(آب) الماضي، وتحقيق هذا الأهداف هو الرد المباشر على
خطة العدوان، الذي كان يهدف إلى إبعادنا عن العصر
وتدميرنا من الداخل، ودفعنا نحو العصور الوسطى: نحارب
بعضنا البعض ونتقاتل في حرب أهلية دامية.

إن انحسار العدوان عبر التنسيق العربي الدولي
خطوة إيجابية، والآن نملك القدرة على التطلع إلى مرحلة

أكثر استقرارًا وإيجابية لو دفعنا إلى سطح وعينا القضايا
الأساسية المتعلقة بالتنمية والحرية والتقدم نحو العصر.

قانون "دارون"

تابعت خلال الثمانينات تطورات الأوضاع السياسية في بريطانيا. شهدت صعود تانتشر وهزها النظام القديم، وانعكاس هذه الخطوة على مجمل الحياة في بريطانيا.

كانت بريطانيا نهاية السبعينيات، تتعثر في نظام أصابته الشخيوخة ولم يعد قادرًا على الحوار مع متغيرات حدثت على الساحة الدولية والبريطانية.

كان النظام البريطاني القائم في نهاية السبعينيات، الحصاد لتجربة ما بعد الحرب العالمية الثانية، استقرت معادلة الاقتصاد المختلط ودور الدولة في إعادة التطور الاجتماعي، استطاع الفكر البريطاني بعد الحرب وفي ظل صعود التجربة الاشتراكية أن يطور من إمكانياته، وأن يصيغ معادلة تقسح الطريق أمام النقابات والطبقة العاملة للمشاركة في صنع القرار السياسي.

استقر الفكر السياسي البريطاني في فترة ما بعد الحرب العالمية، واشتعال المواجهة الباردة، على صيغة

متوازنة، كان هدفها الأول سحب البساط من الاتجاهات اليسارية وجرها إلى دائرة الحكم والنفوذ السياسي، حتى لا تظل في المعارضة؛ مما يهدد بناء النظام كله.

تغلب على الفكر البريطاني نزعة علمية، تستند على قراءة الواقع؛ لذلك لم تشهد بريطانيا صعود أحزاب شيوعية قوية فيها، بعكس ما حدث في فرنسا وإيطاليا.

اعتمدت التجربة البريطانية على تهجين نظامها بعناصر اشتراكية وبرز هذا التوجه في مرافق الاقتصاد، وعلى جبهات المؤسسات الاجتماعية. وارتضت الطبقة الحاكمة، التنازل عن بعض سيادتها لقوى أخرى، صعدت بعد انتصار الحلفاء على الفكر النازي.

بريطانيا في فترة ما بعد الحرب، تعتمد على رؤية اشتراكية معتدلة كان يروج لها برنارد شو الكاتب المسرحي المعروف، ومجموعات الاشتراكيين الفابيين.

ويتمتع الواقع الفكري البريطاني بتيارات إصلاحية معتدلة، التزمت دائماً بتمرير أفكارها عبر البرلمان.

ويمكن القول إن البرلمان البريطاني بصيغته المرنة، وبقوته داخل البناء السياسي استوعب كافة اتجاهات التمرد،

وجعلها تصب في صالح النظام، ولا تعمل على تدميره من الداخل.

ويرتكز البرلمان على الرأي العام، القادر على دعم هذا الاتجاه أو نبذ أفكار أخرى لا يوافق عليها.

الصيغة البريطانية التي استمرت بعد الحرب العالمية حتى حقبة السبعينيات أصابها الهرم السياسي، لذلك من يتابع الصدام مع حكومة "كالهان" العمالية والاضطرابات والاحتجاجات، يلاحظ أن النظام المختلط، اعتمد على صيغة النقابات والأحزاب وارتكز على الشركات المؤممة ودور القطاع العام، ووظيفة الدولة كعنصر أساسي في الإنتاج والخدمات. كانت هذه الصيغة تتعرض للاحتضار، وكان لابد من التغيير. وهذا ما حدث تمامًا أثناء حقبة تاتشر.

الرأي العام البريطاني، أعطى صوته لمارجريت تاتشر، التي صعدت ببرنامج ثوري حاسم، يعلن نهاية أحقاب كاملة ويدشن وجهة نظر يمكن وصفها بالرأسمالية الجديدة، التي تستند على التقدم التقني وتطرد سلطة النقابات من ساحة صنع القرار السياسي، وتفتح الباب لانطلاق الاقتصاد الحر؛ لمواجهة حيوية الاقتصاد الياباني، والمنافسة الألمانية

التي كانت تقدم صيغة مختلفة للنمو الرأسمالي في قطاعات الصناعة والتنمية.

الرأي العام، دعم تانتشر وسحب التأييد من حزب العمال. وأعطى البريطانيون الضوء الأخضر أمام زعيمة حديدية لديها الطاقة لتدشين مرحلة مختلفة تمامًا.

عارضت القوى القديمة التغيير، واعتمدت على أسلوب الاضطراب والصدام مع الرياح الجديدة. إلا أن تانتشر أظهرت قدرة حاسمة على المواجهة، وكان يقف خلفها برلمان قوي تملك الأغلبية المطلقة في داخله، وبجانب مجلس العموم، كان الرأي العام مع تانتشر وتحركها لصياغة المجتمع الجديد.

استطاعت رئيسة الوزراء السابقة تكوين القوى الاجتماعية التي تدعمها، ومنحت تسهيلات لهذه القوى لدخول ساحة امتلاك القيادات والاستثمارات الخاصة، والمشاركة في أسواق الأسهم.

تحركت تانتشر ببيع شركات القطاع العام، وعملت على طرح أسهم هذه الشركات على الرأي العام، الذي دخل كعنصر فعال في تكوين هذه الدائرة.

كان تحرك تاتشر يجد الدعم من الرأي العام، بينما مرّ حزب العمال بانتكاسات خطيرة؛ لأنه لم يفهم المتغيرات التي حدثت بسبب صعود عامل مختلف، عبّرت عنه رئيسة الوزراء السابقة.

رد العمال على خطوات تاتشر بالتطرف نحو اليسار وانتهاج سياسات راديكالية متطرفة. إلا أن الموقف ترتب عليه ابتعاد الرأي العام تمامًا عن حزب العمال؛ مما أعطى أرضية قوية لصعود التحالف الليبرالي والديمقراطي ليحتل مكانة الحزب الثاني في بريطانيا.

كانت في كل التقارير تشير أن حزب العمال ينطرد من ساحة التأثير؛ لأن الرأي العام لا يوافق على توجهه اليساري المتطرف.

أدرك نيل كينوك، زعيم الحزب، بعد صعوده في يونيو ١٩٨٣ هذا الموقف، فبدأ يميل إلى الوسط، رغم أنه صعد إلى قيادة الحزب بأصوات رجال النقابات والدوائر اليسارية.

تحرك كينوك، من أجل سحب القلق من الرأي العام تجاه سياسات العمل، إلا أنه فشل في ذلك، ولم تكن انتخابات

١٩٨٧، إلا علامة بأن البرنامج التاتشري هو الذي يمثل
طموحات البريطانيين.

هزيمة ١٩٨٧، كانت قاسية لزعيم سياسي شاب
وطموح. وهذا الموقف دفع كينوك لقراءة متغيرات مهمة،
استطاع رصدها على الواقع البريطاني.

لقد دفعت تاتشر خلال سنوات حكمها بقوة جديدة
كما أن الاقتصاد البريطاني خلال الثمانينيات، استجاب
لمرحلة اضمحلال الصناعة القديمة، وظهور عصر التقنية
الحديثة. شجعت تاتشر الانفتاح على أساليب التصنيع
والاستثمارات المختلفة في مجال الكمبيوتر، وبدأت بريطانيا
تحقق معدلات تنمية مرتفعة تسبق فترة السبعينيات.

كان لا يمكن عودة عقارب الساعة السياسية إلى
الوراء، وكان على حزب العمال تغيير جلده. لذلك بدأ كينوك
منذ ١٩٨٧ يتجه إلى دائرة الوسط، وقام بإقضاء دوائر
التطرف من داخل حزبه وأعلن عن برنامج متطور، يحافظ
على المكاسب التاتشرية، لكنه يعمل على علاج الآثار السلبية
لانطلاق النظام التاتشري خصوصًا بعد أن بدأت مظاهر

الإعياء تظهر عليه، والتي تمثلت في ارتفاع معدلات سعر الفائدة، وقفزت نسبة التضخم، وتصعيد العداء مع أوروبا. لأول مرة يدرك حزب العمال اتجاهات الريح ويحاول صياغة أفكاره لتتوافق معه.

برنامج حزب العمال بعد ١٢ سنة في ظل صفوف المعارضة، يحصل على تأييد الرأي العام؛ لذلك أعطته استطلاعات الرأي الأخير عشر نقاط أعلى من الحزب الحاكم، وهذه النسبة توضح نوعية الكفاح السياسي الذي خاضه العمال للانتقال من دائرة الإهمال والرفض إلى بؤرة الاهتمام الشعبي، الذي يمنحه التفويض لتشكيل الحكومة المقبلة، إذا تمت الانتخابات العامة الآن.

حزب العمال، حقق معادلة التغيير المتدرج عبر صدامه مع تطورات سياسية، لم يفهما في البداية، وعندما استوعبها قام بالاستجابة لها فحصل على ثقة الناخبين الذين يمنحونه درجات كبيرة داخل الاستطلاعات تبشّر بحدوث تغيير في قمة السلطة في بريطانيا إذا لم يطور الحزب الحاكم نفسه للحوار مع المتغيرات التي حركت المعارضة.

إن حزب العمال منذ ١٢ سنة، كان مرفوضاً؛ لأنه كان ينتمي إلى النظام القديم، بينما المحافظون كانوا يرفعون راية التغيير ويطرحون أنفسهم باعتبارهم حزب المستقبل. الآن المعادلة تغيرت فالحزب الحاكم تحاصره أمراض الشيخوخة السياسية وغير قادر على استيعاب المتغيرات. صحيح أن ميجور يطرح أفكاراً بديلة، إلا أن هيكل الحزب ذاته ينتمي إلى حقبة تاتشر التي لم تعد تملك الحوار مع الحاضر والمستقبل.

هذه المتغيرات كلها، المسئول الأول عنها حيوية النظام التعددي الذي تنتهجه بريطانيا، كذلك قوة الرأي العام وتأثيره على الأوضاع من خلال صندوق الانتخابات.

المسألة الثالثة، وهي المهم، أن البرلمان هو الركيزة الأساسية التي يحدث التغيير عبر قوانينها. ففي بريطانيا لا يوجد ثوار خارج النظام وإنما توجد ماكينة سياسية تسمح دائماً بفرز الصالح وطرد القديم خارج نطاق الحلبة.

إن البرلمان البريطاني يطبق قانون "دارون": إن البقاء للأصلح.

والرأي العام يشارك في تنفيذ هذا القانون فيلعب
لعبة الانتخاب السياسي بشكل مستمر، يمنح الأغلبية للحزب
الذي يتوافق مع أهدافه ومطالبه ويسحب الثقة من الآخر،
غير القادر على تنفيذها.

وليس لدى الرأي العام قواعد عاطفية، فهو مرة يرفع
تاتشر إلى القمة ويدعمها خلال حقبة كاملة وعندما تنتسل
إليها أمراض الأنيميا السياسية يقذف بها على الأرض خارج
الحكم، ويتطلع لمنح خصومها الثقة والتأييد.

إن عملية الصعود والهبوط على الساحة السياسية
البريطانية جديرة بالتأمل؛ لأنها ترسم خريطة واضحة لقواعد
التقاليد الديمقراطية.

مثقّفون وعسكر

تميزت العلاقة دائماً بين المثقفين والعسكر بالصدام.. فالمثقف حرٌّ يمارس حريته على الورق من خلال التجمعات السياسية والفكرية. والعسكري، منضبط، يعتبر هذه الحرية نوعاً من الفوضى، لابد من تهذيبها بالقيود، وضبط حركتها بالموانع والسدود.

مثقّف عانى من هذه الوضعية، لمَّ أوراق صدامه مع العسكر، ونشرها في كتاب، جمع صلاح عيسى مقالاته الصدامية في كتاب سماه "مثقّفون وعسكر" والذي يقرأ هذه الفصول يلمس حجم معاناة المثقف في بلداننا النامية، أعني المثقف بهموم الناس، الرفض للقمع في مختلف أشكاله، الداعي، باستمرار لحق الأفراد في التعبير والحرية غير المحدودة، وغير المنقوصة.

إن كل فصل، من كتاب عيسى، هو عبارة عن حكاية طويلة عريضة، بدأت بمقال في مجلة أو جريدة، وانتهت إمّا

بالحجز شهوياً في معتقل، أو بالفصل من العمل، الذي يكون أيضاً خطوة ومقدمة لاعتقال طويل.

ولقد عاش أغلبنا وقائع هذا الكتاب من أول المقالة التي نشرت في مجلة "الحرية" اللبنانية، حتى مقالات معركة مجلة "الكاتب" حتى فصول معارك التطبيع، واتفاقيات الكامب، التي انتهت بمذبحة سبتمبر الساداتية، وكونت وقائع خريف الغضب الشهير، الذي أفضى لحادث المنصة بملاساته الدامية.

وصلاح عيسى مثقف، لا يثرثر على المقاهي، ولا يتحدث في النظريات الوهمية، لو كان من هذا الطراز، لما عانى من أي صدام سواء، مع عسكر أو أفندية، إنه مثقف حقيقي، يرى أن الثقافة ليست حمل أثقال من المعرفة والقراءات النظرية والثرثرات الفارغة، وإنما مفهوم الثقافة الحقيقي، هو أن تكون وقوداً نحو التقدم، أن تدفع البسطاء نحو مزيد من العلم والعدل، وأن دور المثقف في عالمنا النامي هو أن يكون "مصباح الغلالة" ينير الطريق، ويدافع عن حق البسطاء، ويناضل من أجل تأكيد وجودهم وفرضه من خلال الحياة السياسية.

وأتصور أن صلاح عيسى، هو الجيل التالي لموجة محمد مندور وغيره من المثقفين المستبشرين في مرحلتنا المعاصرة، ومعاناته الكبيرة حدثت؛ لأنه جاء في عصور لم ترحب كثيرًا بالحلول الديمقراطية وبالمحاورات الفكرية، فترات حكمها عسكر، لا يؤمنون بالرأي الآخر، ويرون أن التفكير نوع من المرض والعصاب لا بد من معالجته في مصحات علاجية، اسمها "معتقلات وسجون".

ولقد تلقى صلاح عيسى جلسات علاجية في منتهى القسوة سجلها في كتابه هذا وفي بعض يومياته التي ينشرها في الصحف. كان الهدف منها أن يتحول من مثقف معارض إلى مثقف يثرثر ويتحدث في علاقة الشكل بالمضمون، وأثر المادة على الهوية. ورغم عنف علاج العسكر للمثقفين فإن صلاح عيسى لم يحد من اختياراته، وكلما دخل معتقلاً خرج منه أشد صلابة وإيماناً بأهمية تدعيم الحقوق الديمقراطية، وترسيخها وتثبيت أركانها في المنطقة لأنه لا يوجد حل سوى هذا الحل، الذي سينقذنا من هلاك محقق تطغى فيه الأنظمة الديكتاتورية بشكل جبار، وينتهي فيه الإنسان

البسيط، الذي يحلم بالعدل الاجتماعي وبظروف أفضل لحياته.

مثقفون وعسكري، شهادة على عصر كامل، يعبر عن معاناة جيل اكتوى بنار أنظمة لا ترحم، ولا تؤمن بالمعارضة ولا حق الأفراد في التغيير. لكن أهمية الكتاب تبين أيضاً إصراراً حديدياً على رفض هذه السياسة، وعلى مقاومة هذا التيار. إن مثقفاً تصدى بمفرده عبر عقود طويلة لفكرة القهر. لنظرية الهيمنة السياسية الواحد بفكرها الشمولي، الراض لوجود الطرف الآخر المعارض.

إن هذا الكتاب تاريخ لوضعية العلاقة بين المثقفين والعسكر، تضم فصوله وقائع دفاع عن الديمقراطية وفكرة التعددية تبين لنا همجية القمع وتخلف أنظمة سياسية تريد حكمنا بأساليب بدائية بالعصا والمخبر والمعتقل. والكتاب بين أن هذه الوسائل غير صالحة للحكم في هذا الزمان؛ لأنها غير قادرة على تحقيق الاستقرار ولا تدعيم سلطتها والدليل هو الرفض العام لها المتمثل في الانتفاضات الشعبية، وحركات تمرد المثقفين، ورفض الهيئات النقابية لهذه السياسات المتخلفة. وحادث المنصة نفسه يكشف عن إفلاس

هذه الوسائل المتخلفة في حماية نظام أو حاكم. فقد استعمل السادات أقصى مراحل العنف، وكانت النتيجة إنه دفع هو نفسه ضريبة هذا الاختيار.

إن فصول كتاب صلاح عيسى تكشف المعارك الطويلة، التي خاضها الكاتب مع ممارسات لا تؤمن بحق المثقفين في التعبير عن أنفسهم، تكشف أنظمة غبية تهزها كلمة، وتستنزفها مقالة، وتقلق منامها قصيدة شعر أو فصل في مسرحية كوميدية.

مثقفون وعسكر يكشف طبيعة أنظمة خائفة لذلك وسيلتها الوحيدة للتقاهم هي العصا والكرج وقبضة العسكري القوية إنها أنظمة متخلفة لذلك تستعمل وسائل بدائية -مثلها تمامًا- في حوارها مع المعارضين والمخالفين لها.

وفصول "مثقفون وعسكر" تبين أن الحكومات الضعيفة تريد التدخل في كل شيء، وفرض نظريتها المختلفة حتى على مجالات الأدب والفن؛ فوزير حكومي يريد فرض تصورات على الأدباء، ومن يخالفه الرأي يجد نفسه مقبوضاً عليه بتهمة معارضة الحكومة والعمالة لدولة أجنبية.

إن الحكومات الديكتاتورية غير قادرة على إدارة حوار لا مع المثقفين ولا مع الواقع اليومي؛ لأنها تتصور أن الجميع يخاف بسبب امتلاكها لأدوات الاعتقال والتعذيب لذلك الكل مطالب بالاستماع لها والإنصات لأوامرها.

كتاب "مثقفون وعسكر" يبين عبر وقائع حدثت أن المثقفين لا يخافون لا من بطش الحكومات ولا من عسف أدواتها القمعية؛ لأن دورهم الحقيقي هو "المعارضة" لتأكيد حق الإنسان في تأكيد ذاته وممارسة دوره في عمليات النقد والمعارضة.

إن خروج هذا العمل التجميعي يثري حياتنا الراهنة التي تحتشد الآن، هو المطلب الديمقراطي باعتباره الحل للخروج من أزمتنا الحالية. ونشر هذه الشهادات يبين قصور أنظمة القمع والتخلف، وتكشف وقائعها الدامية أهمية الاختيار الآخر القائم على التعددية والشورى السياسية بدلاً من فرض الرأي الواحد عن طريق العصا والمعتقل.

الرؤية العلمية والحوار

مع وقائع التاريخ المعاصر

في يوم ١٥ مايو (أيار) الجاري، مرت على الحركة التصحيحية التي قام بها الرئيس المصري السابق أنور السادات ٢٠ عامًا بالتمام والكمال. وإذا كانت ثورة يوليو (تموز) التي تفجّرت في عام ١٩٥٢ تشكل المنعطف الأكثر أهمية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر. فإن أحداث ١٥ مايو (أيار) عام ١٩٧١ تشكل بدورها اختيارات سياسية، لا زالت تثير الجدل بين فرقاء الفكر السياسي.

إن حركة ١٥ مايو (أيار)، أعادت تشكيل المسار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، واختلفت تمامًا عن التوجهات التي سيطرت على هذه القنوات حتى رحيل عبد الناصر في سبتمبر (أيلول) عام ١٩٧٠.

ومن الأهمية التأكيد، أن السادات عندما قاد هذه الحركة، التي انتهت بمجموعة ما يسمى بمراكز القوى، كان يصرّ على أن حركته هي تصحيح لمسار ثورة يوليو ١٩٥٢

ولا تشكل الانقلاب عليها. وكان حريصًا على كبح جماح العناصر الراديكالية داخل هذا التيار، والتي كان يعبر عنها محمود أبو وافية.

المجموعة الراديكالية، كانت تصر على أن حركة مايو (أيار) ثورة كاملة، وأنها الجمهورية الثانية، بعد الأولى التي أسسها جمال عبد الناصر.

لم يكن موقف السادات المعتدل، يعني عدم موافقته على هذا الطرح، وإنما كان تحفظه يرجع إلى حرصه على علاقات سياسية داخلية وخارجية. ولم يكن في مقدوره إعلان جمهوريته الثانية صبيحة ١٥ مايو (أيار). في الوقت، الذي كانت عناصر من الجمهورية الأولى تتعاون معه على أساس تصحيح مسار الثورة، وليس الانقضاء عليها.

تعامل السادات مع محمد حسنين هيكل، الذي صاغ حسب رواياته إطار حركة التصحيح. قدّم هيكل ورقة مهمة للسادات هي الديمقراطية. وتحدث الرئيس السابق على أن حركته هدفها تعميق المسار الديمقراطي، الذي أشارت إليه مبادئ ثورة يوليو (تموز) الستة.

كانت أزمة نظام ما قبل مايو (أيار) إخفاقه في حل
المشكل الديمقراطي؛ لأن صيغة الحزب الواحد، ضغطت
على قوى سياسية مختلفة وطردتها خارج إطار التمثيل
السياسي.

وعد عبد الناصر بعد انفجار حركة الطلبة في يناير
(كانون الثاني) بإصلاحات ديمقراطية. وجاء بيان ٣٠ مارس
(آذار) يعد بالإصلاح الديمقراطي، لكن كان من الصعب على
النظام هز المعادلة التي رسّخها فهمه للديمقراطية التي تركز
على مفهوم الحزب الواحد، وهيمنة الدولة.

تعملت الأجهزة في ظل سيطرة الحزب الواحد واليد
القابضة للدولة، وكان لا بد من التغيير، بعد النكسة المريعة،
التي تعرّض لها النظام في يونيو (حزيران) ١٩٦٧.

حدثت ضغوط مختلفة لإقرار صيغة تعددية، تفتح
بعض الثغرات في حائط النظام الشمولي. لكن كان من
المستحيل على اختيار سياسي قام على الحزب الواحد، أن
يفتح أبوابه للمعارضة وتيارات الرأي الآخر.

هذا المأزق، كانت تعمقه أحداث ما بعد يونيو
(حزيران) ١٩٦٧. فقد كشفت المحاكمات المختلفة لقيادات

الجيش المسؤولة عن النكسة، عن تفسخ بناء الدولة، وسيطرة الشللية، التي تفتت داخل المؤسسة العسكرية.

كانت هذه المظاهر الإفراز الطبيعي لغياب الديمقراطية، وسقوط النظام بالكامل في قبضة التخلف السياسي، الذي دفعه لحماية نفسه بسلسلة من الأجهزة الأمنية والاستخبارات.

كشفت محاكمات القيادات العسكرية عن تمزق أوصال الدولة. وكان ذلك يعني، أن النظام الذي انهزم في ١٩٦٧، عليه أن يغير جلده تمامًا.

حاول النظام جاهدًا الانتقال من ما يسمى بالشرعية الثورية إلى إطار الشرعية الدستورية، قاد "هيكل" من موقعه بجانب عبد الناصر التحرك في اتجاه القانون ودولة المؤسسات، ساعده د. جمال العطيفي، الذي صاغ قانون الحريات وقاد معركة تحديث الدولة بشأن المرافق الدستورية والقانونية.

هذه الترميمات لم تكن كافية على الإطلاق؛ لأن "هيكل" الذي قدم نفسه باعتباره فارس مرحلة ما بعد نكسة يونيو

(حزيران) اصطدم ببناء التنظيم السياسي، الذي كانت تسيطر عليه القوى المؤمنة بتصورات محددة اقتصاديًا وسياسيًا. كان هدف "هيكل" تحقيق التغير من داخل إطار النظام نفسه، وكانت خبرته في "الأهرام" مع تيارات المثقفين تمنحه قدرة على فهم مختلف، يضغط لإقرار التعديل، الذي كانت الظروف السياسية في حاجة إليه.

المشكل الديمقراطي

لقد اكتشف المصريون، أن نكسة يونيو (حزيران) سببها غياب الديمقراطية ودولة المؤسسات. وعلى الرغم من أن المصريين تمسكوا بموقف النظام تجاه إعادة بناء الجيش، وعبور آثار العدوان، إلا أن المشكل الديمقراطي طرح نفسه بعنف. ومن يرصد المجتمع المصري بعد النكسة يرى هذا التطلع الجامح إلى تغيير حقيقي، ينهي غياب الديمقراطية، ويقلص من نفوذ الأجهزة، ويفتح الباب أمام الرأي الآخر.

الاتجاه الأكثر ذكاءً في بنية النظام، اكتشف أن عليه تقديم تنازلات. وقال عبد الناصر إن الشعب يريد التغيير وإنه معه. إلا أن هذا التغيير اقتصر على تصفية خصومات

سياسية هنا وهناك. تخلص النظام من مؤسسة عامر في الجيش، ومن وجود صلاح نصر في المخابرات، وبدأ الحديث عن سقوط دولة المخابرات. إلا أن هذه التنازلات البسيطة لم تكن كافية، إزاء ضغط عام يطالب بالتغيير وإعادة هيكلة الدولة على أسس حديثة.

وعلى الرغم من أن النظام فتح الباب أمام الانتقادات في محاولة لتفيس الغضب، إلا أنه قام أيضاً بعدة عمليات اعتقال داخل صفوف الراديكاليين، الذين وصلوا إلى قناعة بأن النظام مات وأنه لابد من ضربه الآن قبل الغد.

لم تكن تحركات هذه القوة مؤثرة، فلم تكن أكثر من "ردشة مثقفين" في القاهرة.

إلا أن النظام عاملها بالقسوة ذاتها التي ميّزت أسلوب حكمه في التعامل مع القوى الرافضة هيمنته السياسية.

نهاية حقبة سياسية

كان رحيل عبد الناصر المفاجئ، يعني نهاية مرحلة تاريخية، وتفتت القوى المختلفة داخل الحزب الحاكم نحو السادات، ويقول هيكل إنه كان وراء الإحياء باختيار السادات تمسكاً بالشرعية، واستمرارية النظام.

ولا يعرف أحد حتى الآن، إذا كان "هيكل" يقرأ المستقبل؛ لأن المنطقي أن تفرض مراكز القوى "علي صبري" كرئيس للجمهورية، ولو حدث ذلك، فإن مجموعة "هيكل" كان من الصعب عليها الاستمرار.

جاء "السادات" بسبب تصورات عديدة. فقد أُنِعت مراكز القوى، أنه محايد وسلبى، وأنهم سيحكمون من خلف ستار. ومنحهم السادات هذا الإيحاء أيضاً.

وفي خطابه الأول بعد انتخابه، ركز على أنه قادم على طريق عبد الناصر. لم يكن "السادات" يملك غير هذا الاختيار، لكنه كان يخطط بصبر للإطاحة بمجموعات الضغط التي تريد له أن يحكم وفقاً لتصوراتها.

السادات تركيبة خاصة، سياسياً وفكرياً، لكنه أظهر خلال أيام عبد الناصر الأخيرة تطرفاً راديكالياً في اتجاه معاداة الغرب والولايات المتحدة يكشف عن أفكاره تماماً. لكن لا بد من التأكيد أنه عندما استلم السلطة أدرك أن عليه القيام بالتغيير إذا أراد الاستمرار على رأس السلطة.

جاءت الفرصة مناسبة، عندما بدأت مجموعة علي صبري الضغط لتحجيم السادات، أو الإطاحة به.

ووثائق ١٥ مايو تكشف ضعف هذه المجموعة التكتيكي والسياسي، حيث أعلنت خلافها مع السادات علنيًا بشأن وحدة ثلاثية مع ليبيا وسوريا.

لم يكن السادات وحدويًا، لكنه استغل الخلاف حول الوحدة للإطاحة بمجموعة علي صبري. وأعطته هذه المجموعة العصا، التي ضربها بها بعنف وقوة وشراسة. وكان هيكمل، ومحمد حسن الزيات، وممدوح سالم، والليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري، ومحمد صادق رئيس هيئة أركان القوات المسلحة آنذاك، المجموعة التي التفت حول السادات. وهي غير غريبة على النظام، ومحسوبة على الناصرية.

الجمهورية الثانية

إلا أن مجموعة أخرى، يمكن وصفها باليمين، وجدت في حركة مايو (أيار) ثورة كاملة، تشكل جمهورية ثانية، وأعتقد أن هذا التوصيف أقرب إلى الصحة. لكن هذه الثورة لم تعلن عن نفسها صراحة، إلا بعد حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣، فقد توفرت لها المقومات الشعبية الكاملة، عندما تحقق النصر العسكري، وكان لابد أن تتحرك اقتصاديًا

وسياسيًا، وتسقط عن نفسها كافة التحفظات التي كانت تمنعها من الحديث عن رؤيتها الجديدة. من مايو (أيار) ١٩٧١ وحتى أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣، حاول النظام ربط نفسه بالمحاور التي كانت قائمة قبل الإطاحة بمراكز القوى، وتمثّل ذلك في علاقات مع السوفييت على الرغم من طرد الخبراء العسكريين قبل أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣. كذلك في التأكيد بالمحافظة على الإطار الاشتراكي، وصيانة مكاسب القطاعات الشعبية والإبقاء على القطاع العام. حرب أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣، أعطت النظام قوة زخم كبيرة سمحت له الاستناد إلى مفهوم الثورة التصحيحية وتشكيل الجمهورية الثانية. بدأت الخلافات مع "هيكل" حول الاختيارات السياسية لمرحلة ما بعد الحرب، وتمت الإطاحة بالزيات الذي كان يرفض الاتجاه نحو الغرب. وأعلنت الحكومة خطتها في تحديث الاقتصاد ودفعه نحو الليبرالية الاقتصادية. وتزامنت هذه التحركات مع علاقات وثيقة مع الغرب، وإلغاء معاهدة الصداقة مع السوفييت.

المنابر والأحزاب

هذا التغيير استند على ورقة النظام التي لعبها بمهارة وهي تلبية حاجة المجتمع إلى الديمقراطية؛ لذلك تحرك السادات نحو إنشاء المنابر، ثم بعد ذلك السماح بقيام الأحزاب.

وعلى الرغم من شعور النظام البراجماتي بأهمية الديمقراطية، إلا أنه حاول ضبط العملية كلها داخل ضوابط يملكها؛ حتى لا تخرج التجربة عن الإطار الذي حدده لها. لم يقبل الواقع المصري هذه الضوابط، وشهدت الساحة انتفاضات عديدة ضد الاختيار الحكومي. وكانت قمتها حركة التمرد التي انفجرت في عامي ١٩٧٥ و١٩٧٧.

الانتفاضة الأخيرة، هزت النظام تمامًا، لأن تبديل أطر المجتمع ترتب على جموح الفئات الطفيلية التي تعملت بسبب المضاربة في الأسواق، والمتاجرة في السلع الفاسدة. كان طموح النظام تحقيق ليبرالية اقتصادية، إلا أنه لم يعتمد على رأسمالية منتجة، وإنما دعم فئات طفيلية غريبة على جسم الحركة الاقتصادية.

تضررت القطاعات، التي كانت تحميها إجراءات ثورة يوليو (تموز) لذلك حدث الانفجار في ١٩٧٧. هذا التمرد ينهي خطة مايو (أيار) ١٩٧١، لأنه يشابه نسخة ٦٧، في هزها للنظام الناصري.

ترتب على هزة ١٩٧٧، أن دخل النظام في قنوات سياسية باتجاه حل القضية الوطنية بعقد الصلح المنفرد مع إسرائيل.

منذ ١٩٧٧، بدأ الخصام العربي مع مصر، وتصاعدت لهجة الاحتجاجات الداخلية. ولم يتمكن النظام على الرغم من الوفرة المالية التي تحققت له من إقرار التوازن، وإنجاز خطة الاقتصاد المفتوح.

وقبل رحيل السادات، دخل مرحلة "خريف الغضب" التي وقف "هيكل" يرصدها من بعيد، ويسجلها، باعتبارها الخروج الأحمق، على خطة كان يتصور حدوثها على أيدي السادات في عام ١٩٧١. بغياب السادات، تنتهي الثورة الثانية، أو الحركة التصحيحية التي تمت في مايو (أيار) ١٩٧١. كانت النهاية مفاجئة ودامية.

ويمكن تحليل هذه الفترة، إنها استندت على رغبات مشروعة في الشارع، إلا أنها فرطت في الإرث الذي تجمع لديها.

وعلى الرغم من انتقادات هنا وهناك، إلا أن تحليل هيكل في "خريف الغضب" يؤرخ هذا الجموح الذي حدث، والذي استند إلى رغبات فرد وليس اتجاه عام. ولا بد أن المؤرخ يشعر بأن نهاية السادات، وضعت الفصل الأخير في الأحداث التي بدأت مع صعوده وحتى رحيله.

إن مصر تعيش الآن مرحلة مختلفة، قد يراها البعض التصحيح الترشيدي لتجربة مايو (أيار) وقد يراها البعض الآخر أنها فترة مختلفة تمامًا، تسعى لتجذير دولة المؤسسات. إن الصحيح هو، أن الفترة الحالية في المركب السياسي من عصرين مرًا بمصر بعد عام ١٩٥٢. إنها تجمع بينهما، فتحاول المحافظة على الإطار الليبرالي في الاقتصاد مع الوفاء بدور الدولة بشأن المطالب الاجتماعية، لكن الفترة الراهنة توسعت في تعميق الحريات وتوسيع الهامش الديمقراطي.

ويُتجه النظام الحالي نحو معالجة تراكمات الفترة السابقة بوعي وبرغبة مخلصّة في ترسيخ دور المؤسسات، وتحقيق الوفاق، وتدعيم الحلول الديمقراطية.

يرى بعض المؤرخين، أن مصر منذ ١٩٥٢، يحكمها نظام واحد، وأن اجتهادات معينة تحاول طرح وجهة نظرها. إن نظام يوليو (تموز) جاء ليعالج أزمة المجتمع القديم، إلا أنه أخفق ديمقراطيًا، ولم يستطع تحقيق الأمان الوطني إذ حدثت نكسة رهيبة مسّت الحدود والإطار الجغرافي.

حاول السادات من جانبه التمرد على إطار يوليو، وخاض حربًا حقق من خلالها استعادة الأرض التي ضاعت في يونيو (حزيران) لكن العائد السياسي كان محل الجدل والخلاف.

النقطة الثالثة، هي مرحلة الترشيح السياسي لجموح التجريبتين السابقتين عليها.

إن مرور ٢٠ عامًا على حركة مايو (أيار) يطرح أسئلة حول الفكر السياسي المصري، خصوصًا أنه في العام القادم تمر ٤٠ سنة على قيام ثورة يوليو (تموز) عام ١٩٥٢.

وأعتقد أنه بعد انحسار مراحل الغضب والتوتر
والسخونة السياسية، يمكن للمؤرخ المحايد أن ينظر إلى
التاريخ المصري بطريقة هادئة لا تخضع لأهواء الحزبية،
أو الأحكام المتسرعة.

إن التاريخ المصري المعاصر، جرت كتابته بطريقة
غير علمية؛ لأن الأهواء والمشارب المختلفة تحكمت فيها.
فهل هناك فرصة الآن أمام جيل مختلف، يعيد قراءة هذا
التاريخ من دون تحامل، ومن دون نوازع شخصية فكرية
كانت أم سياسية؟

العلم المستورد ولغة الحضارة

هناك تراث إنساني، ساهمت الحضارة البشرية في صياغته. لقد تراكمت الإنجازات، وتبلورت في فكر إنساني ممتد من العصور السحيقة حتى الآن. فالحضارة الحالية، ليست من نتائج العقل الغربي بمفرده، وإنما هي محصلة جهود إنسانية طويلة، ومخاض فكري صعب، ترتبت عليه هذه الحقائق التي نتعامل معها اليوم.

ويكفي للتدليل على ذلك تأمل حال أوروبا في العصر الوسيط فلولا الجهد العربي المتميز، في نقل مناهج المعرفة والمحافظة عليها وتطويرها ما تمكنت النهضة الأوروبية من تحقيق أي تقدم. لقد اندثر التراث العقلاني في العصر الوسيط، وضاعت أصول المنطق وقوانينه، بفضل ترمت الكنيسة وعدائها للعلم ومناهج البحث.

احتفظ العرب بهذا الإرث وطوروه، وأضافوا إليه علومًا جديدة، واكتشفوا طرائق مختلفة للنظر والتأمل والاجتهاد الفكري. وساعدتهم على القيام بهذا الدور مناخ

علمي وفرفته الحضارة العربية الناهضة آنذاك التي عملت على تهيئة الجو لنحو البحث العلمي بعيداً عن المحاذير والفرامانات المحرمة للتفكير والاجتهاد.

النهضة الأوروبية التي قامت على أنقاض العصر الوسيط، تسلمت من العرب الإرث الإنساني معدلاً ومطوراً. أخذت شروحات ابن رشد على أرسطو، وأخذت من العلماء اكتشافاتهم في مجالات العلوم التجريبية والنظرية. ولولا الدور العربي، لما وجدت النهضة الأوروبية أية عناصر حقيقية تشد عليها أساس انطلاقها نحو روح العصر الحديث. هذا الإسهام العربي المميز، تعترف به كتب تاريخ العلم المحايد، وتقرّه الموسوعات المختلفة، ولا يتجاهله سوى الحاقدين والمغرضين.

وهذه الحقيقة تؤكد أن التراث الإنساني صنعته البشرية، ببنائه "طوبة .. طوبة" كل حضارة ساهمت بشكل ما في وضع لبنة، أو إضافة شيء على البناء المتراكم.

لذلك فالفكر الإنساني الحالي، من الخطأ نسبه كلية إلى الغرب، فليس العقل الغربي بمفرده الذي شيد الحضارة، وبنى هيكلها الشامخ الحالي، وإنما هناك عقول أخرى،

وحضارات مختلفة ساهمت بشكل أو بآخر في بناء بنته الحضارة الحالية.

لذلك فالتراكم الفكري الحالي في مجالات العلوم والاختراعات هو حق لجميع أبناء القبيلة الإنسانية، دون أن يشعر أحد بالدونية، وهو يستعمل نظرية أينشتاين مثلاً، ويستخدم مناهج علم النفس الحديثة، أو قوانين الكيمياء المعاصرة.

إن التقدم في هذه العلوم حدث بإصرار البشرية على الإضافة المستمرة، فالنهضة لم تأت من فراغ، وباعتراف الكل كان الأوروبيون في حالة من التخلف مزرية، بينما كان العرب هم أهل الحضارة والصناعة والتقدم.

وعندما أراد الأوروبيون النهوض عندما توفرت لهم أسبابه لم يجدوا أية غضاضة في النقل عن العرب لقد انطلقوا يترجمون الإنجاز العربي وينقلونه إلى لغتهم. لم يترجوا من هذه العملية بدعوى أنهم ينقلون أفكاراً مستوردة، فقد كانوا على بينة بأنهم يقومون بمهمة تحدث دائماً في التاريخ، أن ينقل المتخلفون عن المتقدمين فهذه سنة التقدم وشرعية الحضارة.

التراث الحالي، هو تراكم إنساني، لذلك فالحملات التخوفية التي يشنها البعض على المتعاملين مع هذا التراث، لابد من رفضها، إن هناك من يتحدث عن فكر مستورد، وعن شخصيات غريبة لا يجوز التعامل معها، ومع اجتهادات وإنجازات سياسية يراها البعض غريبة مائة في المائة، وليس لها علاقة بتراثنا الشرقي وعاداتنا الشرقية.

إن البعض يرى أن استعمال بعض مناهج فرويد في علم النفس خضوع للغرب وللنظريات المستوردة، والبعض يرى أن تدريس الكيمياء في معاهدنا ضرب من الكفر؛ لأنها علوم غريبة محضة اخترعها "الخواجات" الكفرة. هذا الكلام يردد ويكتب في كتب ويقول به البعض ببجاعة كبيرة.

وهذه الدعاوى هدفها عزلتنا عن الحضارة المعاصرة. بدعوى أنها غريبة مادية ملحدة لا تتماشى مع قيمنا لروحية وأصالتنا الشرقية. هذا الكلام الغريب، وجد في مناخ الأزمة الحالية من يستمع إليه، ويعتبره حقائق لا يجوز مناقشتها.

واستمرار هذا الأفكار الغريبة خطر؛ لأنها تفتح الباب أمام عزلة حقيقية تمنعنا عن الاتصال بالعصر وإنجازاته، إنها تذكرنا بما مرّ بنا قبل حملة نابليون فقد خيم علينا مناخ

مضاد للعلم أبعدنا قرونًا عن طبيعة العصر وبينما كان المماليك يتباهون بسيوفهم المذهبة وملابسهم المزركشة كان "نابليون" ينظم حملة عسكرية مدججة بالسلاح الحديث والمدافع الثقيلة. هدفها غزونا واحتلالنا. ولم تصمد السيوف أمام المدافع، فلم يتمكن التخلف من هزيمة التقدم، وفرّ المماليك من أمام نابليون وتصدت له روح الشعب المقاومة التي رفضت استعمار نابليون لكنها فتحت عقلها أمام مطبعتها الحديثة واختراعات علمائه الجديدة.

إن الابتعاد عن العصر جريمة؛ لذلك فإن الجماعات التي تنير حملة ضد العلم بدعوى أنه مستورد، هدفها تكرار مأساة المماليك حتى يتمكن "نابليون" آخر من غزونا بمدفعه الحديثة. بينما نحن متحصنون داخل حصون الجهل والتخلف نردد ما كان يردده عامة سكان القاهرة عندما هطلت عليهم قنابل نابليون، فلم يجدوا سوى الصراخ: يا خفي الألفاف نجنا مما نخاف.

دعه يفكر

نظّم المعهد الملكي البريطاني للشؤون الدولية مؤتمراً موسعاً حول دور بريطانيا في العالم.

وجرى ترتيب هذا اللقاء بحيث ضم خبراء من مختلف أنحاء العالم وحرص البريطانيون على استضافة شخصيات سياسية تطرح رأياً سلبياً بشأن الدور البريطاني في ما يسمى النظام العالمي الجديد.

وعبر عن هذا الاتجاه وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر، الذي طرح مقولات تقيد بأن الدور البريطاني في عالم ما بعد الحرب الباردة سيكون أقل أهمية من دور ألمانيا مثلاً.

وقد حرص البريطانيون على الاستماع لآراء مختلفة في مرحلة يقود فيها العقل السياسي البريطاني النقاش لتحديد هوية مرحلة عالمية مختلفة، كذلك لتحديد المسار على الجبهة الأوروبية، وقضايا إقليمية أخرى مطروحة على الوعي العالمي.

نظّم هذا اللقاء وزير الخارجية دوجلاس هيرد، لكنه أشرك المعارضة في ترتيب اللقاءات وتحديد أسماء الضيوف، حيث إن هذا الحوار لا يخص الحزب الحاكم فقط، وإنما يتعلق أساساً بمسيرة دولة تبحث عن دور لها وتتقرب عن هوية خاصة، وتسعى لتحديد مواقفها في مرحلة تتميز بالتعقيد الشديد مع فوضى واضحة.

وكان هذا المؤتمر فرصة للاستماع إلى حوارات عقلية تعتمد على اجتهادات سياسية تستند على المعلومات والتحليل. ومن المؤكد أن نتائج حصاد هذا المؤتمر من آراء واجتهادات موضوعة الآن أمام مؤسسات بحث ومراكز دراسات تقرأ هذه الاجتهادات للتعرف عليها، لتحديد استراتيجية للمستقبل تعتمد على الإرث البريطاني التاريخي والثقافي.

وقد نشّطت هذه الحوارات قضايا مختلفة، وطرحَت الرؤى والمواقف المتعارضة؛ مما فتح أبواب النقاش على مصراعيها للتعرف على الرأي الآخر وإفساح مساحة ضخمة أمامه.

وحقيقة الأمر أن البريطانيين دعوا أولاً معارضين خارجين لمعرفة وجهة نظرهم والحوار معهم كذلك حضر المناقشات أصحاب مدارس لا يوافقون حكومة ميجور على رأيها تجاه قضايا خارجية.

والخلاصة أن مؤتمراً دعا إليه معهد بريطاني بارز ضم الآراء المعارضة والمتحفظة على سياسات وأدوار داخلية وخارجية.

وحرصت الحكومة على فتح أبواب الحوار دون ضوابط أو قيود؛ لأن ذلك أفضل طريقة لكشف أكبر قدر من المعلومات، ستمكنها من رسم استراتيجية كاملة للتحرك على جبهة دولية سواء كان ذلك ثقافياً أو سياسياً أو اقتصادياً.

إن هذه الطريقة هي الوحيدة الصالحة لنقد الأفكار من أجل صياغة أخرى بديلة. ولعل المنهج التعددي هو المسئول الأول عن قناعات من هذا النوع، حيث تعترف الساحة بوجود الرأي الآخر وأهميته في عملية الصياغة الاجتماعية والثقافية.

وحضور هذه اللقاءات وغيرها يؤكد قناعات بأن تدفق المعلومات من ناحية وتعددية منابر الفكر، قضية تشكل

قواعد القوة في المجتمعات المفتوحة التي تتبنى شعارات من عينة "دعه يفكر .. دعه يمر".

وقد ثبت عبر خبرة طويلة بأن التعدد الفكري يشكل حاجز الأمان، ويرسخ عوامل الاستقرار وما حدث للاتحاد السوفيتي من انهيار يؤكد أن حصار الرأي الآخر يقتل خلايا المناعة لدى المجتمع ويفتح الأبواب أمام إيدز التخلف والانهيار.

ولقد جرّبت مجتمعات الانغلاق بكل جوانبه، فكانت تختار بذلك انهيار الإرادي، بينما الازدهار سيطر على تجارب أخرى تأكدت بأن بقاءها يعتمد أولاً على وجود الفكرة الأخرى والرأي المختلف والمعلومات المتوفرة أمام الجميع.

وإن بريطانيا تواجه مرحلة مختلفة في تاريخها؛ لذلك يقوم عقلها الواعي بفتح الحوار مع الآخر لمعرفة على وجه الدقة السلبيات والانتقادات لصياغة خطة تتطلق من نتائج هذا الحوار.

لقد شهد العالم في الآونة الأخيرة ثورة اتصالات أنهت ثقافة العزلة والانغلاق، وأصبح تبادل المعلومات الآن حقائق

ملموسة؛ مما يدفع نحو إعطاء قوة لفكر التعددية خصوصًا على جبهة الثقافة.

إن الانغلاق قبل نهاية الحرب الباردة كان يغذي ثقافة ضعيفة وممارسات غير إنسانية، والانفتاح العالمي الآن يضح قوة في شرايين تعددية فكرية وثقافية تبدو هي الحل لأزمات ونكبات وممارسات لا تعترف بالرأي الآخر، وتحاول بكل الطرق محاصرته وتكبله بترسانة من القوانين المقيدة للحريات والتعبير. إن الأنظمة الحديثة تستمد قوتها، ليس من مصادرة الحريات وإنما من توفير المناخ الملائم أمام منابر التعددية.

وقد جرّب النظام السوفييتي ممارسة دور القامع للحريات فحكم بذلك على نفسه بالفناء، مما يعيد مجددًا القيمة للانفتاح الفكري باعتباره فريضة إنسانية.

جذور العنف

أعطت النكسة الأرضية الصالحة للهجوم على مشروع النهضة. انطلقت حملة منظمة، ومخطط لها، هدفها تقويض أسس التحديث كاملة، وتقديم مشروع آخر بدلاً منها، يدعي أنه ينطلق من التراث، ويستلهم العقيدة. لكن تأمل أفكاره السياسية، يدل على أنه جزء من الفكر المضاد، يدخل نفسه كطرف في المعادلة الدولية، يتحالف مع المد الاستعماري، كل استثماراته تجري وفقاً للفكر الاقتصادي الغربي، رغم ادعاءاته وطننته في الهجوم على الربا والبنوك الربوية.

الهزيمة سمحت لهذا الاتجاه بالنمو الأخطبوطي. نمت خلاياه بشكل مذهل. وكانت السلطة السياسية حليفة له، تدعمه بتطهير الأرض من الأفكار العلمية، وتمشيط الواقع من كافة المدارس العقلانية، التي تؤيد المنطق، وتتاصر رؤية تراثية عقلية مستتيرة.

لقد شهدت فترة السبعينيات، التي ازدهرت خلالها تيارات الفكر المضاد للعلم وللديمقراطية والعقل، خطوات

السلطة التي عملت على غلق كافة المنابر، التي كانت تطرح
الفكرة العقلية، والأفكار التراثية المستنيرة.

لقد غابت في هذه الفترة مجلة اسمها "الكاتب" كان
يتجمع فيها فصيل فكري ديمقراطي، له رؤية تراثية
واضحة، شرحها رئيس تحرير المجلة آنذاك "أحمد عباس
صالح" في كتابه "الريادي" "اليمن واليسار في الإسلام" الذي
كان بداية طرح رؤية علمية في التعامل مع الفرق الإسلامية،
غاص المؤلف في الفكر التراثي، أعاد تصفية، وتبويب بعض
اتجاهاته. نظر إليها من خلال مناهج تاريخية وفكرية حديثة.

ضمت المجلة الدكتور محمد أنيس، أستاذ التاريخ
المعاصر، رحمه الله، الذي حمل على كاهله ترسيخ المنهج
التاريخي العلمي في حياتنا الثقافية والجامعية. فقرأ معنا
التاريخ الحديث والمعاصر برؤى جديدة، دشنت مدرسة
تاريخية جديدة، هي المسئلة حاليًا عن ازدهار هذا الفرع
العلمي في حياتنا الآن.

وبجانب أنيس، ضمت المجلة أصواتًا شابة، دخلها
صلاح عيسى ورجاء النقاش. الأول سياسي نشط يكتب بلغة
متفجرة بالوعي والثورة والتغيير، والثاني ناقد جاد، يملك

ثقافة عريضة واسعة وتماسًا جيدًا مع كافة تيارات الأدب العربي، وعمل خلال تواجده على الساحة النقدية على إبراز الأدب الناضج. وأخذ الرجل موقفًا عنيفًا من أدباء السلطة، الذين يقدمون أدبًا مزيفًا ليس فيه رائحة إبداع، ولا شكل موهبة.

هذا المنبر، كانت تظله خيمة فكرية عريضة. كان أشبه بجبهة فكرية، تضم تيارات قومية، وأخرى راديكالية. كان الإطار العام وطنيًا قوميًا. والقاعدة الفكرية عقلية علمية مستتيرة.

عندما جاءت سلطة الجهل والظلام في السبعينيات، كان هدفها إزالة هذه المباني الحضارية من خريطة الحياة الثقافية؛ لأن هذه المواقع كانت قلاعًا عقلية صامدة، تتصدى للرياح الغيبية وأمواج الدروشة الهادفة، إلى نزع فتيل الوعي من عقول الناس، وتحويلهم إلى كائنات استهلاكية، لا عقل لها، ولا دماغ، لا تفكر ولا تخطط، وتمارس حياتها بشكل بدائي، وإن كانت قشرتها الخارجية، على أحدث موضوعة وتراث.

تمكنت الحكومة من إغلاق "الكاتب". لقد انتهزت فرصة انتصار أكتوبر العسكري؛ لتمرر كل خطتها

الجهنمية، الهادفة إلى تدمير الوطن تمامًا. كأن النصر منحها "كارت أبيض" لتصفية كل شيء، وتحقيق أفكارها السوداء المتخلفة.

غياب مجلة مثل "الكاتب" أحدث نوعًا من الخلل في الصورة الفكرية والسياسية. لقد اضطر فريق مميز على الساحة للغياب قسرًا وبقرار إداري مجحف. وعندما حققت الحكومة هدفها ببساطة ويسر، بدأت في الانطلاق نحو إغلاق المنابر الأخرى.

كانت هناك مجلة ثقافية اسمها "الفكر المعاصر" كانت صفحات مفتوحة أمام الاجتهاد العقلي، والتأمل الفلسفي، والنشاط الفكري والفني. كان زكي نجيب محمود رئيسًا لتحريرها، لكن الرجل اصطدم بالتيار الراديكالي. فأفكاره العقلانية المحافظة، كانت غير صالحة في مرحلة مدّ كبيرة، كانت من الطموح بحيث إنها كانت تعتبر فكر زكي نجيب محمود يقف في الصف التقليدي، وليس لديه الاستعداد للقفز معها تجاه الحلقات الأكثر استتارة وثورية.

تخلّى زكي نجيب محمود، عن رئاسة تحرير الفكر المعاصر، ليحمل بدلاً منه مفكر آخر، جامع يمتطي صهوة جواد العقل، ويمارس الأساليب النقدية بدون خوف أو رهبة. نجح فؤاد زكريا، في تحريك "الفكر المعاصر"، جعلها مجلة فكرية ومعاصرة. احتلت موقعاً متقدماً في الدفاع عن القيم العقلانية. ناصرت الفكر الحر بدون قيود أو شروط. وكانت المجلة تربي أجيالاً من الشباب يؤمنون بالفكر المفتوح بدون عقد، عملت الفكر المعاصر، على تنمية الفكر النقدي. زرعت في البيئة القيم الحوارية والمنطقية وتقاليد الجدل والنقاش.

كانت الخطوة التالية للنظام، إغلاق الفكر المعاصر. فبعد الانقضاء على منبر سياسي فكري (الكاتب) اتجهت لتصفية منبر آخر. كان همه تنمية العقل وتنشيط خلاياه، بحيث يكون قادراً على فرز الصالح من الطالح، والجيد من الفاسد. كانت هذه الخطوات تمهد الأرض للتيارات المعادية للعلم، والكارهة للمنطق والحرية لفكرة الاستقلال العقلي.

وهذه الخطوات كانت بداية طريق طويل، كانت
محصلته هذه الرصاصات التي نسمعها الآن، تقتل وترهب
وتشيع جواً أسود من الخوف والإرهاب.

الحل الآخر

مع بداية السبعينيات، بدأ د. محمد عمارة نشر دراسات فكرية إسلامية، تنهل من نبع التجديد، تتحدث عن المدارس الفكرية المختلفة، التي انطلقت تمارس حريتها على أرضية الإسلام، الذي يسمح بفكرة التعدد الحواري، ويمنح الجدل الفكري فرصته للانطلاق بدون قيود أو سدود.

من خلال هذا الإطار قرأنا عن المتكلمين وأصحاب الفرق، وأهل الفلسفة، تنوعت الاجتهادات وتعددت إلا أن التمسك بالجوهر الإسلامي ثابت وعن طريق هذه النظرية التعددية، أبحرنا في التراث، فقَدَّم لنا عمارة بوصلة حادة تمكنا من معرفة الجيد من الغث، الصالح من الفساد.

هذا الموقف، عكس نمو تيار تنويري، عمل منذ سنوات على النهوض بالدراسات الفكرية الإسلامية، التي تسترشد برؤية فكرية، وبإطار بحثي علمي هدفه "غريلة" التراث من مخلفات العصور، وتراكم الأحداث والأحقاب.

ومن خلال هذا المشروع التتويري للتراث، خرجت الأعمال الكاملة للمؤلفين الإصلاحيين أمثال الكواكبي، ومحمد عبده، والأفغاني، وعلي مبارك وغيرهم من رموز النهضة التي تنطلق على أساس تراثي، وتصيغ فكرة التقدم على نهج فكري إسلامي خالص.

ومن خلال هذا التيار قرأنا كتاب علي عبد الرزاق الهام "الإسلام وأصول الحكم" حيث تمكنا من خلال طبعة عمارة المحققة الاطلاع على هذا المشروع الفذ في مجالات الفكر السياسي الإسلامي.

مشروع عمارة في صياغة التراث، وتقديمه في طبعات محققة كان ولا زال خطوة جيدة، إلا أن الظروف الفيضانية التي عمت الساحة، وقذفت بأمواج جديدة، لا تتسلح لا بالعقل ولا بالمنطق في التعامل مع التراث، ألقت بمحاولات عمارة وغيرها بعيدًا عن شواطئ حياتنا الفكرية والعقلية.

إن مشروع قراءة التراث من خلال عيون العصر، مشروع طموح في وقت فيه حركة فكرية ناهضة، وتيار تتويري هادف للمعرفة يسعى لبناء نظرية متكاملة، تكون

مطروحة على بساط البحث والنقاش. لكن بما أن النكسة الفكرية العامة تعرضت لضربات إجهاضية متوالية فإن خطوات عمارة وغيره أصبحت مجرد اجتهادات أكاديمية لا تساهم في صياغة الواقع أو تطرح أي شيء جديد على بساطه.

إن الموجة الأصولية، التي نظرت للتراث على أنه مجموعة من الأدعية والمأثورات والسير، سلبت منه المضمون الفكري، والموقف السياسي والرؤية الحضارية، حجب التيار العلمي، الذي عمل منذ السبعينيات على بلورة صهوة فكرية مميزة تأخذ من العصر بطرف وتأخذ من التراث كل ما يدعم التطور والبناء وأشكال التنمية المستقلة.

إن تيار السبعينيات الذي مثله عمارة، وحسن حنفي، وفهمي هويدي، وأحمد عباس صالح، وغيرهم من مجموعات المفكرين المجتهدين، عملوا من خلال دراسات جادة على طرح التراث باعتباره محركاً كبيراً وأساسياً لمشروع النهضة ومساهمًا مساهمة ضخمة في رسم قسّمات نهضة حضارية كبرى تعادي الاستعمار، وتبني شخصية الأُمس على أسس عصرية.

هذا التيار غطت عليه الموجات العاتية التي وقفت مع الانفتاح والتي حولت التراث إلى شذرات متفرقة تستند على الإرث المضاد للنهضة والمناقض للتنمية والغارق إلى أذنيه في حلقات التبعية بأشكالها الاقتصادية والسياسية، وعندما يتصفح المرء كتبًا من عينة "المعتزلة والحرية الإنسانية" لعمارة و "التراث والتجديد" لحسن حنفي و "اليمن واليسار في الإسلام" لأحمد عباس صالح و "القرآن والسلطان" لفهمي هويدي، و "دليل المسلم الحزين" لحسين أحمد أمين يدرك أن أبناء هذا الجيل وهذا التيار، كانت لديهم حلول حلت بشكل باهر المعادلة الصعبة، بين طرفي الأصالة والمعاصرة، إن في هذه المؤلفات وغيرها التي كتبتها أقلام جادة، حلول واجتهادات، تقدم العصر من خلال عيون التراث، وتري التراث من خلال عدسات العصر والأهم من ذلك هو الرؤية الاجتماعية الناضجة والحل السياسي الديمقراطي الذي يناصر التعددية كفكر وكأسلوب وبالإضافة إلى هذه الرؤية فهناك إصرار على نهج الاستقلال الوطني وعلى فكرة التنمية الاقتصادية المستقلة.

في مقابل هذا النهج، ترى مؤلفات أخرى من عينة "الفريضة الغائبة" وكتب جماعات الشكريين والقطبيين وغيرهم من حلقات الفكر الآخر. تأمل هذه الأفكار يضع أيدينا على رؤية يشوبها التعصب والتخلف والاستبداد، ابتعاد كامل عن التراث الوطني بكفاحه ضد المستعمر، معاداة لفكرة الديمقراطية بدعوى أنها غريبة كافرة، رفض صريح لمسألة التعدد السياسي، عداا مباشر للأقليات الدينية، سلب صفة المواطنة منها، ومعاملتها على أنها درجة ثانية، في درجات المجتمع، موقف متحيز ضد المرأة. كراهية واضحة للعلوم المعملية والإنسانية.

التقابل بين الاجتهادين، العقلاني التراثي، والغيبى المتزمت يبين أن واقع الأزمة التي عشناها جميعاً أثناء السبعينيات وما زلنا نحيا داخل أوضاعها الثقيلة، قذفت هذه الأزمة بالحل المعقول الذي قدمته لنا مجموعة عمارة وغيره من المجتهدين على أساس العلم والعصر والفكرة الوطنية، وقدمت لنا اجتهاد المجموعة الأخرى، الذي يعد تعبيراً عن مأزق أكثر منه تعبيراً عن صحة فكرية حقيقية.

وأَتصور أن الحلول التراثية العقلية تكمن أهميتها الآن،
فلقد جربنا الميل مع أهل السلف بدون روح العصر، فكانت
هذه الأعراض المرضية التي نحيا نتائجها هذه الأيام،
فلم يعد يبقى أماننا سوى تجريب النظرية الأخرى التي تقدم
لنا تراثاً عقلياً وطنياً يرفض التبعية بأشكالها، ويناصر الحرية
والشورى الحقيقية وكل مبادئ العدل الاجتماعي، وقضايا
حريات التعبير، وحق الأشخاص في حقوق المواطنة
المتساوية بدون تصنيف اجتماعي أو عقائدي أو عنصري.

البديل لخالد محمد خالد

فرّخت الاتجاهات المحافظة الأصولية، أجيالاً جديدة،
نمت في ظل فترة معادية تماماً لوجود الرأي الآخر، مناهضة
للفكرة الديمقراطية، تراها نتاجاً غريباً فاسداً. يعبر هذا الجيل
عن كراهيته للحزبية وتقاليدھا؛ لأنها في رأيه دخيلة على
عاداتنا وتقاليدنا، "وبدعة" مستوردة من "الغرب".

هذه الأجيال، التي تكتب الآن، وتنشر لها بعض
الصحف والمنابر الأصولية، تطرح فكراً، شكله الخارجي
ديني، لكن جوهره، لا يمت للدين بصلة، وإنما يعمّق أساليب،
واتجاهات سياسية خبيثة، هدفها تقويض أسس النهضة،
وإخضاع المجتمع بالكامل للهيمنة الخارجية.

إن الفكر الديني، كان له طرح مميز أيام فترات
النهضة، كان يقدم صيغة متقدمة في إطار المشروع القومي.
كان حريصاً، أشد الحرص، على الأسلوب الديمقراطي،
ينادي بالعلم، ويناصر موضوع العدالة الاجتماعية يقف من
السلطات الجامدة موقفاً نقدياً صريحاً. ونستطيع أن نرى في

كتابات "خالد محمد خالد" ملامح هذا الموقف واضحة جلية. فكتاب "من هنا نبدأ" هو "منافستو" محدد، يتكلم بلغة مباشرة ويضع الفكر الديني في إطار الخط العريض، الذي يسعى من أجل مجتمع متقدم، منفتح على العلم، يلتزم بإطار الشريعة، وفي نفس الوقت ينهل، من الإنجازات الإنسانية في مجالات الحقوق السياسية، ومنجزات العصر الحديث.

خاص "خالد محمد خالد" بكتابه هذا معركة رهيبة، وتعرض لمضايقات السلطات التقليدية، التي رأت في مؤلفه خروجًا على صلاحياتها، وتعدّيًا على دورها، إلا أن الرجل لم يهتم بموقف المعارضة. ظل ينجز مشروعه العام فأصدر مجموعة من الكتب تعد منارات على هذا الطريق مثل "الديمقراطية .. أبدًا" و"مواطنون لا رعايا".

وعندما حدثت الأزمة الديمقراطية، إبان الفترة الناصرية، كان خالد محمد خالد، هو الصوت المرتفع، الذي يطالب بالمزيد منها لعلاج أخطائها وعثراتها. ورغم كل الجهود المخلصة التي حاولت الحوار مع خالد محمد خالد إلا أن الطبيعة البيروقراطية للنظام، لم تسمح لمفكر في هذا الحجم الضخم بالإسهام في بناء كيان

معارض على يسار النظام، يكون طرفاً في مسألة الحوار الوطني، الذي يدفع التنمية الفكرية إلى الأمام. ورغم أنه كانت هناك رغبة في فتح هذه القناة، إلا أن عوامل عديدة أجبرت خالد محمد خالد على الصمت والانسحاب من الحياة الفكرية، والاهتمام بقراءات وتلخيصات تراثية، لا تقدم ولا تؤخر.

كان خالد محمد خالد، يعبر عن تيار الفكر الديني، الذي خرج من منعطف الإصلاحيين، أمثال محمد عبده، والأفغاني. هذا الاتجاه تطور بشكل مذهل على يد خالد محمد خالد. قراءة كتبه واجتهاداته، تبين أنه كانت لديه رؤية سياسية تترجم نمو الفكر القومي، وتعبّر عن بروز الحركة الوطنية بجناحها الديمقراطي، وروافدها الإصلاحية الاجتماعية.

وإذا كان نظام ما قبل يوليو، لم يتمكن من استيعاب تيار خالد محمد خالد بسبب تحالف النظام الملكي مع المؤسسات التقليدية. فإن سلطة يوليو، تصادمت مع هذا الفكر بشكل فج لل غاية. مع أن تيار خالد واجتهادات أبنائه جيله، كان يمكن لها لعب دور بارز في تعميق مسارات حركة يوليو.

إن الخطوط العامة التي طرحها خالد محمد خالد في كتبه المبكرة، تلتزم بالعديد من أفكار يوليو الإصلاحية، والتغييرية. لكن مشكلة نظام يوليو القاتلة، أنه لم يكن يسمح بتواجد أفكار تتبع من خارج مؤسساته، حتى ولو كانت تعبر عنه، وتتفق مع أسسه وتوجهاته.

لقد عضدت الحركة الفكرية التنويرية جهود خالد محمد خالد الفكرية، فالرجل كان يحدث ثورة فكرية تكمل تلك التي بدأها جيل الرواد. كان خالد في كتابه "من هنا نبدأ" يفتح باب الاجتهاد السياسي في مجال الفكر الديني. كان يناصر الحل الديمقراطي بشكله الحزبي، كان مع العدالة الاجتماعية، ومع خطة نهضوية تدفع المجتمع خطوة إلى الإمام.

هذا المشروع الذي يصيغ مساهمة فعالة وحيوية للفكر الديني، ضاعت في طيات النظام القديم، وتلاشى تأثيرها في ظل هيمنة البيروقراطية السياسية بشكلها العسكري.

غياب هذا البعد وعزله، والمعاملة العنيفة الإدارية، التي تلقّاها هذا التيار، فتحت الباب لفكر ليس لديه أي رغبة في الحوار ولا النقاش. فقد خرج من "آتون" هذه الظروف "الرافضون". كان بروزهم نتيجة ظروف قمعية، لم تتجح في

التعامل مع الواقع من منطلق سياسي ديمقراطي. كما أن ظروف النكسة والفسل القومي، وانهيار حقبة كاملة، عوامل ساعدت على نمو حركة الرفض العنيفة، التي نظرت للمجتمع من خلال منظار الهزيمة والإحباط والفسل، فوجدته مجتمعاً جاهلياً، لا يحق العيش فيه، ولا يحق التحاور معه، ولا التعامل، لا مع رجاله، ولا أفراداً.

هذا الجيل الجديد. وهذا الفكر نما في السجون الخشنة، والمعتقلات الرهيبة. تعاملت السلطة معه بعنف شديد، فكان لابد من خروج العنف المضاد. لم يأت هذه المرة من أي فريق سياسي، وإنما انطلق كالموج العاصف، يرفض الحوار، مطالبه التغيير الشامل، الذي يطيح بكل شيء، فهذا المجتمع كافر كله، ولا ينفع فيه إصلاح ولا ترشيد.

في هذا المناخ، غاب خالد محمد خالد، اختفت كتب سيد قطب القديمة، ضاع كتاب "علي عبد الرازق" "الإسلام وأصول الحكم". لا تظهر على الساحة الآن، سوى الكتب التي تبشر بمجتمع آخر مختلف عن هذا الجاهلي الذي نعيش في ظله الآن. وبدلاً من "من هنا نبدأ" نقرأ "الفريضة الغائبة" وبدلاً من "خالد محمد خالد" نتعرف على فكر

"طه السماوي" و "عمر عبد الرحمن". فكر هؤلاء ولید أزمة ونتاج لمشكلة مستعصية على الحل. محصلة للهزيمة العسكرية، والصلح مع العدو، والانفتاح الاقتصادي، كان خالد محمد خالد هو ابن ثورة ١٩١٩، التي حققت بعض الإنجازات الوطنية، وبعض المكاسب السياسية والليبرالية، أمّا هؤلاء الذين يحتلون محاور الفكر بالقوة وطلقات الرصاص. فهم حصاد الإحباط، والأزمة الديمقراطية، والخلل الرهيب في أشكال التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

الحوار مع الخطر

الإرهاب، الذي يسود حياتنا هذه الأيام، مهّد له إرهاب آخر. فبعد النكسة، خرج الإرهابيون يشيعون أكبر قدر من الخوف على ساحة الفكر، وفي ميدان الأدب، ودوائر الفن. تصوّر نظام سياسي ساذج ومتخلف، أنه يمكن الاستعانة بالإرهابيين، حتى يعضّد نظام حكمه. لبس النظام "عمامة" وأمسك "سبحة" وردد بعض الآيات الكريمة، في الوقت الذي كان ينهب فيه الوطن ويفرط في حقوقه.

ترك النظام هذه الجماعات تنمو بشكل أخطبوطي، منحها كل شيء، مقاعد في هيئات تدريس الجامعة، مناصب في الإعلام، وجودًا على ساحة الثقافة. والأهم من ذلك أنه منحها "الشارع" تفعل فيه ما تشاء! تصوغ عقل الناس بالطريقة التي تتمشى مع فكرها. زرعت في عقولهم أشياء خبيثة، عادت بنا إلى ما قبل العصور الوسطى.

وضعت هذه الجماعات، في عقل الناس البسطاء قيمًا معادية للتقدم ومشروع النهضة، قالت لهم إن التعليم حرام!

وخروج الفتاة للذهاب إلى الجامعة لتحصيل العلم رجس من عمل الشيطان.

كان هذا الهدم في أسس المجتمع الحديث يتم تحت نظر وسمع النظام، الذي كان لا يهتم تدمير هؤلاء وبطشهم، طالما أنهم في غفلة عنهم، ويتركون له نهب البلاد في أمن وسلام، ودون تعكير للسلام الاجتماعي والأمن السياسي، وأخلاق القرية، تلك الشعارات الكاذبة، التي كان يرفعها لخداع البسطاء، حتى يتمكن من نهبهم، وتقويض أحلامهم في التقدم نحو الاستقلال.

ترك النظام هذه الخلايا الإرهابية تنمو، بل دعمها دعمًا متواصلًا، خصوصًا في مجالات التعليم والجامعات والإعلام والثقافة.

وقد تعرض المثقفون لحملات إرهابية من تلك التنظيمات. قد سبق عنف الرصاص، عنف آخر مهدد له على ساحات الفكر والإبداع، كان الهدف منه تمهيد الأرض لما يحدث ويتم حاليًا.

لقد تمكنت هذه الجماعات المعادية للتقدم، والمعادية لأي دين، من إشاعة جو من الخوف في صفوف الحياة

الفكرية والحياة الثقافية. تصدّت للمفكرين بشكل عنيف، فكل من يقول كلمة أو ينطق حرفاً لا ترضى عنه، تسلط عليه رجالها من الصحافة ووسائل الإعلام، لا للحوار مع ما يطرحه، وإنما للتشهير به، والطعن في دينه، والتتديد بفكره، والتعريض بحياته الشخصية.

إن رجلاً مثل فؤاد زكريا، تعرّض ولا زال لحملات ضارية تلغنه وتسبه، لا لشيء سوى إصراره على التمسك بمنهج العقل، إن الرجل مُصرٌّ على الاحتفاظ برأسه عاملاً ومفكراً، هذا الموقف، يثير عليه جماعات الظلام فتسبه علناً دون مراعاة الأدب، أو الالتزام بقواعد الأخلاق.

وما يحدث لفؤاد زكريا، حدث لتوفيق الحكيم رحمه الله. لقد انتهالت عليه مدافع الظلام دون شفقة أو رحمة. تنهش عظمه، وتتهكم عليه، وتشتمه، وهو الرجل صاحب الفكر المعتدل، والذي ركزَ بعض سنوات حياته لإخراج تلخيص جيد لتفسير الإمام القرطبي.

وتعرّض زكي نجيب محمود، لموقف أشد وأقسى، فلا يصفونه إلا بالعلماني، والملحد؛ بسبب إصراره الشديد على أن يكون العقل أداة للمعرفة.

وليس هؤلاء فقط هم الذين تعرضوا ويتعرضون لطغيان جماعات مظلمة معادية للحرية والتقدم، وإنما هناك عشرات من المفكرين والسياسيين، تُشَنُّ عليهم حملات إرهابية، قصدها تخويفهم؛ حتى يتخلوا عن أفكارهم، وينضموا إلى حلقات الدروشة، ويصبحوا أعضاء في خلايا التخلف..

لقد حاول د. فرج فودة مناقشة فكر هذه الجماعات في كتبه ومقالات، فلم يجد استجابة على ذات المستوى، كان من المفروض محاورته، والدخول معه في مناظرة فكرية حول نقده، وملاحظاته المدعومة بقراءات تاريخية، وتحليلات موضوعية صائبة. لم يحاوره أحد، ولم يناقشه عضو من هذه الجماعات، وإنما كل ما تلقاه الرجل خطابات تهديد بالقتل، وحملات تشهير تُحَلِّ دمه؛ لأنه خرج على إجماع الأمة.

وهذا الموقف ينطبق على اجتهادات حسين أحمد أمين، فالرجل يناقش ويطرح التصورات الدينية الصحيحة، يسحب من هذه الخلايا الأرضية التي يقفون عليها، يبين أنهم لا يمثلون أي عقيدة، فأصول العقيدة تستند على قيم وعلى تاريخ

ناصر أعطى للفكر حرية مطلقة، ونمت في ظلها حضارة سامقة، شعر فيها الإنسان بالأمن والأمان. محاولات حسين أمين الاجتهادية العلمية، وجدت لغة القتل للحوار معها.

هذه الخلايا التي تهدد، وتطلق الرصاص في كل مكان، نمت في حضان نظام فرط في عرض الوطن وثروته. هذا "العفريت" الذي خرج من "القمم" في رأينا لن يعود إلى حجمه، إلا بإجراءات تعيد صياغة الحياة من جديد، تزرع فتيل التخلف الذي منح هذه الأشباح الحياة، وبثَّ فيها الروح. إن رصاص الأمن، لن يقتل هذا المارد، وإنما إجراءات تعيد دفع المجتمع نحو العلم والديمقراطية والعدل الاجتماعي. إن القضاء على الفساد الاقتصادي خطوة لمحاصرة المناخ الذي يفرِّخ العنف، إن إنهاء القوانين المعادية لحريات الإنسان خطوة أخرى على الطريق، إن التخلي عن منهج التبعية ومعاينة مشروع التحرر، إجراءات تعيدنا من جديد إلى البداية الصحيحة.

لقد ساعد نظام متخلف ضد أمانى الأمة، هذه الخلايا على الانتشار والنمو، والذي سيقضي عليها نظام آخر، يقف

مع التّقدم، ويناصر حق الوطن، ويؤمن بحق أفرادّه في
الحرية والمساواة.

رسالة هذا الرجل

تصدّى د. زكي نجيب محمود بشجاعة شديدة، لموجة التغيب العقلي. عمل بمفرده ومن خلال نشر المقالات والدراسات وإلقاء المحاضرات على تأكيد قيمة العقل. هذا الموقف المتواضع للغاية استفز جماعات التكفير، فأطلقت سهامها الجارحة تنال من الرجل، وتستعدي عليه الرأي العام.

والمثير في الأمر، أن زكي نجيب محمود كان في نظر أبناء جيلنا، شخصية معطلة للتقدم! كانت هناك ملاحظات منهجية على أفكاره، ودوائر معينة على مجمل فلسفته، وكان لوقوفه موقفاً منحازاً لقضية الشعر القديم، ورفضه للتجديد، ووقوفه بجانب "العقاد" عوامل وضعته بشكل آلي، ضمن التيارات التقليدية غير المتحمسة للتطور والتغيير. وكان زكي نجيب محمود، محوراً لنقاش حاد، دار في ساحات الجامعات، وعلى صفحات الكتب والجرائد والمجلات. كان يُعدُّ في فكر الستينيات، شخصية تتمسك

بالمناهج الوضعي البراجماتي، وليد الفكر العملي الأمريكي. وكان زكي نجيب محمود، ولا زال لا يخفي اعتناقه هذا المذهب. يرى أن هذا المذهب أكثر تعبيراً عن فكر الإنسان، وعن العلم، وأن استعماله هذه الطريقة أسلم الأساليب لتجنب الخطأ، ولتلافي الوقوع في البلادة العقلية والحسية.

في السبعينيات تحول زكي نجيب محمود، الذي كنا نراه تقليدياً ومحافظاً، إلى مفكر، يحرس وعينا، يدافع بصلافة شديدة، عن قيم العقل. كان في الحقيقة يدافع عن هويتنا البشرية. إن ملكة العقل، هي التي تمنح الإنسان تفرده وتميزه. وأتصور أن الموجة العاتية، التي سادات حياتنا، ولا زالت تعاند من أجل استمرار سيطرتها، تهدف إلى سلب هذه الملكة، تهدف إلى تحويلنا إلى كائنات بدون عقل،؛ لذلك تشدد هجومها على كل ما يتعلق بالعقل سواء، كان تراثاً أو علماً.

إن تراث ابن رشد وابن سينا وغيرهما من أعلام الفكر الإسلامي يتعرض للهجوم لفصله عن مجمل التراث الإسلامي. يحاولون عزله عن الواقع، وطرده من حلبة الفكر الإسلامي.

انبرى د. زكي نجيب محمود، يدافع عن العقل العربي،
نشر مقالات ودراسات، كلها ترفع من قيمة العقل وتنادي
للأخذ به كوسيلة نافعة مفيدة.

هذا الموقف البسيط من مفكر في حجم زكي نجيب
محمود عرضه للدخول في معارك حادة ضارية. فقد أطلقوا
عليه حملات سوداء هدفها الوحيد قتل هذا الصوت وإجباره
على الصمت. لكن الرجل لم يصمت ولم يخف، ولم يدخل
جحره، ولم يبحث عن وظيفة تبعده عن المشاكل
والاضطراب، ووجع الدماغ. لقد تصدى لهم، عبر الصحف،
التي كان يكتب فيها، بين خطيئة أن تتخلى الأمة عن عقلها،
أن تتركه، وتحل الخرافة بدلاً منه، لتكون مسئولة عن
صياغة حياتها، وتحديد وجهتها وطريقها.

تحوّل الرجل العجوز، الذي تعدى الثمانين، إلى شاب
في منتهى الحيوية، وقف وحده ينشر أفكاراً جريئة في هذا
الزمن نقول إننا مطالبون بالتمسك بعقلنا وتراثنا العقلي،
وإن علينا التمسك بالعلم وروح العصر، وإننا ملزمون بعقد
اتفاقية عصرية تحل معادلة الأصالة والمعاصرة في إطار

جيد خلّاق لا تصفي الحاضر لحساب الماضي، ولا تبيع الماضي، من أجل المستقبل.

وقف د. زكي، يحاور هؤلاء. والحقيقة لم يكن في الأمر حوار من أي نوع. وقف الرجل يتلقى أكوام الحجارة التي انهالت عليه، والتي اتهمته بأشياء كثيرة.

إصرار زكي نجيب محمود على الصمود والتصدي. فتح ثقبًا في الجدار. بيّن أنه يمكن مواجهة هذه التيارات. يمكن قول كلمة الحق، بدون خوف منهم، ولا رهبة من طلقات مدافعهم الرشاشة.

هذا الموقف شجّع أسماء من عينة فؤاد زكريا، وفرج فودة، وحسين أحمد أمين على قول كلمتهم في هذا الزمن الصعب.

أصبح هناك نوع من الجبهة الفكرية العريضة تضم أصواتًا مختلفة. تختلف في أمور عديدة، لكنها تتفق على خط عريض هو حرية الفكر، وحق الأفراد في التفكير بدون خوف أو إرهاب. هذه الركيزة الأساسية هي محور هذا الاتجاه. تأكيد هذا المعنى. هو القضية الجوهرية. فلنختلف أو نتفق، لكن المهم أن نقف جميعًا نحرس قيم الحوار والجدل،

وندعم حق الجميع في التفكير بحرية، وممارسة أشكال التعبير المختلفة، دون تسلط أو قمع من سلطة، أو جماعة تفرض نفسها كوصية على المجتمع تحدد ما هو الحلال، وما هو الحرام؟

اختراق زكي نجيب محمود للظروف الفكرية الدائنة. خطوة جيدة، استنفرت كافة خلايا المقاومة في الجسد الفكري، الرافض لأشكال الهيمنة والقمع.

ورغم أن أفكار زكي نجيب محمود الأساسية، بها سلبيات عديدة، ولا يوافقها أحد عليها، إلا أن مسألة وقوفه للدفاع عن حرية التفكير، نقطة إيجابية تؤكد رأينا القائل بأن دعم الأمور السياسية هو المطلب الملح الآن. بمعنى أن الجميع مطالب مهما كان موقعه السياسي والفكري، بدعم المبادئ الأولية في حق الأفراد في ممارسة حرياتهم والتعبير عن أفكارهم بعيداً عن يد البطش والتنكيل، سواء مارسته حكومات، أو جماعات أو هيئات، تدعي حق الوصاية، وحق الولاية على شئون المجتمع.

هذه الأفكار الليبرالية البسيطة. وقف زكي نجيب محمود يدافع عنها؛ لذلك حاز على إعجابنا وتقديرنا في هذا

المضمار، رغم خلافنا السياسي الجذري مع أطروحاته وأفكاره. لكن القضية الجوهرية، التي يقف فيها معنا، هو تصديه بشجاعة وبقوة للزحف الشيطاني، الذي يسعى لسلب عقلنا منا، وتحويلنا إلى قطيع لا يفكر ولا يناقش.

إن واحدًا من جيل الرواد، الذين غرسوا المبادئ المستتيرة، وقف في صلابة يدافع عن حق الجميع في ممارسة التفكير العقلي. وكنا نتصور أن هذه القضية انتهينا منها منذ زمن؛ لذلك كنا في الستينيات نهاجم زكي نجيب محمود، وننقد أفكاره. لكن بما أن مسيرة المجتمع العربي ككل عادت إلى الوراء فإن زكي نجيب محمود يبرز في حياتنا هذه الأيام كفارس من فرسان العصر، يمسك بسيف الفكر البتار يحارب في معركة، تصورنا أننا عبرناها، لكننا فوجئنا جميعًا بها. وفي الوقت الذي عمّت فيه البعض موجة "الدروشة" وسقط البعض الآخر في حلقات الذكر وقف زكي نجيب محمود يمارس مهمة المفكر الحقيقية في إيقاظ النائمين، وصدّ عنهم خطر "التنين" الزاحف بقوة وعنف الذي لن تلجم حركته وجموحه إلا كلمة السر وهي العودة إلى "العقل".

حجارة الانتفاضة على معسكر التخلف

خرجت المرأة الفلسطينية في الأرض المحتلة، تقاوم قبضة المحتل الهمجي. نقلت إلينا كاميرات التلفزيون لقطات بليغة، شاهدنا من خلالها المرأة العربية، تأخذ مكانها داخل بؤرة النضال اليومي.

وهذا الخروج للمرأة العربية، يسقط كل الدعاوى المتخلفة، تلك الأفكار الخبيثة التي تسلت إلينا في مراحل ما قبل الانتفاضة، والتي كان هدفها ولا زال سيطرة الفكر المضاد للتقدم، بكل صورته وأشكاله.

المرأة العربية، إذن ليست عورة، وليست ناقصة عقل أو دين، وليست أقل بحال من الأحوال من الرجل.

وأعتقد أن المرأة الفلسطينية، أخذت المبادرة، وخرجت، بشكل رائع للتصدي مع الرجال والشباب، لهجمة المحتل، وتعلن أنها جزء من فعل المقاومة الرائع والعظيم، الذي ينتشلنا من حقبة التخلف، ويفتح أمامنا أبواب المستقبل.

إن المرأة العربية، ظلت دائماً جزءاً من عمليات المقاومة. كانت تحتل موقعها المتقدم للدفاع عن الإنجازات الوطنية والأفكار التقدمية.

هكذا كانت هدى شعراوي، الصوت النسائي المجلج، الذي خرج يتصدى لهجمة الاستعمار البريطاني أثناء هبة ١٩١٩ في مصر .

وكان خروج هدى شعراوي، ضمن القوى الوطنية الرافضة للاحتلال، الاستجابة القوية والفورية لأفكار عصر النهضة، تلك التي بثها رجال في مكانة قاسم أمين وزملائه، المتتورين العرب، الذين رفعوا عالياً راية التنوير والتقدم، وعرفوا ببصيرتهم أن المرأة جزء من مسيرة التنوير؛ لذلك إخراجها من كهف التخلف، هي أولى مهام أي فعل تحرري، يسعى إلى نقل المجتمع خطوة إلى الأمام نحو كسر قيوده وأغلاله.

وأيام عصر النهضة، ومحاربة الاستعمار، ومواجهته، لم يسأل أحد نفسه، إذا كان صوت المرأة المطالب باستقلال الوطن عورة! لكن هذا السؤال البغيض طرحته تيارات التخلف والردة، وعندما انكسرت تيارات النهضة، وعندما

هجمت رياح النكسة السوداء، هنا خرجت من معطف الهزيمة الأفكار والفتاوى الخبيثة، التي تريد تكبيل المجتمع، فتحدثت عن تفسيرات غبية، هدفها الأساسي، اعتقال المرأة في البيت. ليس من أجل صون الشرف والفضيلة، وإنما من أجل تعميق التبعية وترسيخ الذل.

في أيام بعد النكسة، سادت تيارات تخريبية غذاها إعلام غريب على المنطقة، روج لأفكار مدمرة عن أن خروج المرأة للعمل، يعد هدمًا لأسس العقيدة وخروجًا عن سيرة السلف الصالح.

وتناسى هؤلاء عن عمد، صورًا إسلامية مشرقة، وضحت دور المرأة في بناء لبنات المجتمع الجديد، الذي كان هدفه إعطاء الحرية للجميع، وإنهاء عمليات التمييز والعنصرية والعبودية بمختلف أشكالها.

والمثير في الأمر، إن بعض من ليس لديهم أي حياء، ما زالوا يطرحون هذا الفكر المتخلف عبر صحفهم الصفراء، الساعية لترويج الدعاوى الهابطة، عن أن المرأة عورة، ووجودها في المجتمع نقیصة، وخروجها لمعترك الحياة، مسألة ضد الفضيلة، والأخلاق.

ولقد قرأت تحقيقاً أصفر في مجلة أشد اصفراراً تحمل
كذباً وتلفيقاً تحت راية واسم الإسلام. يركّز هذا الغثاء على
معنى أن المرأة التي لا تعمل أكثر استقراراً من تلك التي
تخوض غمار الحياة اليومية. والتحقيق يهدف بطريقة ملتوية
أن يقول لنا إن العبيد سعداء، وأكثر طمأنينة من الأحرار!
واعتقد أن هذا الكذب والتزييف، باسم العقيدة، لا يصمد
الآن أمام الأنباء والصور التي تبثها أجهزة الإعلام، وتقلها
وكالات الأخبار.

إن المرأة الفلسطينية، خرجت من المنزل، ليس لأن
الجلوس فيه فضيلة، وإنما لأن المكوث بداخله بينما الوطن
يسرق ويهان، جريمة أخلاقية قبل أن تكون وطنية.

إن المرأة الفلسطينية التي ترمي الحجارة على القوات
الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، تمارس أشرف مهمة،
وتفعل فعلاً عظيمساً، تكمن أهميته في أنه يسجل سقوط الفكر
المتخلف، ويفتح الباب أمام مرحلة جديدة لن يجد فيها
أصحاب الفتاوى الغريبة والملفقة أي متسع لتخريبهم المتعمد،
وإصرارهم على وضع القنابل الفسفورية داخل أجهزة وعينا.

إن الانتفاضة الفلسطينية، التي هي ثورة بكل المعايير والمفاهيم، هي نقلة، بل طفرة عظيمة على مستوى حريات الشعب العربي، وهذه الثورة، قدمت المرأة العربية في إطارها الصحيح، ليس باعتبارها كائناً يفرز الفتنة والخطيئة وإنما باعتبارها مواطنة حرة، تعرف أن دورها في مقاومة العدو يأتي في الطليعة، وأن وظيفتها في تحديث المجتمع مطلوبة وضرورية.

ونحن، الذين عانينا أشد المعاناة من سيادة موجة فقهاء التخلف والعبودية، نرى أن هناك مرحلة جديدة تدشنها المرأة الفلسطينية الممسكة بالحجارة، والتي تلقىها على قوات بني صهيون، وتلقيها في نفس الوقت على أنصار التخلف، وفقهائه وجهاز إعلامه الأصفر.

أسباب الأزمة

بثّ التلفزيون البريطاني منذ فترة حلقات تاريخية وثائقية بعنوان "نهاية الإمبراطورية" تركز على مفهوم نقدي، يتناول الأيام الأخيرة للوجود البريطاني في مستعمرات الإمبراطورية البريطانية. كانت الحلقات عبارة عن نقد لسياسات بريطانيا في إدارة المستعمرات، أدانت الفكر الاستعماري التقليدي، واعتبرته مسئولاً لحد كبير عن المعضلات السياسية والاقتصادية التي تواجه العالم حالياً.

هذه الحلقات، وجدت ترحيباً كبيراً من الدوائر الفكرية في العالم الغربي وبلدان العالم الثالث على وجه الخصوص؛ لأنها كشفت عن حالة نضج، فكلما نضج العقل السياسي، كلما استطاع نقد ذاته، وبيان أخطائه وعيوبه. وهذا المسلسل الوثائقي كان يترجم حالة من حالات النمو داخل الفكر البريطاني، الذي وصل إلى مرحلة تمكنه من النظر إلى الماضي، بصورة محايدة نقدية، تكشف الممارسات الخاطئة وتوضح السياسات المراهقة الصبائية، والتأميرية.

وقد وكب هذه الحالة من حالات الوعي الفكري مسلسل درامي بريطاني، حقق شهرة كبيرة اسمه "جوهرة التاج" كان يتعرض لفترة الاستعمار البريطاني للهند. يستند المسلسل على حقائق تاريخية، لكن كأى عمل درامي، جسّد هذه الحقائق في إطار العلاقات الإنسانية، صوّرها من خلال شخصيات وأحداث، فجاء المسلسل، يؤكد شجاعة أخرى في النظر إلى التاريخ بعيون ناضجة، تنتظر للأمور في إطار إنساني وليس من خلال المنظار الاستعماري الفج.

هذا المسلسل، بيّن المستعمرين البريطانيين في صورتهم الحقيقية، كشف معادن الرجال، رسم صورة للمستعمر التقليدي الذي ذهب يستعبد شعوبًا أخرى فمارس كافة أشكال القمع والتعذيب والتتكيل، واكب هذا المسلسل فيلم "غاندي" البريطاني الذي ظل مخرجه سير ريتشارد اتتبره، يعكف على تجهيزه مدة عشرين عامًا. ورغم تقليدية الفيلم من الناحية الفنية، إلا أنه جاء يكمل الصورة البشعة لفترة استعمار الهند، ويكشف من خلال الإطار الفني، نوعية الغباء الاستعماري والآثار المدمرة، التي نتجت عن سيادة هذا الأسلوب على مسيرة البشر.

هذه الصحوة، تعكس عودة الوعي للضمير البريطاني،
تبين أن هناك تيارات موضوعية في ساحات الفكر السياسي،
وفي مجالات الفن والأدب. تنظر بشكل محايد للماضي،
تقيّمه من خلال أطر التاريخ، وتحلله من خلال مدارس الفكر
الإنساني المختلفة.

ومن يتابع البرامج الوثائقية التي تتناوب محطات
التلفزيون البريطاني على بثّها يلاحظ نمو تيار الموضوعية
الذي ينقد سياسات أحقاب معينة، ويمارس نقده لزعامات
كبيرة أثرت في تركيبة الحياة البريطانية مثل تشرشل،
وماكميلان، وهارولد ويلسون وغيرهم من الزعامات
البريطانية التي تخضع مثل غيرها لمعايير التقييم والتحليل،
فلا توجد سياسة فوق النقد، ولا يوجد زعيم مطلق لا يتأتى
الخطأ من خلفه، أو من أمامه.

هذا المنهج الموضوعي، ما زال يتعثر في حياتنا
العربية؛ لذلك لا توجد دراسات جادة، ولا قضايا قادرة على
تناول الماضي أو الحاضر، لأن هناك حالة من الخوف
والإرهاب تسيطر على الجميع، فلا يستطيع مفكر محايد نقد
فترة من التاريخ، بطريقة موضوعية؛ لأنه لو قال الحقيقة،

فإنه سيتعرض للهجوم المكثف من جماعات المصالح المختلفة، التي تكره أن يقترب أحد من زعيمها أو من تاريخه، ومن ممارساته السياسية وأفكاره المختلفة.

حتى الأحزاب ذات التاريخ الليبرالي مستها حالة من الجمود والتخلف، أجبرتها على معاداة المنهج الموضوعي والرؤية العلمية للتاريخ.

لقد كتب باحث تاريخي متخصص اسمه عبد الخالق لاشين، دراسة أكاديمية، عن مؤسس حزب الوفد سعد زغلول. هذه الدراسة فيها قراءة اجتهدية لمذكرات الرجل، وفيها استنتاج معين، لشخصية سعد وأفكاره وتصوره بعيدًا عن هالة الزعامة. وتقدمه لنا بشكل مختلف تمامًا، عن ذلك الذي تتعمد أدبيات "الوفد" أن تقدمه لنا.

دراسة "لاشين" رغم مرور سنوات عليها، إلا أن هناك حالة حرب دائمة ضدها، ومحاولات تشهير مستمرة ضد أسلوبها. ويمارس حزب الوفد الحالي طريقة غير علمية، تحاول الرد على "لاشين" بمنطق غير علمي، تبين سعد زغلول باعتباره الزعيم الذي لم يخطئ أبدًا ولم يقع في أي تناقض لا شخصي ولا سياسي.

هذه الطريقة لا تتماشى مع أي سياسة علمية، ولا تتفق مع المنهج الليبرالي. إنها محاولة لتأليه الزعماء والسياسيين، وإرهاب متعمد لإثارة الخوف. واستمرار هذه الظاهرة غير صحي، لا على مسار التاريخ، ولا على مجريات الحاضر، ولا المستقبل؛ لأنها تريد فرض أشياء محددة، وتريد قمع كل من يحاول استعمال عقله، وممارسة المنهج النقدي، الذي يتحاور مع التاريخ باعتباره مادة قابلة للتقييم وإعادة النظر، من أجل صياغتها بطريقة تقيد في قراءة الحاضر، وصياغة المستقبل.

إن العقل الغربي يطور نفسه؛ لأنه يفتح باب النقد على مصراعيه، والعقل العربي دائماً في أزمة، لأن نوافذ الحرية مغلقة تماماً، ليس بسبب تعنت الحكومات دائماً، وإنما أحياناً كثيرة بسبب تعنتنا نحن وإصرارنا على ممارسة الفكر الديكتاتوري، في الوقت الذي نصرخ فيه عاليًا بحروف الديمقراطية.

موسم الحوار

اعتادت الأحزاب البريطانية حاکمة ومعارضة، أن تعقد مؤتمراتها العامة قبل بدء الدورة البرلمانية، يشهد نهاية فصل الصيف، وبداية حلول الخريف المؤتمرات الموسعة للأحزاب، يتم خلالها عرض البرامج الجديدة، وانتخاب قياداتها السياسية، وفحص الأفكار، وتوسيع قاعدة المشاركة الحزبية، مع التركيز على فتح باب الحوار لنقد السياسات الخارجية والمحلية.

ومن خلال هذه المؤتمرات، تظهر القيادات الشابة، ويتعرف الناس على الفكر الشاب، الذي دائماً يدشن وجوده بنقد القيادات القديمة والتدديد بسياساتها وفضح أفكارها.

وهذه اللقاءات سمة ديمقراطية تميز الحياة البريطانية، وهي تعقد في العلن ويتابعها كل مهتم بالسياسة أو بالأحوال العامة، وتلعب أجهزة الإعلام دوراً نشطاً في نقل صورة حية واقعية لما يجري داخل هذه المؤتمرات، فالمحطات التلفزيونية ترصد المجموعات المعارضة داخل بنية

الأحزاب، تمنحها مساحة كبيرة للتحدث عن نفسها وبرامجها وأفكارها المعارضة.

ولا تقتصر التغطية الإعلامية على الحزب الحاكم، وإنما هي تركز بالذات على الأحزاب المعارضة، فهي تمنح الجميع مساحات متساوية، فلا فضل لحكومي على معارض فالكل أمام الرأي العام سواء.

والمتابع لهذه المؤتمرات يرى أنها تمثل حيوية كبيرة، فخلال شهر تقريباً، يتمكن المرء من معرفة الجديد في برامج حزب المحافظين الحاكم، ويمكن رصد المعركة العنيفة داخل حزب العمال المعارض، الذي يحاول النهوض بعد هزيمة انتخابية ساحقة. ويرى المتابع لهذه المؤتمرات حركة الجدل داخل الكتلة الحزبية التي يمثلها تجمع الأحرار، والحزب الاشتراكي الديمقراطي.

هذه المؤتمرات تبين نوعية الحوار الذي سيحدث تحت قبة البرلمان البريطاني. وطبيعة الأفكار التي ستصطدم سواء تلك القادمة من الحكومة أو من المعارضة.

ويستطيع المواطن البريطاني المهتم بالحياة السياسية، أن يعرف مقدماً، ما هي القوانين والتشريعات التي ستطرحها

الحكومة في الدور البرلمانية القادمة، ويستطيع أيضًا معرفة خطط المعارضة للتصدي لها وتقنيدها وبيان عيوبها وأخطائها.

هذه المؤتمرات الحزبية العامة تمثل حيوية كبيرة في المسار الديمقراطي، وهي بدون شك تمنح المواطن فرصة المشاركة، سواءً عن طريق ممثليه فيها أو عن طريق متابعته لما يحدث من خلال ما تنقله أجهزة الإذاعة والتلفزيون والصحف القومية.

هذه العلانية سمة ممتازة في السياسات الديمقراطية، فكل شيء تقريبًا معروف ومحدد، فلا توجد قوانين سرية ولا تشريعات مفاجئة، ولا توجد سياسات خفية، يجري تجهيزها في الخفاء.

هذه المسألة تكسب الحياة السياسية وضعية جيدة وحيوية، نعاني منها نحن سكان الأقاليم المعادية للنهج الديمقراطي شكلاً وموضوعاً. وحتى بعض البيئات التي بدأت تسلك الطريق البرلماني، ما زالت تمارس أساليب لا تتوافق مع قواعد الممارسة البرلمانية، فهناك تعميم على المعارضة وحصارها وإجهاض حركتها.

كما أن مؤتمراتها تعقد بطريقة سرية لا يسمع عنها مخلوق، تتجاهلها وسائل الإعلام الحكومية وتحاول تشويه ما يدور في جلساتها، وتتقل للمواطن حقائق غريبة مشوهة، لا تساعد على نقل صورة واضحة حقيقية تراعي الالتزام بقواعد المنطق والصدق.

ما يحدث في بريطانيا هذه الأيام يناقض هذه الصورة، التي نلمحها في واقعنا، والتي تحاول فتح الباب أمام الحل الديمقراطي بأساليب الديكتاتورية والانغلاق، إن الحزب الحاكم لا يتدخل في مسار أجهزة الإعلام، فهي مستقلة تنقل للمواطن ما يحدث داخل حزب العمال بدون تلوين، أو تلفيق أية أخبار تصب في جيب الحزب الحاكم. إن نيل كينوك زعيم المعارضة يحصل على نفس المساحة، التي تحصل عليها السيدة تاتشر لمخاطبة الرأي العام. وهو يتمتع بنفس الامتيازات التي تحصل عليها رئيسة الحكومة. ويدخلان معاً قاعة المجلس، فالحكومة والمعارضة وجودهما واحد، فهما يمثلان فلسفة النظام.

إن المؤتمرات العامة للأحزاب البريطانية تبين لنا قواعد الحياة الديمقراطية السليمة فالنظام يعمل على تنمية

الممارسة الكاملة، ويحرص على أن يطرح الجميع أفكاره خلال الأطر الشرعية. هذه العلانية تجهض أية أفكار متطرفة وتسلب من أي حزب سري مشروعية العمل تحت الأرض.

إن الحل الديمقراطي، يقدم للمجتمع صيغة جيدة مرنة قادرة على استيعاب الجميع، والمؤتمرات الحزبية تحدد وحدها من الذي سيصعد من الأفكار والقوى السياسية ليمثل قواعد الحزب، ومن الذي سيخرج من برامج وممارسات هذا الحزب سواء كان في الحكم أو المعارضة. إن من يتأمل هذا الموسم السياسي الذي يعقد كل عام قبل بداية الانعقاد البرلماني، يؤمن بأن النظرية الديمقراطية هي أنبل ما أفرزه الفكر الإنساني حتى الآن. وهي ليست نظرية غربية كما يحاول الجهلة القول. وإنما هي نابعة من مسيرة الفكر الإنساني ساهمت في صياغتها أجيال عديدة من البشر، وهي تملك حل مشكلات بيئات عديدة ما زالت تصرّ على السباحة ضد الحل الديمقراطي بدعوى أنه لا يتناسب مع أوضاعنا الخاصة. ولا مع ظروفنا ولا مع تقاليدنا.

العقل والديمقراطية

معنى غياب العقل من حياتنا هو بروز الاتجاهات غير العاقلة، وسيطرة الاتجاهات غير العلمية، التي لا تحب التخطيط، ولا التفكير ولا التدبير. ولا تعني محاربة الاتجاهات العقلية، إلا شيئاً واحداً، هو هيمنة السياسات الأحادية، غير الديمقراطية؛ لأن معنى العقل، هو الجدل والمنطق، وغيابه، يعني سيطرة القمع والفكرة الشمولية الواحدة.

وعندما نتحدث عن غياب العقل في حياتنا، فليس معنى ذلك أننا نتحدث عن قضايا ثقافية، وإنما حقيقة الأمر أننا نتحدث في لب السياسة. ومن يتأمل الحركة السياسية عبر التاريخ، ومن يراجع تلك الاتجاهات الكائنة في الماضي القريب أو الحاضر المعاش يستطيع هذا المتأمل. وهذا المراجع رصد أي نظام سياسي قديم كان أم حديث، نتيجة موقفه من العقل ومن تراثه وتقاليده وأصوله.

إن النظام الذي يقف مع العقل، هو نظام يرحب بالتقدم، وينادي بتحكيم المنطق في كل الأمور، معنى ذلك أنه نظام يطالب بالشورى، لأن الشورى، مظهر للتعدد ولحرية الأفكار معنى ذلك أن هذا النظام يؤمن بالعلم، يطالب بهيمته وسيادته ضد الخرافة وكل مظاهر البدع والنحل الضالة.

لقد جاء الإسلام مثلاً يطالب بتأييد العقل، وتدعو آياته الكريمة إلى استعمال العقل كوسيلة مهمة في معرفة الصالح من الطالح. والقرآن الكريم يحض على استعمال المنطق وإعمال الفكر ودائماً تحت آياته البينات وتدعو إلى التأمل والتفكير.

والإسلام دين، يعتمد على المنطق في تسلسل آياته وتدرج أحكامه وقد حرك الإسلام عقول أهل قريش، وجهها نحو مناطق جديدة، ساحات مختلفة. وعندما استعمل المسلمون عقولهم، تقدمت دولتهم وسيطرت، وشيّد المسلمون حضارة زاهية قائمة على قيم المنطق؛ لذلك خرج من منطق الحضارة الإسلامية علماء ومفكرون في مختلف الفروع.

جاء الإسلام بقيم جديدة، وبقوة دفع حركت الجمود، وكسرت الحواجز القديمة، هدمت الأصنام، وأقامت ديناً قوياً،

وتمكن هذا الدين من تشكيل حياة متقدمة راقية تعتمد على الشورى وترتكز على حريات الأفراد. وقد تمكنت العقيدة من تشجيع الناس على التفكير الحر، على استعمال عقولهم؛ لذلك ازدهرت العلوم وتقدمت الآداب وازدهرت الفلسفة، وتألفت علوم المنطق.

حدث هذا عندما اعتمدت الحضارة الإسلامية على العقل كأداة من أدوات المعرفة. عندما كان النظام السياسي الإسلامي يشجع لغة العقل كان يشجع في الوقت ذاته الحريات والشورى وتعدد الآراء. كان الاجتهاد سمة الحياة العامة وكانت الحكومات التي تتولى في ظل إطار الدولة الإسلامية تؤمن بأن دورها ليس إلا إطاراً منظماً للحياة المدنية بمختلف صورها القائمة على قوانين العقل والمواد التي تحبذ الاجتهاد الفكري وتسمح للمعارضين بحق التواجد الأصيل.

عندما تعرض هذا النمط للانتكاس بفعل الردة السياسية، وعوامل التآكل الداخلي برزت النظم الغربية الدخيلة على فكر الإسلام الأصيل؛ لذلك أصبح الهجوم على العقل موضحة

وأصبحت مهاجمة المنطق قانون الأنظمة التي تعاقبت تحكم المسلمين بدون حق وبمنطق القوة وحده.

في ظل هذه الأوضاع، انهار صرح الحضارة، وبدأت عوامل الهدم تعمل في الداخل؛ لذلك كان عماد هذه الأنظمة القيم المعادية للعقل، لذلك عملت على اضطهاد العلماء وإجبارهم على الرحيل. وبرز في خلال هذا المناخ الأفكار الدخيلة. برزت الشعوذة، وظهر الدجل وسيطرت البدع، وغابت روح العلم، وضاعت قيم المنطق، واختفت تقاليد الشورى وحرية الرأي وفضيلة الاجتهاد.

وعندما صمت العلماء، ظهر الدجالون والمشعوذون والحواة؛ لذلك ضمرت الدولة القوية وتلاشت أضواء التقدم وظهرت على السطح دويلات تمارس القمع الفكري بمختلف صوره، وعانى العلماء بشكل خاص من هذا الوضع. وأجبرت السلطات المفكرين على حرق كتبهم والتخلي عن التمسك بالعقل، وظهرت تقاليع تهاجم العقل وفرمانات تعتبر المنطق زندقة.

عصر الظلام الذي خيم على المنطقة، سببه أن الأمة تخلت عن عقلها وأتصور أن عصر النهضة والإحياء كان

هو عودة مرة أخرى للقيم التي اندثرت في عصور الظلام
وفي فترات الانهيار.

وعندما بدأت الأمة تستعيد عقلها الضائع بدأت تفتح
مرة أخرى المدارس والجامعات. وبدأت تقيم معاهد العلم
وتشجع الاختلاف والجدل والحوار.

والمتابع للكتب التي يصدرها علماء مجتهدون مثل
محمد عمارة مثلاً يلاحظ أن الرجل ينشر حلقات التراث
العقلية لإثبات شيء واحد هو الأمة تقدمت عندما كانت
تتمسك بالعقل وتخلفت عندما تخلت عنه.

ومجموعات كتب الاستنارة التي تصدر تباعاً تريد
محاربة هؤلاء الذين يريدون مرة أخرى طمس معالم النهضة
العقلية التي بدأت مع جيل المتتورين العرب هؤلاء الذين
تمكنوا من توجيه حركتنا نحو العقل مرة أخرى، ودفعوا من
أجل ذلك ضريبة باهظة تمثلت في الطعن في أفكارهم
والتطاول على معتقداتهم.

واعتقد أن المتتورين العرب كانوا يتركزهم على إحياء
المنهج العقلي لا يعنون بأمر الثقافة والفكر المجرد لذاتهما،
وإنما كان مهمهم الأساسي هو الإصلاح السياسي،

فرجل مثل طه حسين كان يريد تغيير النهج السياسي بالكامل عن طريق كسر هيمنة النخبة لعلميات التعليم، كان هدفه توسيع رقعة المشاركة، وكان يسعى من وراء ذلك إلى إجبار النظام على الأخذ بالنهج الديمقراطي.

الحديث إذن عن العقل وأهميته في حياتنا لا يعني التركيز على أمر فكري مجرد، أو ثقافي محدد وإنما يعني الموضوع التركيز على قضية سياسية في المقام الأول.

إننا نريد أنظمة ديمقراطية تحكم بالتعدد، وتؤمن بالشورى، ولا تصدر الحريات، ولا تقمع حركة التفكير. هذه الأنظمة لا يمكن أن تقام على قاعدة فكرية تعادي العقل وتحارب المنطق وتضاد العلم وإنما وجودها بهذا الشكل السياسي المتقدم يفترض أنها تحبذ استعمال العقل لأنه ضد الخرافة؛ لأنها تريد حكم أمة تتمسك بعقلها ولا تحكم فيها البدع والشعوذة التي تستعيد وجودها من الجهل والتخلف.

المنقذ من الهلاك

عندما يسود الظلام، يصبح كل شيء مباحًا. ففي
مراحل الهزيمة والضياع، يفقد الناس البوصلة التي تحدد
المسار، تختفي المعايير، التي تحدد الحق من الباطل، الخطأ
من الصواب.

أتصور أننا منذ سنوات، نعيش في "هوجة"، دوامة،
يختلط فيها الحابل بالنابل، ضاعت منا الخرائط، التي تبين
الطريق وتوضحه، في غابة مظلمة كثيفة الأشجار، تكثر فيها
السباع والثعالب، وكل الحيوانات المتوحشة. في هذا الجو
القاتم، يصبح التمسك بالعقل جنونًا، والتعلق بمشروع النهضة
تطرفًا، وخروجًا على قيم القبيلة.

إننا منذ انهيار الحلم الوطني بفعل النكسة المريرة التي
حدثت سنة ١٩٦٧، نرى ونسمع أشياء غريبة، في منتهى
العجب. نسمع عن أمور لا يمكن تصديقها، ونتابع مسلسلات
مضحكة مبكية في الوقت نفسه.

ولولا هذه "الدوامة"، وحالة "الهديان" التي نمر بها، ما استطاع بعض الأطفال المتخلفين ذهنيًا، مهاجمة رموز النهضة الفكرية، أمثال الأفغاني، محمد عبده، فجو الهزيمة الذي لا يزال مهيمًا منذ عشرين عامًا يسمح لبعض مشوهي هذه الحقبة، بالتهجم على جيل الرواد، الذي سعى بدأب وإخلاص لفتح ثغرة في نفق التخلف، نطل منها على روح العصر الحديث.

جماعات التكفير، المنتشرة على الساحة، التي تصدر الكتب وتسود صفحات المجلات والجرائد، تمارس حملة شرسة ضد مرحلة النهضة، فما دامت الهزيمة العسكرية، قد حدثت بهذا الشكل، فإن المسئول عنها هم زعماء التتوير والتحديث، وكافة الرموز، التي عملت على إدخال العلم والمنطق والانفتاح على العصر، إلى ربوعنا التي يرى هؤلاء، أنها لا بد أن تعيش تحت خط التخلف، فهذا قدرها ومصيرها! ومن لا يوافق على ذلك، فهو ضد التراث والقيم والعادات والتقاليد.

هذا الكلام ليس مبالغة، وإنما يقوله ناس مفروض فيهم أنهم مؤلفون، وباحثون ورجال فكر، وأهل عقيدة!

إن الهجوم على رفاة الطهطاوي مثلاً أصبح موضحة بعض الاتجاهات المتخلفة فكراً وسلوكاً. وسبب هذا الهجوم هو أن الرجل، عندما ذهب لفرنسا بأمر الوالي محمد علي انبهر بنظم التعليم الغربية، ونهج الحياة الديمقراطية. فعندما عاد إلى مصر، عمل جاهداً على نقل هذه التجارب والأساليب إلى حياتنا. ففتح مدرسة "الألسن" وترجم كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" يحكي عن إعجابه بالعلم وانبهاره بالنظام البرلماني.

ولأن الطهطاوي، كان بشير التقدم، وفارساً من فرسان المعرفة والتتوير؛ فإن الجماعات المظلمة، تنتقم منه الآن شر الانتقام، تسلط عليه بعض "الصبية" الصغار، لتأليف نشرات تطعن في الرجل، الذي أصبح في نظرهم أول عميل للغرب، عمل على إدخال لغته إلينا، بل ارتكب أكثر من ذلك، أنشأ مدارس خاصة للغات، وتمادى في عصيانه، فترجم كتباً تشيد بالأسلوب الديمقراطي، الذي يراه هؤلاء بدعة لا يجوز الاقتراب منها!

وإذا كان رفاة الطهطاوي، هدفاً مباشراً، للهجوم المكثف هذه الأيام على رموز التتوير، فإن أحمد لطفي السيد،

الملقَّب بأستاذ الجيل هو الهدف الثاني. كل جريمة الرجل، أنه أسس جامعة تعلَّم الطلاب المنطق والكيمياء والطب. تلك العلوم الغربية، المرفوضة من أهل المعرفة؛ لأنها تبعدنا عن التراث والعرف والتقاليد. إن هذا الكلام نقوله كتب تصدر ليل نهار. تنتشره مجلات وجرائد. يقال في محاضرات، وتنظم من أجله ندوات دولية يشرف عليها علماء وأساتذة، ورجال فكر وأهل عقيدة. ظروف النكسة تسمح بهذا "التخريف" فتلك أعراض حالة مرضية يمر بها فكر الوطن. فعندما يمرض الجسد، تطفح على جلده البثور. يظهر التقحيع واضحاً وجلياً.

هذه الحالة المرضية سببها ظروف النكسة، وعوامل الضغط المختلفة التي ألقت بنا في "التيه" فظهر بعض المشعوذين، والسحرة، ادعوا أن لديهم حلاً ومنقذاً من الضلال.

إن حل هؤلاء، ليس إلا وصفة للموت. طريقة للانتحار السريع، والصراع الحالي، هو نوع من المقاومة، رفض هذا العلاج الخطير، الذي يهدف لتقويض مشروع النهضة وتبني الهزيمة وتعميم فكرها على كل شيء.

إن الهجوم المكثف على فكرة الاستنارة، هدفه الوحيد
تمرير المشروع المظلم، الذي يسعى لإخضاع المنطقة
بالكامل لمنهج أسود مضاد للعلم والحرية، وكافة أشكال
التعبير الديمقراطي.

ونحن نتصور أن المشروع لن يمر، لسبب بسيط هو
أن أي أمة لا تختار عن وعي الموت والانتحار بإرادتها،
إنها لا تملك سوى معانقة التقدم أسلوبًا ومنهجًا وفكرًا. لكنها
في أوقات المحن تكون ضعيفة؛ لذلك يظهر على جلد
المريض علامات هذا الضعف وقسمات هذا المرض.

المجهول الغامض

الديمقراطية هي الحل، هي الروشنة الممكنة لكافة أمراض العالم الثالث. وهذا الحل، ليس يوتوبيا سياسية، ولا تحليلًا في فضاء العالم الرومانسي، وإنما هو استلزام موضوعي وعلمي، قائم على قراءة واعية للتاريخ، وفهم حقيقي للحاضر بمشكلاته المتفاقمة، وأمراضه المزمنة.

إن الأزمة الحالية، تدفع البعض منا بدافع اليأس وحده للانتحار المتعمد وذلك بالأخذ بالأساليب الإرهابية، يظن هؤلاء أن الإرهاب ممكن أن يغير، ويبدل، ويحدث ثورة وإصلاحًا .. هذا وهم، فالإرهاب ناتج عن اليأس، ويعبر عن الأزمة؛ لذلك لا يمكن أن يكون أبدًا منفذًا نحو الإصلاح.

وبالعوض، تدفعه الظروف الحالكة، التي نعيش بعض نتائجها إلى الغرق في الماضي، على أمل العثور على طريق النجاة والخلص، وهذا الاستغراق، يجعله يتصور أن الحل الممكن يتبلور، في الأخذ بسيرة السلف، وتطبيق قواعد أخلاقية صارمة تصلح الاعوجاج، وتدفع مسيرة المجتمع

نحو حياة أفضل. وتأمل برامج هذا الفريق، يكشف عن أفكار سياسية غاية في التخلف، فهي ترتدي أقنعة إيمانية أخلاقية، لكن جوهرها السياسي هو نظام ديكتاتوري شمولي، لا يسمح بتعدد الأفكار، ولا يمنح الحرية أية مساحة على الإطلاق.

هذه الاختيارات هي انتحار، تدفعنا إليه ظروف مركبة معقدة، لا تمكننا من الرؤية الصحيحة، ولا تسعفنا بالحلول المعقولة .. إننا نعيش في ربكة حقيقية، وفي فوضى فكرية عارمة اختلط فيها الحابل بالنابل، إننا في حلقة "دروشة" داخل غرفة حالكة السواد؛ لذلك لا نستطيع التمييز ولا الاختيار.

هذه الفوضى، مسئولة عن الأفكار الخاطئة التي نختارها بإرادة غير واعية. فحالة العمى السياسي والفكري، تجعلنا لا نميز بين الفاسد والصالح. إن البعض يدعم حلقات إرهابية، ضررها أكثر من نفعها وتدميرها مريع؛ لأنها ببساطة تنعش المناخ الأسود، حيث يتحول "المسدس" إلى الفیصل والحكم في كل شيء. نمو هذا الاتجاه خطر على واقع متشابك مثل واقعنا. إننا لسنا بحاجة لمثل هذه الأفكار، إننا نحتاج لسلك نهج مختلف يساعد على الاستقرار، وعلى

تبلور المؤسسات السياسية، ونحو منابر التعبير، وتبلور الهيئات التشريعية الدستورية.

وأتصور أن هذه المؤسسات قادرة إذا تمكنت من الثبات والاستقرار على حسم قضايا التغيير، وإحداث تحريك نحو تحقيق كافة المطالب، التي يطرحها دعاة التغيير السريع وحسم القضايا الوطنية والاجتماعية.

إن أي حركة سياسية، تتبنى العنف وسيلة للتعبير عن أفكارها السياسية، هي حركة مأزومة وتعيش ظروف الفشل والإحباط؛ لأن عنف المجموعات الصغيرة التي تطلق الرصاص في كل الاتجاهات، هو عنف إرهابي، وليس له أية علاقة بتغيير المجتمع، ولا فرض أية أفكار جديدة على السلطات الحاكمة.

إن دعم الاختيار الديمقراطي هو الحل. صحيح أن هذا الحل بطيء ونفسه طويل، إلا أنه مضمون على المدى البعيد. لذلك الحركة الوطنية في مصر مثلاً مطالبة بالعض بالنواجز على الاختيار الديمقراطي؛ لأنه البديل الحقيقي والممكن في ظل ظروفنا الحالية. ورغم كل التحليلات والتنظيرات، فإنه ليس من المطلوب استقزاز العناصر غير

الديمقراطية التي تريد هدم التجربة بالكامل، وطرح الحل العسكري كبديل وحيد لتصفية كافة المشكلات، وإنهاء مولد "الديمقراطية" بقرار وإنهاء كل مظاهرها بتحريك مفاجئ.

إن القضية الآن، ليست الوصول إلى الحكم، وإنما بناء المؤسسات الدستورية، نزع الحقوق المدنية، ترسيخ قيمة الحرية. دعم الهيئة التشريعية، الدعوة إلى بروز صحافة مستقلة، تبني حق الأفراد في إصدار الصحف، تحالف كل القوى الوطنية خلف مطالب تأكيد حقوق الإنسان التي تحميها من عسف السلطة وجبروتها وقوتها.

تلك هي المطالب الملحة الآن، وأتصور أن الظروف الحالية تمكننا من الاستمرار في تحقيقها، إن هناك ظروفًا متغيرة، وهامشاً لحرية التعبير، ورغبة في دعم التجربة؛ لذلك المطلوب حماية هذه المكاسب البسيطة من الفكر الإرهابي المأزوم، الذي يقوده بعض المغامرين وهواة إطلاق الرصاص، هؤلاء الأطفال الصغار الفاسدون، الذين لم تربهم لا حركة سياسية ناضجة ولا مناخ فكري، زرع في أدمغتهم الصغيرة الضيقة قيمة التغير الديمقراطي وعظمة حصاده في المستقبل.

إن المجموعات الصغيرة التي تتصور أن الإرهاب هو الحل، تقع في خطأ رهيب، وأتصور إنها مدفوعة ومطلوقة .. على الحركة الوطنية لتلويثها ولجرها لمستتقع "أسن" لا قرار له .. إن كل القوى التي لها مصلحة في الحل الديمقراطي مطالبة باستنكار كافة الاختيارات الإرهابية؛ لأنها لا تقدم حلاً وإنما تدفعنا إلى أزمة، لا يعلمه غيبها سوى الله وحده.

إننا مع التغير الذي يرفع راية الديمقراطية عالية، لقد جربنا حلولاً كثيرة، وعرفنا عن طريق التجربة، أن هذا الطريق هو الوحيد الآمن. ورغم أنه طويل وشاق، إلا أن المكافأة الحقيقية تظهر من خلال البناء، بناء المؤسسات، وبناء الأفراد.

ذلك هو الحل، وغير ذلك مراهقة وتعصب ومغامرة تدفع بنا إلى المجهول.

قراءة في التراكمات

عندما علم نجيب محفوظ، بحصوله على جائزة نوبل، أشاد بدور الأدباء والمفكرين، الذين سبقوه، وحفروا بإبداعهم واجتهاداتهم الفكرية الطريق للجيل التالي، الذي يُعدُّ نجيب محفوظ أبرز اسم في هذه الموجة، التي جاءت بعد جيل الرواد.

وقد ذكر نجيب محفوظ، أسماء توفيق الحكيم، وطه حسين، وعباس محمود العقاد. هذا الثلاث الفكري والأدبي، مسئول إلى حد كبير، عن مظاهر الإبداع الفكري، والحركات الأدبية، والتيارات الثقافية الحالية.

لقد ناضل طه حسين، مثلاً لكسر هيمنة الفكر الجامد. وفتح باجتهاداته الباب أمام حركة الفكر العربي. لقد حرر الرجل المفكرين من الخوف، وسعى خلال حياته لجعل العلم القيمة الأساسية في حياة الناس.

ولا يمكن فهم ما يجري حالياً على ساحتنا الفكرية، من دون قراءة جهد طه حسين الرائع، الذي خاض المعارك

الضارية والشرسة لفتح أبواب الجامعة أمام كل الناس بدون شروط اجتماعية صارمة، وبدون وضع ضوابط تمنع المتفوقين من أبناء الشعب دخول دور العلم وتحصيل المعرفة.

وقد دفع طه حسين، ثمن هذا الدور على شكل هجوم مكثف، قادته الجماعات التي لا تتفق مع الدور التثويري لعميد الأدب العربي. ويكفي مطالعة كل الإصدارات الحديثة التي تنشرها هذه الجماعات لقراءة وسائل الانتقام المختلفة التي تحاول النيل من دور طه حسين، وأفكاره وإثارة الشبهات حول فلسفة طه حسين الفكرية، واجتهاداته على ساحة النقد والأدب وإعادة تقييم التراث الشعري.

وقد تربى نجيب محفوظ في الجامعة المصرية، التي كانت إحدى ثمرات عمل طه حسين. وتلقى الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ، دروس الفلسفة والأدب، في كلية الآداب، التي كان طه حسين يرأس عمادتها في يوم ما. وعمل بجهد منقطع النظير، على تحويل هذه الكلية، نحو الدراسات النظرية العصرية في مجالات الأدب والفكر والفنون.

وقد سجّل نجيب محفوظ، أحوال الجامعة المصرية في الأربعينيات، من خلال روايته "القاهرة الجديدة". وقد رصد عبر شخصياته الأفكار العديدة التي كانت تتصارع داخل جدران الجامعة في هذه الحقبة.

وهذه الأفكار زرعها طه حسين، أثناء عمادته لكلية الآداب من ناحية، ورئاسته للجامعة المصرية.

ورغم أن طه حسين، بذل جهودًا طيبة في مجالات البحث الأكاديمي، وميادين النقد الأدبي وقراءات للتراث إلا أن دوره في مجال التعليم. هو الذي حافظ على استمرار مؤسسات التعليم الحديثة، تمارس دورها التثويري، داخل المجتمع العربي.

لذلك عندما يذكر نجيب اسم طه حسين لحظة سماعه لخبر فوزه بجائزة نوبل. وقوله إن طه حسين كان يستحق الحصول على هذه الجائزة قبله، لم يكن الروائي الكبير في لحظة مجاملة ذكية. إنما كان يؤكد حقيقة دور رائد أدبي وفكري واجتماعي. حَمَلَ أمانة حَمَلِ أفكار النهضة العربية، وغرسها داخل مؤسسات وأبنية المجتمع العربي.

ومن المؤكد أن نجيب محفوظ، نشأ على أرضية فكرية وأدبية مهّدت لها طه حسين، الذي عمل أثناء مشوار حياته على فتح نوافذ أدبنا العربي على مناهج النقد الحديثة. وحاول هو شخصياً تطبيق هذه الرؤية على ملامح الأدب الجاهلي، فحدثت ثورة رهيبة، هزّت المجتمع المحافظ، الذي كان من الصعب عليه قبول الرؤى الغربية الجديدة، وتطبيقها على التراث الأدبي العربي.

وقد نشأ نجيب محفوظ على أرضية الاستنارة الفكرية .. وهي التي مهّدها طه حسين، لتلقي الدفعة التالية من تراكمها الإبداع العربي. ويكفي النظر إلى دور ناقد مثل محمد مندور، تلميذ طه حسين، وهو من العناصر النقدية، التي رحبت بإنتاج نجيب محفوظ المبكر، وسار على هذا الدرب، أنور المعداوي، الناقد، الذي رصد ظهور أدب نجيب محفوظ ودعا إلى الترحيب به، وإفساح الساحة لإنتاجه.

ورغم أن طه حسين، كتب روايات ضخمة، مثل "دعاء الكروان" و"أديب"، إلا أن السيرة الذاتية التي أرّخ بها لحياته وأطلق عليها اسم "الأيام" هي التي استفاد منها نجيب محفوظ، في بناء هياكل بنائه الروائي الضخم.

ونعتقد أنه يمكن قيام دراسة مقارنة بين روايات نجيب محفوظ وروايات طه حسين. لمعرفة الدور الذي قام به نجيب محفوظ، لترميم شكل الرواية العربية وإعادة صياغتها على أسس حديثة، تستلهم التراث الغربي، لكنها تقيم علاقة متينة مع البيئة العربية بملامحها وتراثها.

ومن المؤكد، أن التمهيد الأدبي والنقدي والتراشي، الذي قام به طه حسين، ساعد على ولادة عملاق الرواية العربية وشيخها الجليل نجيب محفوظ. وأن يذكر الرجل طه حسين، فهو مجرد تسجيل أمين، لواقع محدد، فلولا جهد الرائد ما خرج تلاميذ في عظمة وموهبة نجيب محفوظ.

قال نجيب محفوظ، إن الرجل الثاني، الذي كان يستحق الحصول على نوبل هو عباس محمود العقاد.

وهنا ننقل إلى لون آخر، ودور مختلف عن وظيفة طه حسين الصدامية مع مجتمع محافظ، كان يتشبث بالإصرار على عدم فتح النوافذ أمام مشروع النهضة العربي.

وأهمية العقاد تكمن في بيانه النقدي الأول، الذي أخرجه للناس مع المازني، وعبد الرحمن شكري. وهذا البيان، الذي عبّر عن مدرسة الديوان حرّك الحياة الأدبية،

نحو درب آخر من دروب الإبداع. وكان لهذه الحركة التي قادها العقاد أكبر الأثر على تنوير الرؤية النقدية وترسيخ الشعر الرومانسي العربي الجديد، الذي تمرّد على كلاسيكية أحمد شوقي القديمة.

والعقاد، يُشهد له بالفروسيّة، وفي بلورة الفكر الذاتي في مجالات الشعر والنقد، ويكفي قراءة عناوين كتبه مثل "أنا، حياة قلم، في بيتي". وقد أبدع في كتابة السير الذاتية، وأعتقد أن نجيب محفوظ، تأثر بمنهج العقاد في كتابة السير وسلسلة العبقريات.

وأهمية العقاد أنه ربط حركة الثقافة العربية بالإنتاج الفكري العلمي، وربط هذا الفكر بحلقات التراث المضيئة والمشعة.

ورغم أي نقد، قد يوجّه إلى موقف العقاد، المحافظة في أيامه الأخيرة، إلا أن العقاد بذل جهداً عظيماً في تحريك الفكر العربي، وترسيخ نظريات نقدية، وشيّد منهجه العلمي القائم على الرؤية الموضوعية، والاستقراء المنطقي الصحيح.

وعندما بدأ نجيب محفوظ نشر رواياته، كان العقاد هو الكاتب العملاق المتربع على قمة الحياة الأدبية والنقدية. وكان يقوم بمهمة تعريفنا بروافد الأدب الجديدة، ونشر حلقات الفكر الغربي ومدارسه المختلفة.

ومن المؤكد أن ثقافة العقاد الموسوعية، ساعدت على نمو وازدهار مناخ ثقافي نشط. كما أن المعارك الصدامية التي دخلها دفاعًا عن أفكاره، كانت أكبر العوامل التي عملت على بلورة اتجاهات الجيل التالي من تيار المفكرين والمبدعين العرب. وكان نجيب محفوظ، وهو يتلمس صنع مشواره الروائي تظلل خيمة العقاد الفكرية وحفره الدائم في الحفاظ على استمرار تدفق أنهار الفكر والإبداع في قنواتها الحقيقية.

وقد كتب العقاد رواية صغيرة اسمها "سارة" هي خليط من الاعترافات الذاتية والحوارات العقلية. لكن كتابة العقاد لهذه الرواية، أعطت زخمًا للرواية العربية، التي بدأت أولى خطواتها على يد الكاتب محمد حسين هيكل لكنها لم تعرف أصولها سوى على يد الصانع الماهر نجيب محفوظ.

لكن ماذا عن توفيق الحكيم، الذي ضمه نجيب محفوظ إلى طه حسين والعقاد، ضمن حلقة ثلاثية، كانت تستحق في نظر الروائي جائزة نوبل.

إن توفيق الحكيم، هو الرائد الفنان، حاول في مجال الرواية، إلا أن إنجازَه الحقيقي هو المسرح، لكن لا أحد ينكر دور رواية "عودة الروح" في الانتقال بالرواية العربية خطوة، بعد محاولة هيكل في رواية "زينب".

وأعتقد أن أهمية الحكيم، في صياغة دوره الرائد، هو نزعتَه التجريبية واقتحامه الأشكال الفنية، بروح لا تعرف الخوف ولا التردد.

إن الحكيم، الذي كتب مسرحيات كلاسيكية على الطريقة القديمة، التي كتب بها إبسن وشو، يجرب كتابة مسرحيات طليعية، مثل "يا طالع الشجرة" و"الطعام لكل فم".

وهذه التجريبية، لازمت الحكيم، حتى اللحظة الأخيرة. يكفي قراءة عمله "بنك القلق" الذي خلط فيه المسرح بالرواية. وأهمية توفيق الحكيم، هو تراثه الهائل في مجال المسرح، وعمله الدائب على تشكيل حركة مسرحية لها

مواصفاتها وتقاليدها. بعد أن كانت قبل الحكيم عبارة عن عروض فنية، ليست لها صلة بالنص المسرحي المكتوب. ويمكن القول إن قصص نجيب محفوظ، الحوارية، التي خرجت بعد النكسة متأثرة كثيراً بفن توفيق الحكيم الحوارية، الذي بسطه في مسرحياته الكثيرة، التي تعتمد على الحوار الذهني المكثف.

وقد استمر الحكيم، ينتج في عصر نجيب محفوظ الروائي. وهذا الموقف منح نجيب محفوظ الدعم من الرمز الوحيد من جيل الرواد، بعد رحيل "العقاد" و"طه حسين". وخاض توفيق الحكيم حوارات غاية في العنف والصدام ودافع بصلابة عن قيم الحوار، وحلقات إبداع ودور الفكر.

ونعتقد أن الفنان توفيق الحكيم، هو الإضافة الحقيقية لمسيرة الإبداع العربي. إنه بحار خاض غمار أمواج الإبداع بصلابة شديدة.

وتقييم توفيق الحكيم، مفروض أن يلتزم بدوره كفنان، هندس بناء المسرح العربي ووضع لبناته. وهذا الدور سمح ببروز جيل المبدعين الكبار.

وقد تحمل الحكيم، هجوم القطاعات المختلفة ضده، إلا أنه استمر ينتج حتى اللحظة الأخيرة. ومن على فراش المرض، خاض الحكيم معارك ضارية مع حلقات التخلف، التي صممت حتى النهاية أن تقاوم الحكيم، بسبب أفكاره التنويرية العامة، وشرسته في الدفاع عن الفن والقيم الأدبية والثقافية الفكرية.

حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل، هو اعتراف بنضال جيل النهضة والرواد، من أمثال العقاد، وطه حسين، وتوفيق الحكيم. ونضيف إليهم رفاعه الطهطاوي، ومحمد عبده، ولويس عوض، وغيرهم من حلقات التنوير العربية، التي خاضت على مرّ قرون معارك التحديث وتحريك الواقع الفكري العربي.

ونجيب محفوظ، ليس نبأً شيطانيًا، إنما هو ابن مخلص للتراكمات الفكرية والإبداعية، التي حدثت في البيئة العربية؛ لذلك تقيم نجيب محفوظ الأديب، لا بد أن يأتي في هذا الإطار، وضمن هذا التوجّه.

إن الرجل حصاد، مراحل طويلة من النحت الدعوب في جبال المعرفة والإبداع.

ولقد سقط من ذاكرة نجيب محفوظ اسم سلامة موسى، وهو يعد من أصحاب الفضل من الرواد على ملامح مشروع النهضة العربي.

ونجيب محفوظ نفسه، يعترف من خلال لقاءات صحفية بأن سلامة موسى هو المفكر الوحيد، الذي فتح أمامه طريق الفكر الحديث، وقام بتعريفه على الإنجازات العلمية والفكرية، التي كان سلامة موسى مشغولاً بها، ويقوم خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات بتقديمها للفكر العربي.

في عمله الملحمي - الثلاثية - يكشف نجيب محفوظ، تأثره البالغ بنظريات دارون وأفكار المادية الفلسفية، التي كانت تعصف بالواقع الفكري العربي أيام انفتاح الشرق على الأفكار التحديثية التي غزت الفكر العربي إبان مرحلة الاحتكاك الشديد بمذاهب وأفكار الغرب.

وكان سلامة موسى، هو سفير العلم والحداثة، ودوره أهم من العقاد، وطه حسين، في نظر الكثيرين من المفكرين العرب، لكن مشكلة سلامة موسى، التي أثرت على وضعه داخل بنيان الفكر العربي والاجتماعي والسياسي. أنه كان صداميًا مع البنية المتخلفة، التي كانت سائدة خلال مرحلة ما

قبل الثورة. لقد قاد سلامة موسى معارك ضارية لتطبيق فكره العلمي الجديد، الذي كان يبشر به. هذه الصدامات جعلته دائماً وأبداً مطاردًا من الأحزاب المتخلفة، ومن الكيانات الصفراء، التي تفتح النيران باستمرار ودائماً على رسل النهضة والمبشرين بالمستقبل.

وقد تأثر أجيال عديدة بكتابات سلامة موسى، خصوصاً تلك التي كان يضمنها قراءاته العريضة في المذاهب والأفكار الحديثة.

وقد اهتمت بعض القطاعات المثقفة بفكر سلامة موسى أيام نهضة الستينيات. لكن هذا الاهتمام انكمش تماماً، عندما توارت حلقات الاستتارة الفكرية والسياسية. وبرزت بدلاً منها كتابات غريبة متخلفة تُحرّم التفكير، وتري أن كل اتصال بالفكر الغربي هو عمالة موجهة ضد التراث والدين.

وأيام الستينيات، كتب د. غالي شكري، دراسة جيدة عن سلامة موسى، لكنها -أعتقد- العمل اليتيم الوحيد، الذي كشف تأثيرات هذا المفكر على قوى ومدارس الاستتارة العربية.

وقد كان سلامة موسى، مخلصاً للعلم ولفكرة العدالة الاجتماعية، وكان حريصاً على ربط الفكر بالسياسة، ومزج دور المثقف بوظيفة اجتماعية تنويرية. وقد تعرّض سلامة موسى، في حياته للاضطهاد الشديد من معسكر التخلف، وصفه - العقاد - بأنه كاتب مراحيضي؛ لأن سلامة موسى، كان يطالب بوجود مراحيض صحية في بيوت الفلاحين المصريين.

لقد تأثر جيلنا، بكتاب بارز للمفكر العلمي الراحل سلامة موسى اسمه "تربية سلامة موسى" يكشف عن كفاح مفكر حقيقي، كان همه الوحيد ترسيخ العلم ومناصرة التقدم. وهذا الرجل تعمّد الجميع نسيانه، حتى نجيب محفوظ، الذي اعترف من قبل بفضل هذا الرائد العظيم عليه وعلى تشكيل أفكاره، التي نشرها بعد ذلك عبر عشرات الشخصيات الروائية التي تحركت داخل حكايات إبداعه الروائي الضخم. لقد رصدت ذاكرة نجيب محفوظ دور الرواد، لكن سقطت من حسابات جرد هذه الذاكرة الضلع الرابع لمحور النهضة العربي، الذي مهد الأرض وحافظ على البذور، حتى ازدهرت خلال روايات نجيب محفوظ، التي استحق عليها

تكریم العالم للأدب العربی فی شخصه وعبّر إنتاجه الأدبی
الغزیر.

قضية الأصالة والمعاصرة

مع بداية السبعينيات، بدأ د. محمد عمارة نشر دراسات فكرية إسلامية، تنهل من نبع التجديد، تتحدث عن المدارس الفكرية المختلفة، التي انطلقت تمارس حريتها على أرضية الإسلام، الذي يسمح بفكرة التعدد الحواري، ويمنح الجدل الفكري فرصته للانطلاق بدون قيود أو سدود.

من خلال هذا الإطار قرأنا عن المتكلمين وأصحاب الفرق، وأهل الفلسفة، تنوعت الاجتهادات وتعددت إلا أن التمسك بالجوهر الإسلامي ثابت. وعن طريق هذه النظرة التعددية، أبحرنا في التراث، فقَدَّم لنا عمارة بوصلة حادة تمكنا من معرفة الجيد من الغث، الصالح من الفاسد. هذا الموقف عكس نمو تيار تنويري عمل منذ سنوات على النهوض بالدراسات الفكرية الإسلامية، التي تسترشد برؤية فكرية، وبإطار بحثي علمي هدفه "غربة" التراث من مخلفات العصور وتراكم الأحداث والأحقاب.

ومن خلال هذا المشروع التنويري للتراث خرجت أعماله الكاملة للمؤلفين الإصلاحيين أمثال الكواكبي، محمد عبده، والأفغاني، وعلي مبارك، وغيرهم من رموز النهضة التي تنطلق من أساس تراثي، وتصيغ فكرة التقدم على نهج فكري إسلامي خالص.

ومن خلال هذا التيار قرأنا كتاب علي عبد الرزاق المهم "الإسلام وأصول الحكم" حيث تمكنا عن طريق طبعة د. عمارة المحققة الاطلاع على هذا العمل الفذ في مجالات الفكر السياسي والإسلامي. مشروع عمارة في صياغة التراث، وتقديمه في طبعات محققة كان ولا زال خطوة جيدة، إلا أن الظروف الفيضانية التي غمرت الساحة، وقذفت بأموال جديدة لا تتسلح لا بالعقل ولا بالمنطق في التعامل مع التراث، ألقت بمحاولات عمارة وغيره بعيدًا عن شواطئ حياتنا الفكرية والعقلية.

إن مشروع قراءة التراث من خلال عيون العصر، مشروع طموح في وقت تتواجد فيه حركة فكرية ناهضة، وتيار تنويري هادف للمعرفة، يسعى لبناء نظرية متكاملة، تكون مطروحة على بساط البحث والنقاش. لكن بما أن

النكسة الفكرية العامة تعرضت لضربات إجهاضية متوالية فإن خطوات عمارة وغيره أصبحت مجرد اجتهدات أكاديمية لا تساهم في صياغة الواقع أو تطرح أي شيء جديد على بساطه.

إن الموجة الأصولية، التي نظرت للتراث على أنه مجموعة من الأدعية والمأثورات والسير، سلبت منه المضمون الفكري، والموقف السياسي والرؤية الحضارية، حجب هذه الموجة التيار العلمي، الذي عمل منذ السبعينيات على بلورة صحوه فكرية مميزة تأخذ من العصر بطرف وتأخذ من التراث كل ما يدعم التطور والبناء وأشكال التنمية المستقلة.

إن تيار السبعينيات الذي مثله د. عمارة، د. حسن حنفي، وأحمد عباس صالح، وغيرهم من مجموعات المفكرين المجتهدين، عملوا من خلال دراسات جادة على طرح التراث باعتباره، محركاً كبيراً وأساسياً لمشروع النهضة، ومساهمًا مساهمة ضخمة في رسم قسّمات نهضة حضارية كبرى تعادي الاستعمار، وتبني شخصية الأمة على أسس عصرية. هذا التيار غطت عليه الموجات العاتية، التي

وفدت من الانفتاح، والتي حوّلت التراث لشذرات متفرقة تستند على الإرث المضاد للنهضة والمناقض للتنمية، والغارق إلى أذنيه في حلقات التبعية الفكرية.

وعندما يتصفح المرء كتباً من عينة "المعتزلة والحرية الإنسانية"، لمحمد عمارة، و"التراث والتجديد" لحسن حنفي، و"اليمن واليسار في الإسلام" لأحمد عباس صالح. و"دليل المسلم الحزين" لحسين أحمد أمين، يدرك أن أبناء هذا الجيل، وهذا التيار، كانت لديهم ولا زالت الحلول، التي تسعى لحل إشكالات المعادلة الصعبة بين طرفي الأصالة والمعاصرة، إن هذه المؤلفات وغيرها التي كتبها أقلام جادة، طول واجتهادات، تقدم العصر من خلال عيون التراث، وترى التراث من خلال عدسات العصر. والأهم من ذلك هو الرؤية الاجتماعية الناضجة والمحاور الفكرية التي تناصر التعدد كأسلوب. وبالإضافة إلى هذه الرؤية فهناك إصرار على نهج الاستقلال الوطني وعلى فكرة التنمية الاقتصادية المستقلة.

في مقابل هذا النهج، نرى مؤلفات أخرى من عينة "الفريضة الغائبة" وكتب جماعات الشكريين والقطبيين

وغيرهم من حلقات الفكر الآخر، تأمل هذه الأفكار يضع
أيدينا على رؤية يشوبها التعصب والتخلف والاستبداد. ابتعاد
كامل عن التراث الوطني يكافحه ضد المستعمر، معاداة
الفكرية، عداا مباشر للأقليات الدينية. سلب صفة المواطنة
منها، ومعاملتها على أنها درجة ثانية، في درجات سلم
المجتمع. موقف متحيز ضد المرأة، كراهية واضحة للعلوم
المعملية والإنسانية.

التقابل بين الاجتهادين، العقلاني التراثي والغبي
المتزمت يبين أن واقع الأزمة الفكرية التي عشناها جميعا
أثناء السبعينيات، وما زلنا نحيا داخل أمواجها الثقيلة، قذفت
هذه الأمة بالحل المعقول الذي قدمته لنا مجموعة عمارة
وغيره من المجتهدين على أسس العلم والعصر والفكرة
الوطنية. وقدمت الأزمة لنا اجتهاد المجموعة الأخرى، الذي
يعد تعبيراً عن مأزق أكثر منه تعبيراً عن صحة فكرية
حقيقية.

ولا يعني انحسار المواجهة الأولى في الحوار حول
التراث والمعاصرة، ترجيح كفة الأفكار التي تريد الحفاظ

على طرف واحد من المعادلة، يصب في السلفية الفكرية دون مد الجسور مع تحديات العصر ولغته ومشكلاته.

يقول حسين أحمد أمين في كتابه "الإسلام في عالم متغير" حول أزمة تعاملنا مع التراث بقوله: إن هناك بالقطع أزمة في تعاملنا مع التراث، وفي تحديد موقفنا من المعاصرة والسبب في رأيي يتصل بحدة الازدواجية، وهي أساسها عجز المتفرجين منا عن استساغة التراث ووصل ما بينهم وبين ماضيهم، وعجز السلفيين المعاصرين عن المعاصرة والاستفادة من حضارات الغير. وعجز هؤلاء وأولئك عن فشل مختلف الاتجاهات والخروج منها بناتج جديد متجانس له ما لتلك الاتجاهات من الاستقلال.

وقديماً قال العرب كما يذكر حسين أمين في كتابه "إذا سمعت الرجل يقول: ما عند الله خير وأبقى" فاعلم أن جواره وليمة لم يُدعَ إليها. فالعنب إذن هو في العادة حصرم، ثم إذا بهذا العجز من أولئك يتبلور في عدااء كلي لموقف الطرف الآخر دون أن يحقق أي منهما الانسجام المنشود.

ولا أعتقد كما يقول حسين أمين، أن مجتمعات كثيرة غيرنا، تعرف مثل هذه المشكلة العقيمة، فالغربي مثلاً إن قرأ

فإنما يقرأ توما الأكويني اليوم وبراثراند راسل غداً، ثم أفلاطون بعد غد، كتبهم جميعاً ضمن سلسلة واحدة، على رف واحد، وفي مكتبة واحدة، لا يقال عنه تراثي إن فضّل اسخيلوس، أو أنه عصري إن هو أثر دورينمات، ويدخل كل هذا في تكوينه ليجعل منه الإنسان الذي هو عليه، لا مشكلة ولا حيرة ولا إحساس بالتمزق، مشكلة العربي المعاصر كما يقول حسين أحمد أمين هي إذن كمشكلة امرئ يحاول تدارك صعوبة حمل العديد من صحنون الطعام في يدين اثنتين، فيما الغربي أشبه بمن أكل منها جميعاً وتمثلها فسرت في بنيانه وصارت إلى هيئة جد مخالفة.

ويرى حسين أحمد أمين، وعندي أنه في مقدورنا تحقيق مثل هذا الانسجام متى اتخذنا من تراثنا ومن حضارات الغير موضعين مغايرين لموقف اليوم. ويشرح حسين أمين وجهة نظره فيقول:

من تراثنا، بحيث لا يكون الهدف من الإقبال عليه الهروب من حاضر ثقيل الوطأة، أو الترويج عن النفس، أو التفرج على أطلال العصور الخوالي، وإنما هو الاستفادة من حكمة الأقدمين وتجارب الأسلاف في أن نجعل من عالمنا

المعاصر عالمًا أقل، وأن نهى لأنفسنا وأبنائنا مستقبلًا
أزهى، لا نحترم الماضي لمجرد أنه ماضٍ، ولا السلف لأنهم
سلف، ولا نقصد الحق في التفكير على الأموات.

ومن حضارات الغير: بحيث لا يحكم موقفنا عقدة نقص
أو استكبار أو فقدان الثقة بالنفس وبالدين والتقاليد، مع
الإقرار بأن الاستفادة من معاصرة غيرنا ممكنة على نحو
استفادة أوروبا من معاصرة العرب إبان العصر الوسيط في
تجاوزها لواقعها إلى عصر النهضة فعصر الإصلاح الديني.

ويقول حسين أمين، فأما عن التراث، فإنه يمكن التحدث
عنه بأحد معنيين: إنه مجموع ما خلفته قرائح الأقدمين
وصفوة الأسلاف من فكر وفن وعلم ونمط عيش. وفنون
وحضارة مما يمكن لجيلنا الحالي الاستفادة منه والاستعانة به
على حل ما يواجهه من المشكلات والتحديات، أو تعريفه بأنه
كل ما أفرزه الماضي من إفرازات، ضارة ونافعة، سامة
وسليمة، لا يزال لها أثرها الفعال في مسلكنا ومعتقداتنا
وأسلوب معيشتنا ونظرتنا إلى الحياة، منها ما يجدر بنا
التمسك به وتتميمه، ومنها ما ينبغي علينا محاولة استئصاله
أو الحد قدر الإمكان من نطاق سلبياته. هذه الحلول اجتهادات

فكرية يقدمها حسين أمين، عبر صفحات كتابه للاشتباك مع قضية الأصالة والمعاصرة.

وواضح من هذه الشذرات، التي ذكرناها، أن المؤلف، يريد وصل الماضي بالحاضر بالمستقبل، وأنه لا يرى انفصال شبكي بين التراث والمعاصرة، وهو يؤكد خلال كتابه أن الحوار مع الماضي مطلوب لشحن الحاضر بحلقات الفكر التي تشكل الأرضية والجذور. لكنه من ناحية أخرى، لأرى التركيز على التراث على حساب الواقع. وإنما الحل هو استنهاض قيم التراث تصب في رؤيتنا المعاصرة، وتصبح داخله في تكوين خلايا التفكير العربي.

ونحن بدورنا نرى أن أزمة الأصالة والمعاصرة، هي من نتائج الأزمة الفكرية، وصدام مشروع النهضة، وفشل برامج التحديث. وقد برزت قضية الأصالة والمعاصرة مع هزيمة ١٩٦٧. وبدلاً من أن نتجه إلى حل هذه المعضلة أصبح هناك فريقان واحد مع التراث، وآخر مع المعاصرة. وهذا التحزب ضار بالعملية الحوارية الصحية بين الماضي والحاضر. وقد تنبه فريق من المفكرين أمثال حسين أحمد أمين، وطرحوا معالجة هذا المأزق بالحلول الجيدة التي

تحاول إنهاء الاشتباك بين الماضي والحاضر، الذي سيدفع
ثمنه بالتأكيد المستقبل العربي المقبل.

إن كتاب "الإسلام في عالم متغير" مثل كل كتب حين
أحمد محاولة لتحريك الفكر واشتباك صريح مع قضايا
الفكرية، التي لابد من مواجهتها بأسلوب حوارى متقدم كما
يفعل دائماً حسين أحمد أمين.

دعوة للحوار

الدكتور لويس عوض، باحث موسوعي، يتميز بغزارة غير عادية في المعلومات، يختزنها عقله، وينشرها بطريقة مبسطة في مقالاته وأبحاثه.

والدكتور عوض، من حملة راية الاستنارة، ومن الموجة التالية لجيل طه حسين، والعقاد، وسلامة موسى. لكن ما يميز كتاباته هو المنهج العلمي الواضح، والموقف الفكري الذي لا يتزعزع، بسبب عوامل إرهابية ضاغطة، أو بسبب حملات كراهية يشنها عليه البعض من حين لآخر.

وعندما بدأت في قراءة كتابه الجديد "دراسات في الحضارة"، تأكد لي مرة أخرى شجاعة لويس عوض، التي تدفعه دائماً لقول الحقائق، مهما كانت مزعجة ومقلقة في الوقت نفسه. ود. عوض، هو باستمرار محطم الأفكار الثابتة، والمعتقدات الخاطئة في أذهاننا، التي نتصور أنها حقيقية بسبب كسلنا العقلي وخوفنا من اقتحام المجهول.

والكتاب الأخير، مجموعة مقالات نشرها د. لويس عوض، في مرحلة الاشتباك مع مراحل التدهور الفكري، التي أصابت منذ مطلع السبعينيات حياتنا. ومن يقرأ مقالات الكتاب، يتصور أن لويس عوض يستحضر مهمة سقراط الجليّة، التي كان هدفها تحريك الفكر والبحث في جوهر النفس، ويحاول د. عوض في المقابل الغوص في أعماق حضارتنا؛ لمعرفة هويتنا وشخصيتنا والبحث في دفاتر التاريخ والنهضة وأوراق الحوار الفكري، من خلال رؤية يميزها النقد وعدم قبول البديهيات الثابتة، وإخضاع كل شيء لعدسة الأديب الناقد، الذي يهمله هز السكون وتحريك بحيرة الفكر.

وقراءة "دراسات في الحضارة" تكشف أن لويس عوض لا يزال في منتهى الحيوية، وأنه لا يزال القطب الفكري القادر على دخول معارك في منتهى الخطورة، من أجل ترسيخ الأفكار الصائبة، وطرد الأفكار الرديئة من الساحة. وأعتقد أن نشر هذا الكتاب، بالمقالات نفسها والأفكار ذاتها التي سبق للمؤلف نشرهما في الصحف اليومية سيجدد النقاش والحوار حول الأفكار الجريئة التي يطرحها المؤلف،

والتي تهدف إلى هز اليقين الفكري وإثارة الجدل تجاه قضايا الفكر والأدب والفن والحضارة.

فكر موسوعي

وقراءة هذه الفصول المثيرة، تكشف مرة أخرى، عن موسوعية د. لويس عوض، وهذا الفكر الموسوعي، ليس مجرد معلومات متناثرة هنا وهناك. وإنما هي موظفة داخل منهج علمي على درجة كبيرة من اليقظة والحدة والحيوية. والكتاب، هو العمل رقم ٤٨ في سلسلة أبحاث د. لويس عوض، ومقالاته وأفكاره. وهو كأغلب كتبه ليس مجرد بحوث نظرية منفصلة عن حوارات الواقع، وإنما الكتاب هو مناظرة مع أفكار مطروحة وقضايا مثارة، وهذه الدراسة هي تسجيل لمشاركة المؤلف في القضايا المطروحة على ساحة العمل الفكري والثقافي.

إن لويس عوض، كاتب خضم من عصر العمالة، ولا يزال يناضل بصلاية لنشر فكره، في ظروف معقدة ومتشابكة، برزت فيها الأفكار المعادية لحرية الفكر والاجتهاد.

ولقد تعرّض د. لويس عوض، خلال السبعينيات لمحنة المطاردة من حلقات التخلف التي برزت على جلد الأمة، إلا أن الرجل واجهها بصلابة غير عادية، وكتابه الأخير هو حصيلة هذه المعارك؛ لذلك تظهر بين أفكار الكتاب سخونة فكرية، تسقط كافة الأوهام التي علقت بالفكر العربي لقرون عديدة.

ورغم أننا قد نختلف مع بعض اجتهادات المؤلف، إلا أنه يستحق في النهاية الاحترام من جيلنا؛ لأنه واصل مهمة الفكر بإصرار وصلابة غير مبالٍ بهجوم الجماعات المعادية للفكر والعصابات المضادة لحرية المفكرين.

صدّامات فكرية

وكتاب دراسات في الحضارة، هو اشتباكات فكرية مع اجتهادات ورؤى يختلف معها المؤلف ويعارضها.

وبسبب أن الكتاب تجميع لمقالات متفرقة نشرها المؤلف على فترات زمنية متباعدة، فإنه يفتقر إلى وحدة الموضوع التي تربط أوله بآخره. لكن هناك جوهر واحد يمسك هذه الأوراق كلها، وهي الدفاع عن مضمون الحضارة

بشكلها المعاصر. لذلك، الكتاب في مجمله محاولة للرد على منتقدي شكل النمط الحضاري المعاصر.

وفي حوار جدلي فكري مثير، يناقش د. عوض في كتابه النظرية الواقعية النقدية التي يحدثنا عنها د. أنور عبد الملك في محاضرة ألقاها في ندوة الأندلس عام ١٩٨٤ بعنوان: الوجهة الحضارية للفكر السياسي العربي.

ومضمون نظرية عبد الملك، هو نقد لجوهر النظرية الحضارية الغربية. فالدكتور عبد الملك منذ كتابه "ريح الشرق" وهو يتجه إلى الحضارات الشرقية القديمة، التي يرى فيها النموذج الصحيح لتنمية حضارية تخلص من الأسلوب الاستعماري، والقفز على الشعوب الأخرى لاستعمارها.

وقد انتقد محمود أمين العالم في كتابه الوعي، والوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر نظرية رحي الشرق التي يتحدث عنها أنور عبد الملك. وقال إن تقسيم العالم إلى شرق وغرب، نظرية غير صحيحة مربكة، لأن العالم في رأيه مقسم إلى عالم يسعى إلى السيطرة والاستغلال، وعالم آخر يقاوم التبعية بشروطها الفكرية والمذهبية.

لكن د. لويس عوض ينقد نظرية أنور عبد الملك بمفهوم آخر. فهو يتعرض للبحث الذي ألقاه عبد الملك في ندوة الأندلس، فيقول: إن هناك بعض المشكلات في هذا البحث الساخن المسبب للارتباك، ويضيف: فمن الواضح أن لهذا البحث محورين رئيسيين.

الأول: هو رفض نمط الحضارة الغربية وقيمها كنموذج يحتذى به في بناء الدولة العصرية، والثاني هو الدعوى للأصولية الحضارية كمنبع للإبداع والتحديث. كل ذلك محمول في لغة حارة تتهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية دعاء الفكر المخالف، لغة مجهولة تجهيلاً تاماً بحيث لا تعرف منه هوية هؤلاء العملاء إلا من باب الحدس، كلما أشار إلى دعاء الحضارة الغربية، وهو من غرائب الكلم عن عجائب المخلوقات.

ويقول لويس عوض، وقد خرجت بنتيجة واحدة وهي أن الأستاذ أنور عبد الملك لا يزال واقعاً تحت تأثير الخرافة التي نشرها المستشرق الكبير جاك بيرك بين تلاميذه ومريديه: خرافة التناقض بين الأصالة والمعاصرة.

ويضيف الدكتور لويس عوض شرح رفض عبد الملك بناء الدولة الحديثة أو الدولة العصرية على أساس الحضارة الغربية. فيقول إن د. أنور عبد الملك يرفض النظام الليبرالي طريقاً للتنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وهو لا يقف وحده في هذا الصدد، فهناك فلسفات عديدة تدعم وجهة نظره. كذلك تدعم وجهة نظره عصور الثورات والتحوليات الكبرى، وبعض حركات الإصلاح الكبرى التي لا يؤخذ فيها رأي الجماهير كعهد لويس الرابع عشر، وعهد فردريك الأكبر، وعهد بطرس الأكبر، ومحمد علي، وعهد كمال أتاتورك. بل لعل من النافع أن نتذكر أن الحضارة الغربية ذاتها صاحبة تقاليد معادية للديمقراطية الليبرالية بالمعنى الإيجابي، كما أنها صاحبة تقاليد متمسكة بالديمقراطية الليبرالية بالمعنى الإيجابي.

ويتساءل لويس عوض

وهبنا تخليناً عن الأحزاب والبرلمانات وحكم الأغلبية البرلمانية، فهل نتخلى أيضاً عن مبدأ الحوار بدلاً من القهر والعنف كسبيل لتطور المجتمعات ولتحقيق المصالح والغايات؟ وهل نتخلى عن مبادئ حقوق الإنسان، كما

ورثاها من الثورات الإنسانية الكبرى كالثورة الفرنسية في ١٧٨٩ وما بعدها والثورة الروسية في ١٩١٧ وما بعدها، وكما هي مبلورة على وجه تقريبي من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

الأقنعة الحضارية

ويتحدث لويس عوض عن الحضارة الغربية فيقول إنها حضارة أقنعة، فهي تتحدث عن السلام وتشعل الحروب باستمرار، وهي تتحدث كثيراً عن الحرية والمساواة والإخاء، ولكنها تسرق الشعوب والطبقات والأفراد، وهي تتأهض التمييز العنصري نظرياً ولكنها تزاوله في التطبيق. ولكن أليست هذه أزمة الحضارة الغربية، التي يحاول كثير من الغربيين أنفسهم أن يجدوا لها حلاً في حوارهم مع النفس ومع الغير؟ ثم ما الجديد في هذه الأزمة؟ أليست هذه أزمة كل المثل العليا منذ فجر التاريخ؟ أليست هذه أزمة الأديان نفسها وكل ما ظهر في العالم من دعوات اجتماعية أو فلسفية؟ وهل نتخلى عن الدين لأن سلوك المتدينين كثيراً ما ينافي معتقداتهم ودعاواهم؟ وهل نتخلى عن الاشتراكية لأن ممارسات الاشتراكيين كثيراً ما تتضمن الخيانة لمبادئهم؟!

هذا جوهر فكر د. لويس عوض ببسطه في معرض انتقاد جهود د. عبد الملك النظرية حول الموقف من الغرب والدعوة إلى نظرية شرقية جديدة تفتح نوافذها لريح الشك.

ويمكن القول إن موقف لويس عوض المنحاز للغرب كلبية، هو موقف غير علمي؛ لأن علاقة الاستعمار بالنهج الغربي، ليست وليدة أخطاء تطبيقية، وإنما حقيقة الأمر، أن الظاهرة الاستعمارية خرجت من منعطف البرلمان الليبرالي. وبينما كان الليبراليون في برلمان أوربا يناقشون مبادئ حقوق الإنسان، كانت قوات جيوشهم تنتهك المستعمرات الخاضعة لسيطرتهم.

إنه إشكال حضاري، لا ينفع معه الموقف المحايد المؤيد، ولكن يجوز التعامل مع هذه القضية، من خلال فكرة نقدية.

لكن نظرية عبد الملك عن ربح الشرق، هي هروب من المواجهة الأيديولوجية كما يقول محمود العالم. فعودة تقسيم العالم إلى شرق وغرب هي فكرة تنهل من ملفات التقسيم الاستعماري إلى العالم.

ولكن لويس عوض يعود إلى وضع إطار المشكلة في
حيز آخر، عندما يتحدث في هذه الفقرة فيقول:
وحضارة الغرب وليأذن لي الدكتور أنور عبد الملك أن
أضيف، والشرق الراقى أيضاً، الذي يحدثنا عنه، ولا سيما
الصيني، هو في وجهه المضيء امتداد لحضارة الغرب،
حضارة الغرب هذه قد اكتشفت بفضل ما فيها من حوار
ديمقراطي وجدلية بين الفعل والعاطفة،
وبين المثاليات والماديات وبين الفرد والجماعات وبين
مختلف الطبقات، إن الديمقراطية تصبح كذبة كبيرة ما لم
تكن إلى غاية راقية، والتمزقات الحالية التي تعاني منها
الحضارة الإنسانية اليوم بما فيها من صراعات بين الشرق
والغرب هي وجه من وجوه الأزمة التي تعاني منها
الحضارة الغربية نفسها.

وقضية أنور عبد الملك التي يناقشها لويس عوض في
كتابه دراسات في الحضارة، نموذج للحوار الممتد في
صفحات وأفكار هذا الكتاب.

وقراءة أفكار لويس عوض، لابد أن تتم بعناية شديدة،
فالرجل له وجهة نظر، وهو يستعمل الحجج العقلية الدامغة،

لكن على القارئ الهروب من هذا المنهج والخروج من حصار طريقة لويس عوض، وقراءة نصوصه بعملية نقدية كاملة.

إن أفكار هذا الكتاب تصلح مادة للحوار، حول موقفنا من الحضارة الغربية، والتراث الفكري، وعلاقتنا بتيارات ومذاهب هذا العالم.

ولأن مادة الكتاب متفجرة بالأفكار الجدلية. فإن تناولها لابد أن يتم من خلال عقل نقدي، ولا يقبل هذه الأفكار على أنها مسلمات بديهية. إن من يقع في هذه الرؤية، لن يتمكن من الاستفادة من مقالات هذا الكتاب.

إن دراسات في الحضارة دعوة للتفكير، وليست أفكار للاعتقاد.

كتب هذه المقالة قبل رحيل د. لويس عوض.

تيارات وأنظمة وأفكار

الأنظمة الغربية، التي اختارت الديمقراطية طريقًا للحكم، تشيد باللعبة السياسية، طالما أن الناخبين يقدمون للبرلمان عناصر معتدلة عاقلة ومتزنة، تعبر عن القوى والشرائح الاقتصادية الحاكمة، إذا حدث العكس، فإن أجهزة الإعلام، تشن حملة إعلامية مكثفة عن تسلل التطرف وتبدأ في تهيئة الرأي العام لاتخاذ قرارات، يمكن أن تطول أسس الليبرالية والتعدد.

ومن يتأمل ما يحدث في بريطانيا حاليًا، سيرى أن هناك جماعات سياسية، برزت خلال السنوات الأخيرة تحمل أفكارًا، راديكالية، تترجم الانقسام الاجتماعي الذي حدث في التركيبة الاقتصادية والاجتماعية البريطانية الصحف اليمينية لا ترحب بهذا الوجود، تعتبره خطوة نحو التطرف وتقويض المجتمع الحر.

وهذه التكوينات السياسية، تمارس حركتها، داخل النظام البرلماني بمعنى أنها جمعيات سياسية علنية تسعى للحصول

على تأييد الناخب البريطاني، الذي دفع بعناصر منها إلى البرلمان وبالتأكيد من مصلحة الحياة الديمقراطية، أن يكون البرلمان ممثلاً للقوى الفاعلة التي يتكون منها المجتمع. لأن الحل البرلماني، هو الذي يجهض أية محاولات بعيدة عن الشرعية، يدفعها الاضطهاد والتجاهل والمطاردة إلى اللجوء إلى أساليب عنيفة تهدد كيان المجتمع بالكامل.

ورغم أن قواعد اللعبة الديمقراطية تنص على السماح للجميع بالتمثيل البرلماني. إلا أن بعض العقول المترتبة وأصحاب المصالح الضيقة لا يأخذون بالنظرية الديمقراطية كاملة. إنهم فقط، يتعاملون مع الجزء الذي يتفق مع مصالحهم.

لقد نجح في البرلمان البريطاني الأخير، ثلاثة أعضاء سود، أفكارهم راديكالية. جاء وصولهم للبرلمان؛ لأن التركيبة الاجتماعية في بريطانيا تعاني من التفرقة العنصرية والقهر الاجتماعي.

وصول الأعضاء الثلاثة إلى البرلمان معناه أن صوت الملونين سيجد من ينقله إلى ساحة العمل السياسي، سيسعى الأعضاء المنتخبون للدفاع عن مصالح ناخبهم والتصدي

للتشريعات التي لا تتفق مع مصالحهم. والدعوة إلى سن تشريعات جديدة تمنحهم حقهم في الكعكة الاقتصادية البريطانية.

وتلك وظيفة البرلمان، الحقيقة فهو ليس بناءً من الكرتون أو الحجر للوجهة السياسية. وإنما لتمثيل القوى السياسية التي تتصادم مع بعضها لأجل انتزاع حقوق من تمثلهم.

والحل البرلماني، هو وسيلة غاية في التحضر لتنظيم الحوار السياسي والنقاش الاجتماعي داخل المجتمعات الراقية. لكن رغم أن النظرية الليبرالية تؤيد حق القوى المختلفة في دفع ممثليها إلى مقاعد البرلمان. إلا أن هذا الحق يجد من يهاجمه بعنف، إذا تمكنت بعض عناصر راديكالية من الفوز بثقة الناخبين.

لقد شاهدنا كيف تأمرت الاحتكارات العالمية على البرلمان الشيلي، عندما دفع الناخبون، سلفادور الليندي لتشكيل حكومة ديمقراطية. لقد حرّضت تلك القوى الجيش، للإطاحة بالليندي، وتنصيب بيوشيه كحاكم مطلق يحكم بالحديد والنار ويقتل كل يوم عشرات من الشعب الشيلي.

في البلاد الغربية، لا تأخذ اللعبة، هذا اللون من أساليب رد الفعل. رغم أن ذلك حدث في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية، فبروز القوى الراديكالية، أُرعب أصحاب النفوذ، فدفَعوا بالنازي إلى الأمام يهدد المعبد الديمقراطي على رؤوس الجميع.. الذين يديرون اللعبة الديمقراطية بذكاء، يفسحون الطريق أمام كافة الألوان التي تتشكل منها الخريطة الاجتماعية والسياسية لذلك يرى البعض أن دخول الإخوان المسلمين إلى البرلمان المصري هو محاولة لنزع سلاح هذه الجماعات، ودفعها للعب دور على ساحة العمل الديمقراطي.

كان الهدف من تلك الخطوة، جذب الإخوان إلى إطار الشرعية بعد فترة طويلة من التعامل معهم بالإجراءات الإدارية وحدها. لكن الذي رسم هذه السياسة لم يضع في ذهنه أن الحركات الإسلامية الجديدة في مصر، والتي تختار العنف المسلح، طريقاً للتعبير عن نفسها علاقتها بالإخوان المسلمين لم تعد قائمة بالشكل الذي يتصور مفكرو الحكومة؛ لأن هذه الجماعات رغم الجسور التي بينها وبين الإخوان، ترفض هيمنة الحرس القديم عليها، بل إنها تدين أسلوب المهادنة مع الحكومة، وترى أنه ضار تماماً بالحركة

الإسلامية لكن رغم ذلك يبقى دخول الإخوان إلى البرلمان المصري، علامة على رغبة في استقطاب عناصر سياسية نشطة إلى ساحة العمل السياسي.

لذلك رأى البعض أن خلو البرلمان الحالي من العناصر اليسارية، نقطة سلبية كبيرة؛ لأن غياب هذا الوجود السياسي، يسحب من البرلمان فرضية أنه يمثل كافة القوى السياسية، كما أن عدم وجود هذا الفريق تحت القبعة، يدفعه بعيداً عن الإطار الشرعي ويمنح الفرصة للعناصر المتشددة لتمارس دورها في قنوات سرية.

ولقد حاول النظام في الدورة البرلمانية السابقة، معالجة هذا الخلل في تركيبة الصور السياسية داخل البرلمان، بتعيين الدكتور ميلاد حنا، ممثلاً لحزب التجمع، إلا أن الحزب رفض مبدأ التعيين من الأساس وقام بتجميد عضوية العضو الذي اختارته الحكومة لاستكمال تمثيل كافة الأحزاب.

إلا أن رغبة النظام في تمثيل القوى السياسية، تترجم قطاعات ذكية تريد أن تحصر الحركة السياسية داخل قاعة البرلمان وتحت قبته. وترى وهي صائبة تماماً أن ذلك يقي المجتمع من هزات التطرف ويحرس أسسه من الانهيار.

التعليم لمن؟

عندما جاء الليبرالي العظيم "طه حسين" إلى وزارة الوفد في بداية الخمسينيات، طلب من مصطفى النحاس رئيس الوزراء الوفدي أن يتضمن خطاب العرش، فقرة، تؤكد على مجانية التعليم في كافة مراحل، قبل الوصول إلى المرحلة الجامعية.

وقد وافق النحاس على طلب طه حسين، وجاء خطاب العرش الذي يعد برنامج الحكومة، يتضمن الفقرة التي طلبها وزير المعارف الجديد.

وقد وافق النحاس، على مطلب طه حسين، ليس لأن النحاس اشتراكي أو شمولي، وإنما لأن الرجل كان يعلم أن مسألة ضمان حق التعليم في دولة نامية فقيرة مثل مصر، أمر ضروري، لأي حكم يدعي أنه على علاقة ما بتممية المجتمع أو يتطلع لتحريكه خطوة إلى الأمام.

ومسألة المجانية، التي طلبها طه حسين، ووافقت عليها إدارة الوفد، كانت تعكس تطوراً قد حدث في تركيبة

المجتمع؛ لقد أدركت العناصر المثقفة والمستتيرة سواء كانت في موقع اليمين أو اليسار أو الوسط، أن مصر دولة فقيرة في مواردها الطبيعية، وأن ثراءها الوحيد يكمن في طاقاتها البشرية الهائلة. وبما أن الجهل يحول هذا الكم البشري إلى عبء ومشكلة فإن التعليم يحول الجماهير الجاهلة والامية إلى عناصر وتروس فعالة في ماكينة المجتمع.

وقد عملت العناصر الواعية على تأكيد حق المجتمع في أن يقوم بتأمين العلم لكل أفرادهِ. وهذا التأمين ليس ترفاً ولا سذاجة ولا إهداراً للأموال، وإنما حالة من حالات الوعي تنتاب الدول فتقرر صرف بعض المساعدات على تنمية البشر حتى يتحولوا بعد ذلك إلى عناصر فاعلة في مصنع المجتمع البشري.

هذه الحالة الواعية، تتبناها ثورة يوليو، التي توسعت في تحقيق المجانية حتى شملت التعليم الجامعي أيضاً وقد ترتب على هذه الحالة. سواء في زمن الوفد، أو زمن الثورة غياب البعد الطبقي في عمليات التعليم وهذه حالة أخرى من حالات رقي التفكير البشري فكل الناس من حقها أن تكتسب العلم يتساوى في ذلك ابن الخفير وبنات الباشا.

مصر على مشارف الخمسينيات تمكنت من إنجاز
مرحلة هامة من تأمين مجانية التعليم لأفراد الشعب. والذي
حقق هذا الهدف دكتور ضرير من صعيد مصر مسته شعله
العلم فأنارت عينيه الكيفيتين فشر بأنه مطالب بتوفير هذا
السحر لأهله وناسه فعمل خلال حياته كلها على تحقيق هذا
الهدف.

وقد استجابت حكومة الباشوات لهذا المطلب ولم تنظر
إليه من خلال بعد طبقي ضيق لأن باشوات الوفد كانوا على
وعي ونضج وعرفوا بالحس السياسي والاجتماعي أن تعليم
الناس يعد ادخارًا للمستقبل وتنمية بشرية حقيقية. وثورة
يوليو، علمت أنها لكي تبني المصانع، وتتوسع في البناء
والتشييد فإنها في حاجة إلى أمة متعلمة؛ لذلك سعت إلى فتح
باب العلم على مصراعيه أمام الجميع.

والذين يتحركون الآن داخل الحياة المصرية في كافة
المواقع هم الناس الذين استفادوا من المجانية والذين حصلوا
علومهم بسبب موقف طه حسين والوفد وحكومة الثورة،
والغريب أن الذين استفادوا من هذه المجانية يطالبون الآن
بإنهاء هذا الوضع لماذا؟ لأنه حسب رأيهم القاصر فإن

المجتمع غير مسئول عن عمليات التعليم ويرون أن المجانية الحالية عبث وضياع أموال.

"باشوات" زمان، كانوا يحاربون من أجل تأمين العلم للناس، أما سادة اليوم فهم يطالبون بتقييد التعليم وقصره فقط على القادرين.

إنها طبقة متخلفة تنتظر من خلال ثقوب ضيقة جدًا كما أن المنادين بإنشاء جامعات خاصة هم جماعة من الأغنياء، لا ينظرون إلى الأمام، ولا يفكرون بشكل منطقي على الإطلاق.

إن التعليم في البلاد النامية لا بد أن يكون محميًا بقوة الحكومة الاقتصادية، حتى يستمر ويضمن تحقيق فوائده. أمّا مسألة أن التعليم يتحول إلى مؤسسات خاصة فمعنى ذلك حرمان الفقراء من حقهم في التعليم ومن ناحية ينمي كيانات خارجة عن خطط التنمية التي من المفروض أن المجتمع يقوم بها ويخطط لها.

إن هناك انهيارًا عامًا في أفكار الشرائح المسيطرة وهذا الانهيار يجعلها تفكر بشكل أناني وبطريقة انتحارية تمامًا، فمعنى حرمان قطاعات عديدة من التعليم، يعني إبعاد عناصر

فعالة عن ميدان التنمية وسيعود الأمر مرة أخرى إلى
التركيبة الشاذة القديمة:

نخبة متعلمة وقواعد عريضة من أبناء الأمة يسبحون
في الجهل والتخلف.

هذا الوضع الشاذ أصبح غير مقبول في العصر الحديث
لكن شرائح غبية تريد فرضه مرة أخرى لا لسبب إلا تحقيق
مصالحها الأنانية من الهيمنة والانفراد بالمواقع المؤثرة في
كيان السلطة.

واعتقد أن هذه الخرافات السخيفة لن تمر لأن الوضع
الآن لا يسمح بتمرير هذه الأفكار الانتحارية. صحيح أن
هناك حالة ردة وغياب وغيوبة إلا أن القواعد العريضة التي
تلقت تعليمها بفضل ديمقراطية التعليم ستدافع عن الصيغة
الصحيحة التي ترفض هذا الانتحار المتعمد من عناصر غبية
في تركيبة المجتمع.

الحرية والصحافة

تزدهر الصحافة في مناخ الحرية.. هذه حقيقة أصبحت من البديهيات التي لا تحتاج إلى تأكيد. ولأن الصحافة قائمة على نقل المعلومات ونشرها على أوسع قطاع، فإنها تحتاج لظروف ليبرالية عامة، تشجّع على تداول المعلومات، وتمنح أرضية صالحة لنمو الآراء المعارضة والمخالفة لنهج السلطة القائمة.

والصحافة الغربية ازدهرت ولا زالت؛ لأن الإطار السياسي الغربي مهما كانت اعتراضاتنا عليه شجّع في داخل أوطانه على تنمية حرية التفكير والتغيير. وساعده إطاره الليبرالي الحر، على نمو كافة الأفكار والاتجاهات.

والصحف الغربية تستمد حيويتها من استقلالها، إنها مستقلة تمامًا عن الحكومات، فهي مؤسسات تجارية لا يدعمها سوى القارئ ومدخول الإعلانات. صحيح أن هناك دعمًا خفيًا غير منظور تقوم به شخصيات ثرية ممثلًا في منح إعلانية ضخمة. إلا أن الصحيح أيضًا أن الصحافة

الغربية تعتمد على سوق تجاري واسع يريدها كوسيلة للإعلان عن سلعه الكثيرة، التي تصدرها مصانعها وتنتجها آلاته الصناعية.

لقد صدرت في بريطانيا، مؤخرًا أكثر من مجلة للمرأة، وكلها سعرها معقول بل رخيص؛ لأنها مطبوعة على ورق مصقول وبها ألوان متعددة، كما يوجد فيها حجم تحرير مخيف. بالطبع إلي جوار خدمات هائلة تقدمها هذه المجلات لقرائها وكنت أتصور أن السوق مشبع بالمجلات بحيث إنه لا يستوعب الجديد منها. لكن تصوراتي لم تكن في محلها. فأغلب المجلات الجديدة، حققت وجودًا لها في الأسواق ولدى القارئ. والأهم من ذلك أن هذه الإصدارات ضمنت حجمًا من الإعلانات يمكنها من الصدور بسهولة ويسر.

هذه الوضعية تجعل الصحف مستقلة تمامًا عن الحكومات؛ فهي لا تسعى إلى دعم ولا تريد معونة حكومية تمكنها من الاستمرار.

إن المعلنين يؤمنون بأهمية الإعلان في الترويج لسلعهم؛ لذلك يستخدمون الصحف كوسيلة ناجحة للإعلان، بعكس الوضع العام في بلادنا، فالتاجر لا يريد الإعلان عن

سلعته ويستخدم الفائض المالي لديه للإعلان في الصحف الحكومية عن تأييده المطلق لسياسات الحكومة. هذا التاجر يصّر في كل مناسبة أن ينشر إعلانات ضخمة عن شكره الدائم للحكومة، ويثني على عبقريتها، وقدرتها على إدارة أمور البلاد.

الصحف العربية محرومة من الدخل الإعلاني، كما أن سوق التوزيع لا يغطي نفقاتها؛ بسبب تخلف المواصلات، وتدنّي الخدمات، فالصحف المصرية تصل إلى مناطق عديدة في مصر اليوم التالي لصدورها. ومحافظّة كبرى مثل الإسكندرية لا يوجد بها مطبعة تقوم بطبع الصحف القومية وتوزيعها في المدينة الكبرى في نفس اليوم.

إن الواقع متخلف، ويعاني من غياب الحداثة؛ لذلك الذي يتأثر بهذا المناخ، هو الصحف، التي تجد نفسها ضعيفة محتاجة دائماً أن تمدّ يدها إلى الحكومة لطلب المعونة والإحسان!

ودائماً تُذكر الحكومة الصحف المعارضة، بالتحديد المشاغبة أنها تصدر بفضل كرمها، فلولاً الدعم الحكومي ما

خرجت لا "وفد" ولا "أهالي" ولا "أحرار" ولا "صوت العرب".

ورغم أن صحف المعارضة في مصر تحاول اقتطاع جزء من كعكة الإعلانات إلا أن الشركات خصوصًا الحكومية تخاف من الإعلان في صحف تنقد الحكومة؛ لذلك اختارت هذه الشركات جانب الأمان ولا تقدم إعلانات لصحف المعارضة.

ضعف السوق الإعلاني في العالم العربي يجعل من مهمة إصدار الصحف مهمة شاقة للغاية بعكس الوضع في المجتمعات الغربية التي تسمح سوقها بإصدارات جديدة ومطبوعات مختلفة. تصدر كلها بجهود ذاتية وعن طريق شركات مساهمة تتمكن من تأكيد وجودها عبر التوزيع من خلال عائد الإعلانات المجزي.

إن هناك مجلات للسينما وأخرى للمسرح والغناء والكتب ويوجد بجانب ذلك مئات المجلات التي تصدر في كل فرع وتمويل هذه الإصدارات يتم ذاتيًا، فلا الحكومة تدخل في التمويل ولا وزارة الاقتصاد تمنحها الورق المدعوم.

هذا الأمر ينعش حركة النشر في الغرب بينما نحن سوقنا ضيق؛ لأن الأمية منتشرة، ولأن السوق الإعلاني لا يقدم إعلانات للصحف والمجلات الجديدة تجد نفسها تطلب العون الحكومي للاستمرار.

ولأن الحكومة تدعم فإن بمقدورها أيضاً رفع الدعم ومعناه إغلاق الصحيفة وترحيل عمالها.

إن صحفاً مصرية مثل الجمهورية والمصور وروز اليوسف لو ارتفع عنها الدعم الحكومي لأغلقت في نفس اللحظة وصحف المعارضة التي تثرثر كثيراً عن الحرية غير مستقلة؛ لأنها تصدر بسبب أن الحكومة تريد ذلك. إن الصحفيين الذي يعملون بصحف المعارضة يقبضون مرتباتهم من مؤسسات الحكومة كذلك الورق تدعمه الحكومة.

هذه الوضعية تجعل هذه الصحف في وضع حرج ولا أتصور أن هذه الصحف ستتمكن من انتزاع حريتها قبل أن تتمكن من تمويل نفسها ذاتياً، بالاعتماد على توسيع قنوات التوزيع والتركيز على سوق الإعلانات.

لقد أرادت الحكومة في الأيام الماضية "قرص أذن" صحف المعارضة فأصدرت المؤسسات الصحفية الحكومية قراراً بمنع الصحفيين المعيّنين بضامن العمل في صحف المعارضة هذا القرار هدد صحف المعارضة بالتوقف فعلى الرغم من صدور تلك منذ أكثر من عشر سنوات إلا أنها لم تتمكن من إعداد الكادر الصحفي الذي يقودها بدلاً من الاعتماد على كوادر صحف الحكومة.

إن الغرب يصدر صحفاً جديدة بينما نحن نعاني من مأزق حقيقي لا يسمح بصدور صحف جديدة وإنما على العكس يهدد بتوقف صدور الصحف الموجودة حالياً.

الانتحار على الطريقة الأوروبية

المتأمل لخريطة أوروبا السياسية، سيلاحظ أن الأحزاب المحافظة التقليدية، تحرز تقدماً كبيراً، تنال ثقة الناخبين، تستمر في السلطة، بدون منافسة من أحزاب المعارضة الإصلاحية والراديكالية. تحكم بأغلبية كبيرة، التي تمنحها تفويضاً كاملاً في إعادة صياغة التركيبة الاجتماعية.

والأحزاب المحافظة، مستمرة في كسب مساحات عريضة من الأرض السياسية؛ وهذا يمنحها الثقة بالنفس، ويطلق يدها في مس المكاسب التي تحققت خلال حكم الأحزاب الإصلاحية والليبرالية والاشتراكية.

واستمرار هذه الأحزاب في السلطة مدة طويلة، يعطيها الفرصة لإعادة صياغة الأفكار، بما يتفق مع الفكر الاقتصادي الحر، الذي يركز فقط، على قوانين الربح والمنافسة، ولا يهتم بعمليات العدل الاجتماعي، وتحقيق التوازن داخل تركيبة المجتمع.

استمرار هذه الأحزاب في السلطة، ينتج عنه بطالة كبيرة، تجد نفسها خارج اللعبة الاقتصادية، ولا تمارس عملاً، ولا تشارك في تنمية، تصبح كمًا مهملاً لا دور ولا وظيفة.

وفي ظل انخفاض وضع هذه الملايين المادي، فإن الأفكار السوداء تزحف إلى رأسها ببساطة شديدة، تغذيها أحزاب فاشية صغيرة، تجد في هذه القطاعات المناخ المناسب لنمو الفكر النازي العنصري المضاد للبشر وللحضارة.

ويساعد على ازدهار هذه الأفكار العداء العام للفكر الليبرالي والعقلي المستنير. الذي تهاجمه الأحزاب التقليدية المحافظة ليل نهار، تلك التي توجه حملات ضارية إلى الإصلاحيين الاجتماعيين، وأنصار حركات السلام، والمدافعين عن فكرة العدالة بمفهومها الاجتماعي والسياسي.

ويدعم هذه الأحزاب إعلام ليس له عقل، يروج لأفكار متخلفة، معادية لفكر السلام العالمي، مضادة لحضارات وأفكار العالم الثالث. تصيغ هذه الوسائل عقل الإنسان

الأوربي بطريقة عنصرية شريرة، تجعله يكره الآسيويين والهنود والعرب وكل ما هو ليس أوروبياً غريباً أو أمريكياً. هذا المناخ العام الذي تغذيه الأحزاب الحاكمة بفكرها اليميني المتخلف، يمنح الأحزاب النازية والفاشية فرصة للازدهار والنمو. فالأرضية مهيئة وصالحة لبروز أحزاب تعيد تمجيد "هتلر" تنتشر صوره في كل مكان، باعتباره الرجل الذي قدم حلاً لأوروبا للخلاص من مشكلاتها، عن طريق حرق العناصر التي لا تحمل دماً أوروبياً نقياً وباحتلال الدول التي ترفض هذه النظرية المدمرة للجنس البشري وللحضارة الإنسانية.

إن الأحزاب الصغيرة الفاشية، تنمو في صفوف الشباب الأوربي العاطل عن العمل، الذي يعيش ظروفاً صعبة قاسية، وتثقل الأحزاب الحاكمة أبواب الأمل في وجهه، هذا الشباب الذي تفتقره البطالة والمخدرات والخمور، لا يرى أن سبب مشكلاته طبيعة نظام اقتصادي واجتماعي، يمكن تغييره، وإنما يجد أن الأزمة الطاحنة، التي يعيش في أوتونها سببها العمالة المهاجرة من بلاد العالم الثالث والتي

تعيش على أرض بلاده وتسلبه حق العمل، وتستحوذ على الأموال وكل فرص الحياة.

هذا الوعي المسلوب في عقل الشاب الأوربي يجعله يتصرف بشكل أحمق عدواني، يهاجم الملونين في طرقات باريس ولندن، يحرق متاجر الآسيويين البسطاء، يدمر مساكنهم، ويقتل أطفالهم. يفعل ذلك وهو يرتدي معطف النازية، ويعلق على صدره صليبيها المعقوف وصورة هتلر.

وتستغل الأحزاب الصغيرة الفاشية هذه الجماعات للنفخ في النيران حتى يمتد الحريق ويشتعل. فرجل مثل السفاح الفرنسي "لوبن" أصبح زعيمًا سياسيًا، دخل البرلمان الفرنسي، دفعته هذه الجموع العاطلة ذات الوعي المسلوب إلى البرلمان، يطالب من خلال البرلمان الفرنسي العريق بعودة محارق هتلر، لتقتل مرة أخرى وتبيد من لا يتفق مع النهج النازي الجديد، الذي يحمل فكرة الخلاص للعالم عن طريق قتل الملونين وكل من لا يحمل دماء أوربية زرقاء.

هذا الفكر خطير، لكنه ينمو في أوربا، نلمحه في بريطانيا من خلال الشعارات المكتوبة على الجدران وفي أنفاق المترو، تطالب بالموت للأجانب ونفي الآسيويين، نراه

من خلال مسيرات هذه الأحزاب الصغيرة، ومن خلال اعتداءاتها المستمرة في الأحياء الفقيرة، وفي بعض الأماكن الحساسة من لندن.

هذا الفكر العنصري ضد الإنجاز البشري الحضاري؛ لذلك نحن ضده، فنحن مع الديمقراطية ضد الفاشية. هذا موقف الفكر الوطني العربي، وسيظل دائمًا على وعي شديد بهذه القضية؛ لذلك نحن لا نفرح إذا طالب الفاشي "لوبن" الفرنسي بإحراق اليهود كما فعل هتلر فهذه مسألة نحن نعيها سياسيًا تمامًا. لقد وقف العرب في الحرب الكونية الأخيرة مع الحل الديمقراطي ضد النظرية النازية. وكان هذا اختيارًا صحيحًا مئة في المئة. وأتصور أن موقفنا السياسي من "لوبن" وغيره يستلهم هذا الموقف.

نحن من منطلق سياسي ضد هذه الحركات؛ لأنها تمارس عنفها ضد المواطنين المغاربة والجزائريين في فرنسا. وتعمل نفس الشيء في بلجيكا وألمانيا. وهتلر نفسه كان يصنف العرب في مكانة سفلى ضمن الشعوب المتخلفة التي يجب استعبادها؛ لأنها غير صالحة لحكم نفسها بنفسها.

إن أوروبا مأزومة لذلك تخرج من معطف الأزمة هذه
الجماعات النازية المدمرة، ونحن نفهم طبيعة الأزمة ونوعية
إفرازاتها السياسية؛ لذلك من المهم ألا نسقط في حبالها لأن
العمى السياسي سيقودنا لتأييد حركات فاشية تستهدفنا قبل
غيرنا، وإن كانت تحاول استعمال بعض المناورات التي
تؤجل المواجهة معنا إلى حين.

أنوار العقل

حضرت في القاهرة وقائع معرض الكتاب الدولي، الذي انعقد للمرة الأولى منذ ربع قرن في شهر رمضان الكريم. ورغم قلة الإقبال في الأيام الأولى على هذا الحدث الثقافي البارز كل عام، إلا أن الندوات التي انعقدت جذبت الجمهور إلى القاعات حيث جرى حوار ساخن للغاية، يعبر عن جدية، ليست مصرية فقط وإنما عربية أيضًا. وأعتقد أن سمة معرض هذا العام هي جذب شخصيات عربية في مجالات الأدب والفكر والفنون. وخلال متابعة لوقائع ندوات المعرض أدركت أن قضايا الأمة واحدة، سواءً تجاه التصنيع أو الاقتصاد، أو ما يتعلق بقضايا حرية الفكر والتعبير وتعددية المنابر. وحضور هذه الندوات يكشف عن الأسئلة المطروحة على وعي الأمة فيما يتعلق بقضية التطبيع والسلام والعلاقة مع إسرائيل.

وقد حضرت ندوة ساخنة للغاية انقسمت إلى فريقين واحد ضد التطبيع بكل صورته، ويقف على رأسه الكاتب سعد الدين وهبة، وآخر يقوده الكاتب السياسي لطفي الخولي، الذي يرى أنه لا مفر من السلام والحوار مع الآخر - العدو السابق- بينما يرفض وهبة فكرة اللقاء من الأساس، ويحاول العودة إلى ثوابت قديمة ترفع شعار لاءات "الخرطوم" التي جاءت عقب نكسة ١٩٦٧.

ومتابع هذا الحوار، يرى أن الأمة العربية من الخليج إلى المحيط منقسمة حول قضية التطبيع؛ لأن الأرض لم تحرر بالكامل، ولا يزال العدو يفرض شروطه، التي تجعل السلام حتى الآن غير مطروح بشكل كامل في ظل التعنت الإسرائيلي.

وخلاف الخولي مع وهبة، قادم من داخل معسكر واحد إذ إن الاثنين ينتميان إلى خندق اليسار بشكل أو بآخر.

وقد دارت في مصر معركة أخرى على هامش معرض الكتاب تتعلق بلقاء "كوبنهاجن" حيث هاجم فريق قوي هذا اللقاء باعتباره يقوم بعملية تطبيع والأرض لا تزال محتلة

ويطرح الفريق الآخر أهمية الحوار وعدم الخوف، والإصرار على المشاركة في لقاءات من هذا النوع. وفي لقاء مع الشاعر الفلسطيني سميح القاسم سخر من قضية قدرة ثقافة إسرائيل للتأثير على ثقافتنا؛ لأنه في رأيه لا توجد ثقافة إسرائيلية.

ورغم عدم مشاركة إسرائيل في معرض الكتاب وحضور العرب المكثف، إلا أن قضية العلاقة مع إسرائيل هيمنت على الحوارات التي دارت داخل ندوات معرض الكتاب بما يكشف أهمية هذه القضية ومعالجتها، وأنها مطروحة على العقل الثقافي بقوة شديدة.

وإذا كان موضوع التطبيع قضية مهمة شغلت الاهتمام في معرض الكتاب فإن قضية التنوير كانت على قمة الحوار في ندوات ساخنة، اصطدم فيها الرأي المحافظ بالآخر القدرى. الرأي الذي يتمسك بالسلفية الفكرية مع أصحاب منطق الانفتاح والدفاع عن قيم العقل.

وهل يمكن تصوّر قيمة حوار يشارك فيه الدكتور حسن حنفي، محمود أمين العالم، د. صلاح قنصوة، إبراهيم فتحي، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، والفنان عدلي رزق.

لقد فجّر كتاب الدكتور جاب عصفور "أنوار العقل" حواراً ساخناً تزعم فيه الدكتور حسن حنفي الرد على ما أطلق عليه "تنوير الحكومة".

وأنا من تلاميذ حسن حنفي، تربيته على أفكاره وشجاعته الفكرية، لكنني لم أتقبل هذا التصنيف الظالم، حيث إن معركة التنوير ليست بين حكومة وجماعات تطرف، وإنما المعركة بين أنصار المستقبل الزاهر للمنطقة وجماعات تطلق الرصاص الطائش على التنمية والجامعات والأدب والفن، وحاولت اغتيال نجيب محفوظ.

إن منطق الدكتور حسن حنفي لا يرى حقيقة الصدام بين تنوير فكري وظلام سياسي. وقد اختار جابر عصفور الانحياز إلى التنوير وإلى جانب نجيب محفوظ.

وكانت هذه الندوة تكشف أبعاد برلمان يمثل قوى مختلفة، وتري أن الصورة مشجّعة، طالما أن الأمر ارتبط بالحوار والفكر والاجتهاد. ولم يخرج عن هذا الإطار.

وقد خرجت من هذه الندوة ولدي الأمل في مستقبل الحوار، فعلى الرغم من ظلمات حادة انطلقت من هذا الفريق أو الرأي الآخر، غير أن طبيعة الحوار والجدل تدل على

نمو خلايا الفكر، وتبين الندوة أن الحرية لا تخيف على الإطلاق، وإنما هي صمام الأمن الاجتماعي.

إن هذا البرلمان السنوي العربي الذي يُعقد في القاهرة فرصة للتعرف على نمو العقل وازدهار قيم الجدل والحوار.

والمأمل لهذه اللقاءات يرى سمات أحزاب فكرية متكاملة ليست في مصر فقط وإنما في العالم العربي.

ويحتاج هذا الحوار إلى التبلور وفرض نفسه، وطرح البديل لجماعات الاحتجاج المسلح التي تفرض رأيها بالقوة.

إن الحوار هو البديل للرصاص والمدافع الرشاشة، ويمثل علامة نمو، وإنما الآخر يعكس أزمة تخلف رهيبية.

ونأمل في سيادة منطق معرض الكتاب، حتى يصبح الحوار، بديلاً للعنف، والكلمة بديلاً للرصاص والمدفع في معركة الحرية والتنمية العربية.

تحالف صحافة "الزباله"

اللوبي الصهيوني في بريطاني رغم ضآلة حجمه بالمقارنة بنظيره الأمريكي، إلا أن صوته مرتفع وصاخب على صفحات الجرائد الشعبية المعروفة في بريطانيا باسم "التابلويد".

هذه الصحف لا يهتمها توثيق أخبارها ومعلوماتها؛ لذلك يشكو منها مجلس الصحافة البريطاني، لكن بما أنه استشاري، فلا يستطيع كبح جماحها، إلا أن القضاء البريطاني، يتربص دائماً بها ويجبرها على دفع التعويضات الباهظة كنوع من العقاب المادي على اختياراتها الصحفية.

صحف "التابلويد" في بريطانيا توزيعها ضخم، والصحيفة التي يملكها روبرت ميردوخ، الناشر الأسترالي "الصن" توزع يومياً أكثر من أربعة ملايين نسخة، وهي تقدر مساحة خاصة في الصفحة الثالثة لصور تمتهن الجسد

الإنساني، وتحوّله إلى سلعة رخيصة في سوق النخاسة، واستثمار المشاعر الحسية.

بجانب هذا الاستثمار الحسي للغرائز، تركّز صحف "التابلويد" على اختلاق القصص المثيرة، فهي تتسلل إلى كواليس الحياة الخاصة لرجال السياسة والشخصيات العامة، وكان النائب العمالي في البرلمان البريطاني كين ليفنجستون اشتكى مر الشكوى من أن مندوبي هذه الصحف يحاصرونه بشكل دائم، ويبحثون في صناديق القمامة الموضوعة في الساحة الخلفية لمنزله، عن قصص مثيرة تصلح عناوين صاخبة في صدر الصفحة الأولى.

وعندما لا تجد هذه الصحف الحكايات الساخنة التي تبحث عنها في صناديق القمامة، تعمل على تصنيعها بنفسها، وهذا ما حدث تمامًا مع النائب البرلماني السابق جيفري ارشر، الذي كان يشغل منصب نائب رئيس الحزب الحاكم. خرجت صحيفة من صحف الزبالة ذات صباح بعنوان صاخب عن علاقة خاصة تربط النائب البرلماني بفتاة ليل.

هزّت القصة بريطانيا، ولم يجد الروائي المعروف الذي احترف العمل السياسي، سوى الاستقالة من منصبه، لكنه رفع

الأمر للقضاء، الذي أقرَّ بأنه بريء من هذه التهمة، وألزم الصحيفة بدفع نصف مليون جنيه لجيفري ارشر.

وإذا كانت صحف "التابلويد" تتاجر في سوق القضايا الحسية والغرائزية، فإنها من جانب آخر متخصصة في الهجوم على ثقافات مختلفة، وتكثف نيرانها على عادات الشعوب غير الأوروبية، وتعتبر من لا ينتمي إلى الحضارة الغربية، من سكان كهوف العصر الحجري.

تركز الصحف الزبالة هجوماً على العرب وثقافتهم وشخصيتهم، وقد نجحت في تصوير أباظيل عن الشخصية العربية داخل أوساط القراء شبه الأميين، الذين يدمنون هذا النوع من الغذاء العنصري الفاسد.

ولأن العرب لا يعرفون الطرق القانونية للجم هذه المنابر العنصرية، فإن صحافة الزبالة تتعمد دائماً التشهير بالعرب وانتقاد سلوكياتهم وثقافتهم.

وصحافة الزبالة، إذا كانت ضد العرب على طول الخط؛ لأن أغلبها مملوك لرعوس أموال يهودية، فإنها من ناحية أخرى منحازة إلى إسرائيل، ولا ترى فيها سوى واحة الديمقراطية في أرض عربية قاحلة تماماً.

ولا تخجل هذه الصحف من الوقوف ضد الحقيقة على طول الخط، والانحياز دائماً إلى الأكاذيب.

بسبب هذا الانحياز، تشن صحافة الزبالة حملات مكثفة على الدبلوماسيين في الخارجية البريطانية، بدعوى أن رجالها منحازون إلى العرب ومعجبون بالثقافة العربية منذ "لورانس" الذي سحرته الصحراء والجمال، وهو الدبلوماسي البريطاني الذين ذهب في مهمة محددة إلى المنطقة في بداية القرن، فسقط في مصيدة الرومانسية العربية وأجواء الحياة داخل جزيرة العرب.

وأذكر أنه منذ سنوات كان ديفيد ميلور، وزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية في زيارة للأراضي المحتلة، شهد الوزير مظاهر حية للقمع الإسرائيلي في الأراضي المحتلة، وبينما كان ميلور يتفقد مخيمات اللاجئين، وتصبه كاميرات التلفزيون البريطاني، وجد ضابطاً إسرائيلياً يعتدي على صبي عربي بالضرب المبرح، استفز المشهد الوزير البريطاني، الذي ترك الوفد الذي كان يصحبه في جولته وذهب ليمنع اعتداء الضابط الإسرائيلي على الصبي العربي.

قامت مشادة بين الوزير ابن البرلمان البريطاني،
والعسكري الإسرائيلي ابن المؤسسة القمعية الصهيونية، تابع
البريطانيون هذا الصدام، حيث ارتفع صوت ميلور يحتج
على وحشية بني صهيون، ضد بني العرب.

كان المشهد يشكل امتهاناً للأسلوب الديمقراطي، الذي
تربى عليه ميلور، كان الوحش الإسرائيلي المدرع بأدوات
القمع والتعذيب يمارس ساديته العدوانية على صبي عربي
أعزل لا يملك سوى صوت الاحتجاج والرفض.

عندما عاد ميلور من جولته انطلق في المقابلات
التلفزيونية البريطانية يندد بالأسلوب الهمجى، الذي يدفع
الإنسان إلى الحضيض، لكن صحافة "الزباله" المنحازة إلى
إسرائيل دوماً، شنت حملة ظالمة ضد ديفيد ميلور، واتهمته
بالسذاجة وبسقوطه ضحية الإعلام العربي، الذي يعرف كيف
يتسلل إلى عش الخارجية البريطانية ويغرر بالدبلوماسيين
الشبان، تماماً كما فعل مع "لورانس" في بداية القرن.

وعندما نقلت مارجريت تاتشر وزيرها الشاب إلى
وزارة الصحة في تعديل وزارى فرضته تطورات داخلية في
بريطانيا، خرجت صحف "الزباله" تقول إن ميلور انتقل إلى

الصحة عقابًا له على تأييده للعرب وهجومه على إسرائيل، ولم يكن ذلك صحيحًا؛ لأن انتقال ميلور إلى الصحة، لم يكن إلا دفعة قوية إلى الأمام للوزير الشاب الطموح المتطلع إلى مواقع أكثر تأثيرًا داخل هيكل الوزارة البريطانية، لكن صحف التابلويد استغلت التعديل الوزاري الذي حرّك ميلور من موقعه في الخارجية البريطانية لبثّ الخوف في قلوب الوزراء، وتأكيد أن إسرائيل منطقة محرمة على النقد، وأن أي وزير يهاجم إسرائيل سيكون مصيره مثلما حدث لميلور، أي الذهاب إلى منفى وزارة الصحة!

عندما جاء وليم وولدغريف على منصب وزير الدولة للشئون الخارجية محل ميلور، لم يكن أمامه سوى مواصلة السياسة نفسها التي انتهجها سلفه، انتقد الوزير الجديد الأساليب الإسرائيلية، ودعا "تل أبيب" للخروج من الأراضي المحتلة وتجميد بناء المستوطنات، واستحق وولدغريف الهجوم نفسه الذي تعرض له ميلور، عندما تصدى للوحشية الإسرائيلية، وطالب إسرائيل بانتهاج السلوك الحضاري والكف عن استخدام الوسائل النازية.

وإن كان ميلور أثناء شغله منصب وزير الدولة البريطاني للشئون الخارجية هدف صحف الإثارة، وسار على نهجه وليم وولدغريف، فإن وكيل الخارجية البريطانية لشئون الشرق الأوسط ديفيد غروبوت هو الضحية الثالثة، وهذه المرة شنت الحملة صحيفة "الميل أون صانداي" التي قامت بنشر محضر سري لاجتماع مغلق لمجلس التقاهم العربي - البريطاني، انعقد في شهر مارس (آذار) الماضي. كان الاجتماع سرياً، ووقف فيه ديفيد غروبوت، يعلن أن إسرائيل دولة غير ديمقراطية، وأن على العالم الضغط عليها لإجبارها على الخروج من الأرض المحتلة. قال وكيل الخارجية، إن استمرار إسرائيل في احتلال الأراضي العربية يساعد على التطرف، الذي يغذيه الإحباط داخل المنطقة كلها.

شخص ما، قام بتسجيل تصريحات ديفيد غروبوت، وقام بتسليمها إلى الصحيفة البريطانية التي لم تنشرها إلا في الآونة الأخيرة.

شنت "الميل أون صانداي" حملة مخيفة على الرجل، طلبت استقالته ومحاكمته، فكيف يتهم إسرائيل بأنها دولة غير

ديمقراطية، وهي الدول التي لديها البرلمان والأحزاب والصحافة الحرة.

وطالبت "الميل أون صانداي" أن تحدد الحكومة البريطانية موقفها وأن تلزم اللوبي العربي داخل الخارجية البريطانية بالصمت؛ لأنه يعرض مصالح بريطانيا للخطر. لم تهتم الخارجية البريطانية بالحملة على ديفيد غوربوت، إلا أن وكيل الخارجية اختفى تمامًا من المقابلات الرسمية، وعندما حضرت لقاءً مع وزير الدولة البريطاني دوغلاس هوغ، لم يظهر، وهو الحريص دائمًا على حضور هذه المناسبات.

وإن اللوبي الصهيوني مارس الإرهاب ضد وكيل الخارجية البريطانية، وتولّت صحافة الزبالة إطلاق النار عليه، وحصاره، ومنعه الخروج لممارسة وظيفته الرسمية. والمثير في الأمر، أن صحافة الزبالة ضد القواعد الديمقراطية في بلد يفتخر بتجربته البرلمانية الموجودة منذ ٧٥٠ عامًا، إن صحافة الابتزاز تمارس الإرهاب والضغط، وتعزف على أنغام الابتزاز، وهذا الموقف يشكل خطرًا على حرية التعبير، وإذا كان رجل مثل ديفيد غوربوت، لا

يستطيع التصدي لحملة التتار في شارع الصحافة البريطانية،
فما هو وضع رجل من عامة الناس لا يملك حولاً ولا قوة؟
ولديه وجهة نظر مختلفة عن منطق صحافة الزبالة
وأصارها داخل اللوبي الصهيوني في بريطانيا.

إن صحافة الزبالة في بريطانيا تتحالف مع اللوبي
الصهيوني، الذي بدوره يعتمد على الابتزاز والإرهاب،
ويشن حملات عنيفة ضد كل صاحب وجهة نظر لا ترى في
إسرائيل واحة الديمقراطية، وإنما تتعامل معها على أنها دولة
قمعية تصرّ على تطبيق سياسة القبضة الحديدية.

إن صحافة الزبالة، التي ترفع راية العداء للسامية ضد
كل صوت ديمقراطي حر، صمتت تماماً عندما انتقد زعيم
يهودي بريطاني (جاكوبوفيتش) الممارسات الإسرائيلية،
وطالب بحل القضية العربية والكف عن استخدام القوة لقهر
حرية الآخرين.

لم تملك "الميل أون صانداي" اتهامه بأنه يعادي
السامية، وإن كانت صحيفة "الجويش كرونكل" صوت
الجالية اليهودية لم تخل من التلميح بذلك، لكنها أرجعت
موقفه إلى الشيخوخة التي ترحف إلى عقل اللورد، الذي

كانت تراه مارجريت تاتشر بعيدًا عن العقلانية والاتجاه المعتدل.

إن صحافة "الزبالة" في بريطانيا ظاهرة محيرة في بلد ديمقراطي حر، يحترم الرأي الآخر.. ويبدو أن انتشار هذا النوع من الانحطاط الصحافي المسئول عنه حالة الانقسام الواضحة في بريطانيا، والتي تفصل المجتمع في نخبة وحرافيش.

إن غذاء النخبة في بريطانيا، تصيغه وجبات صحافية دسمة على موائد صحف مثل "التايمز" و"الجارديان" أما الحرافيش فهم يأكلون المواد الصحافية الضارة بسبب ثقافتهم المتدنية ومستواهم الثقافي الذي يحتل موقع الحضيض.

إن أهل القمة يتمتعون بمستويات ثقافية راقية؛ لذلك من الصعب امتهان عقولهم، لذلك الصحف المحترمة تضم مقالات، لا نقول إنها متعاطفة مع العرب، لكنها تلتزم الحقائق، لذلك تكشف هوية إسرائيل وممارستها النازية، أمّا أهل القاع فهم داخل كهف مظلم يعيشون على المستوى الحسي فقط؛ لذلك تنتشر لهم صحف "الصن" يوميًا لقطات جسدية مثيرة، تخاطب غرائزهم، لا عقولهم التي في إجازة

مفتوحة بسبب غياب الثقافة وافتقارهم إلى التعليم وسلب وعيهم.

اللوبي الصهيوني في بريطانيا، بسبب تدهور مستوياته السياسية التي تعبر عنها شخصيات مثل شامير وشارون، يتحالف مع صحافة الزبالة، التي تعبر بالضبط عن فكر ينتمي إلى مخلفات العقل البشري، هذا اللوبي، لا يزال يعتبر أن البقاء للأقوى وليس للأصلح.

إن صحف الزبالة تخرج النخبة البريطانية وتضعها في مأزق وتكشف تدهور القيم والثقافة في بريطانيا بشكل عام، إن النخبة جالسة في مقاعد الصفوة، تتغذى على فكر وثقافة مختلفة، بينما تترك أغلبية كبيرة من العقول البريطانية، داخل أنياب الفك المفترس لصحافة التابلويد، التي يملك أغلبها روبرت ميرودخ، وروبرت ماكسويل، ويشغل اللوبي الصهيوني حالة أهل القاع الثقافية المتدهورة، فيضع الغذاء الفاسد عبر صحف الإثارة.

إن صحافة الناشر الاسترالي ومنافسة اليهودي التشيكي الأصل، تعتمد على تقنية حديثة، لكن مضمونها جاهلي وتحالفاتها عنصرية مواقفها ساقطة في مستنقع

"مصنع الأكاذيب" الذي يحوّل الصحافة من مهنة نشر الحقائق والمعلومات، إلى وسيلة للارتزاق على حساب الحقيقة والأخلاق والديمقراطية أيضاً.

العميد وبرومينوس وسقراط

رغم أن د. طه حسين، رحل عن عالمنا منذ سنوات، إلا أن أفكاره لا زالت تثير حساسية البعض، وتسبب لهم "ارتكاريا" فكرية، إن هناك محاولة بدأت منذ غياب الرجل لتثويته صورته في ذهن الجيل الجديد، وهدفها الحقيقي الانتقام من مواقف عميد الأدب العربي، الذي جاهد خلال حياته العلمية والأكاديمية والسياسية لتحقيق شعاره العظيم "العلم كالماء والهواء حق لكل مواطن".

كان شعار طه حسين، هو راية الديمقراطية الاجتماعية التي تريد اختراق حصار الصفوة، وتركيز المعرفة في أيدي شريحة رقيقة تملك حق العلم والمعرفة والثقافة.

يذكرني دور طه حسين بالوظيفة التي كان يقوم بها الفيلسوف "سقراط" الذي أنزل المعرفة من الأدوار العليا وجعلها في متناول عامة الناس، كان الفكر في عصر سقراط مهنة الخاصة، فقام الفيلسوف القديم بالتمرد على هذه الأفكار،

وأصرَّ على أن المعرفة في قلب كل البشر، وأن مهمة المتقف الحقيقي استقرازاها بالجدل، حتى تطفو على السطح.

طه حسين، هو سقراط العرب، وإذا كان الأخير تجرَّع السم مختاراً عندما عاقبته النخبة الإغريقية على موقفه التنويري، فإن طه حسين كان أكثر قوة من سقراط أثينا؛ لأنه تحدى النظام كله ومارس النضال السياسي لتحويل شعاره إلى حقيقة. وعندما أصبح وزير المعارف في حكومة الوفد، اتخذ القرار الذي أثَّر على هوية المسار المصري حتى الآن؛ إذ أعلن مجانية التعليم كاملة حتى المرحلة الثانوية، وكان العميد يخطط أن تشمل المجانية التعليم الجامعي بعد ذلك، وعندما جاءت ثورة يوليو (تموز) تبنت شعار طه حسين بالكامل.

وعندما كان طه حسين، يرأس قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، وعندما كان عميد كلية الآداب، شجع أبناء المجتمع كله على تحصيل العلوم الأكاديمية، وقد سجل محمد مندور حتَّ طه حسين له على دراسة العلوم اليونانية القديمة، وإرساله في بعثة إلى فرنسا لدراسة النقد المنهجي عند الغرب.

كان طه حسين خصمًا قويًا للاتجاهات التي تريد حرمان كل المجتمع من نور العلم والثقافة، وعندما رحل الرجل في أكتوبر "تشرين الأول" عام ١٩٧٣، خرجت كتب أهل التكفير الفكري والاجتماعي تهاجمه، وتطعن في تراثه ومواقفه بإثارة الشبهات حوله وتحريك الاتهامات ضده. وخلال ١٨ عامًا لم تتوقف الحملات، وتعجبت لمقالة ظهرت في "الهلال" المصرية تردد أقاويل غير موثقة ضد العميد.

إن د. طه حسين علم من أعلام التنوير العربي، ويكفي مراجعة تاريخ الجامعة المصرية لمعرفة أثره العظيم، ولا يمكن لشخصية محورية في معركة الحضارة ضد التخلف أن تكون وقعت في مصيدة العمالة لفكر ضد هذه الأمة. إن طه حسين هو "برومينوس" عصرنا الذي سرق النار ووضع شعلة العلم والمعرفة في أيدي الناس؛ لأنه كان يؤمن بحقهم في حياة أفضل، وأن تحقيق هذا الهدف لن يتم، إلا بعد جعل العلم كالماء والهواء حقًا لكل مواطن.

إن عصور التراجع شهدت قمة الهجوم على طه حسين بعد وفاته، إلا أن جامعة القاهرة أقامت العام الماضي احتفالها

المهيب لتكريم فكر العميد، وجلست الأجيال التي فتح أمامها
طه حسين باب العلم والمعرفة تتحاور، حول دور هذا
الرجل، بينما كانت بعض الأصوات التي تناضل ضد تيار
الحياة تشن حملة عليه عقابًا عما ارتكبه من جريمة؛
لأنه سرق حق العلم والمعرفة وجعله مثل الماء والهواء.

إن المعارك الفارغة ضد طه حسين تعكس نوعية
غريبة من الأفكار لا زالت تجادل ضد الحقوق الفطرية
للإنسان، ولا زالت هذه المواقف تمارس خططها السخيفة في
محاربة رواد التنوير بإثارة الشبهات حول دورهم، وهي
تقصد من وراء ذلك إثارة الغبار وإرباك العقل العربي.

والرد الوحيد على هذه الحملات هو الإصرار على
منطق طه حسين وطريقه الوحيد القادر دائمًا على إخراجنا
من حفر التخلف إلى آفاق العصر والحياة.

التطرف أوروبياً

من يتأمل الساحة الأوروبية يرى أن الفكر التنويري والحركات الراديكالية السياسية تعاني من الانحسار في ظل نمو اليمين الذي يطرح نفسه باعتباره القادر على القيادة وحل كافة القضايا.

وهناك أصولية أوروبية تنمو على أنقاض الأحلام اليسارية القديمة، وتتبع الأحزاب العنصرية على أرضية ضمور الفكر الراديكالي الذي يتحدث عن المساواة وأنه لا يوجد فضل لأبيض على أسود على آسيوي أو أفريقي.

ورغم نمو حركات الدفاع عن الحريات الإنسانية والحقوق البشرية إلا أن أوروبا التي رفعت رايات الحرية والمساواة، وشعار "دعه يعمل دعه يمر" تعاني الآن من أزمة تتبع الاتجاهات العنصرية والتي تعبر عن أفكارها بشكل واضح يقترب من "الوقاحة" السياسية والفكرية.

وأوروبا في حالة مرض، رغم مظاهر التطور التقني، والحقيقة أن هناك أزمة غربية عامة تبرز في اتجاهات

حركات دينية متطرفة تظهر على سطحها أفكار التكفير والانسحاب من المجتمع بحثاً عن عالم أفضل وحياة أرقى. إن الغرب الذي وصل إلى قمة التطور التكنولوجي يضم قطاعات مثقفة يمارس أعضاؤها الانتحار، احتجاجاً وانسحاباً ويأساً، تلك أزمة خانقة لها عدة أسباب إنها التطرف العلمي، وغياب عقيدة تعيد التوازن، وأيضاً نتيجة التطرف في الشعور الفردي ومظاهر السعادة الفردية. وإذا كانت حركات التطرف الدينية تدفع بأعضائها نحو الانتحار، فإن منظمات التطرف السياسي تدعو إلى انتحار آخر، يعتمد على العنصرية وعودة ثقافة الزهو العرقي وغلق الأبواب والنوافذ أمام ثقافات أخرى واعتبارها أدنى من الثقافات الأوربية.

وإذا كان بنيامين نتانياهو رئيس وزراء إسرائيل فاز بتشكيل حكومة مهووسة عنصرياً، ومعادية للعرب، فإن الفرنسيين أعطوا حزب جان ماري لوبن ٢٦% من أصوات الناخبين في الانتخابات الرئاسية الأخيرة. وهذه النسبة خطيرة؛ لأنها قادمة من مجتمع بنى هيكل وجوده المعاصر

الحديث على فكرة الحرية والمساواة، ورفض مبدأ التقسيم العنصري.

إن صعود بنيامين نتانياهو إلى السلطة في إسرائيل يعبر عن ثقافة العنف داخل المجتمع الإسرائيلي، الذي يرى في السلام تحطيماً لآماله في التوسع واغتصاب الأرض.

وإذا كان صعود نتانياهو يفجر العنف والغضب فإن زيادة المؤيدين لحزب الجبهة الوطنية في فرنسا يفجر القلق على مصير أوروبا، التي رفعت دائماً أعلام المساواة والحريات والدفاع عن حقوق البشر.

والمظاهرات الصاخبة الأخيرة التي شهدتها فرنسا ضد الحزب الوطني العنصري تعبّر عن رفض الأجنحة الديمقراطية والليبرالية لخطاب المد الأصولي النازي الذي يطرح نفسه على ساحة فرنسا.

غير أن لوين، يرى أن هذه التظاهرات استعراض من قوى اليسار ضده، وأن الفرنسيين سيعطون المزيد من أصواتهم لحزبه في الانتخابات المقبلة.

واعتقد أن السياسي الفرنسي يدرك أن هناك أزمة واضحة وأنه سيحصد ثمارها، ليس في فرنسا فقط وإنما في

أوروبا حيث دعا الحركات المتطرفة إلى التكاتف والتعاون معًا.

ويستهدف لوبن إقامة جبهة وطنية أوربية ترفع شعار أوروبا للأوروبيين لطرد الجالية المهاجرة والأعراق الأخرى. وهذه دعوة للتطهير العنصري، عبّرت عن نفسها من خلال القيادة الصربية النازية التي حاولت ذبح المسلمين في يوغسلافيا السابقة.

ودعوة لوبن تجد أصداءً لها في بريطانيا حيث تنمو أطراف اليمين في اتجاه مناخ الأزمة، وإذ سقط حزب المحافظين الحاكم في انتخابات الأول من مايو فإن تياراً وطنياً عنصرياً سيرز داخل الحزب العريق ويعمل على التطلع نحو الزعامة.

إن هناك أزمة أوربية في الفكر السياسي تعبّر عنها صعود حركات تطرف تريد قلب معادلة الحرية والمساواة إلى تطهير يعيد إرث الكراهية والتفوق العنصري.

كيف نحافظ على التاريخ؟

أُفرجت وزارة الخارجية البريطانية في بداية هذا العام عن الوثائق التي مرَّ عليها ثلاثون عامًا. ويعارض ليبراليون بريطانيون الفترة الزمنية المحددة لإطلاع الرأي العام على وثائق الدولة؛ إذ يرونها طويلة ولا تعطي الحق في معرفة الأحداث التي تجري في كواليس وزارات الدولة إلا بعد مرور ٣٠ عامًا عليها. وهناك ضغوط لتخفيف هذه الفترة في إطار ما يسمى بالانفتاح العام، وبرز أهمية تبادل المعلومات، وإشراك الرأي العام في عمليات الاطلاع على وثائق الدولة. ورغم هذا الاعتراض على طول فترة السرية التي تخضع لها الوثائق البريطانية، إلا أن الإفراج عن المعلومات والأوراق الرسمية يعد من تقاليد ديمقراطية واضحة. وهذه الوثائق تتشكل مع بداية كل عام الأساس القوي لإعادة قراءة أحداث تاريخية ومعرفة ماذا كان يدور في الكواليس، وما هي شكل الأزمات الداخلية في بريطانيا،

مع الوقوف على رأي الخارجية البريطانية تجاه القضايا الخارجية والدبلوماسية.

وفتح خزانة الأسرار البريطانية مع مطلع كل عام فرصة للباحثين للوقوف على وثائق رسمية، تقدم وجهة نظر بريطانية محددة تجاه القضايا الخارجية.

وما قامت به الخارجية البريطانية من الكشف عن وثائق عام ١٩٦٦، بيّن اقتراب الأحداث من تيار الوعي الزمني لجبلنا نحن.

وينتظر المرء بداية العام المقبل، والذي سيكون شاهداً على مرور ٣٠ عاماً على نكسة يونيو الدامية.

ويتطلع الباحث والسياسي لمعرفة أثر هذه الأزمة الضارية على تحرك السياسة البريطانية آنذاك. خصوصاً أن مصر اتهمت بريطانيا بالتواطؤ مع إسرائيل في معارك ١٩٦٧.

وقد كانت الدبلوماسية المصرية تسعى لتكرار سيناريو ١٩٥٦، الناجح جداً آنذاك، والذي كشف مؤامرة إسرائيلية، فرنسية، بريطانية، فيما عرف بمصطلح العدوان الثلاثي.

ويهم الباحث العربي الوقوف على وثائق بريطانيا في عام ١٩٦٧.

ونأمل ألا يقوم وزير الخارجية باستخدام الحق البريطاني بحجب بعض الأوراق المهمة لأسباب تتعلق بالأمن البريطاني القومي.

ويعطي القانون وزير الخارجية الحق في التحفظ على نشر وثائق معينة لأسباب أمنية. وهذه النوعية من الأوراق تخضع للتصنيف الزمني الآخر، الذي يحدد فترة ٥٠ عامًا للإفراج عنها وطرحها أمام الرأي العام.

وتقليد الإفراج عن الوثائق الرسمية للدولة البريطانية يكشف مدى اهتمام الدولة العصرية بعملية التوثيق. وتصفح أوراق عام ١٩٦٦ يبين أن كل الأحداث مهما كانت صغيرة، وهامشية يجري حفظها والاهتمام بها.

وقد بينت أوراق عام ١٩٦٦ حدوث قضايا صغيرة للغاية مثل حادث سرقة طابع بريد من مكتب رئيس الوزراء آنذاك هارولد ويلسون. كما أن الوثائق أيضًا تذكر العلاقات الخارجية بين بريطانيا ودول أمريكا اللاتينية التي تأثرت بفوز فريق إنجلترا على فريق الأرجنتين.

هذا التوثيق نمط لدولة تحفظ أوراق الذاكرة السياسية والاجتماعية. والأسلوب لا تتفرد به بريطانيا فقط، إنما هو سمة لمجتمعات البنية الديمقراطية التي ترى أن الرأي العام من حقه الاطلاع على وثائق الدولة، وتضع القوانين التي تنظم هذه العملية وتقن خطواتها.

كما أن الفكرة الفلسفية السياسية أن الدولة لا تخص فئة معينة وإنما هي إطار الأمة، لذلك ومن حق الرأي العام معرفة ما يدور في كواليس صنع القرار السياسي، والخلفيات الأخرى المرتبطة بمسار عمل الحكومة والعلاقات الخارجية، والاطلاع على أداء سفارات الدولة، ووجهة نظرها في أحداث وملفات دبلوماسية وسياسية.

ونتيجة هذا التوثيق، لا توجد خلافات حادة فيما يتعلق بكتابة التاريخ؛ لأن كل شيء جرى إثباته بأوراق رسمية لا تسمح بالاجتهادات.

وإذا تأملنا أوضاع كتابة التاريخ الحديث فيمصر، ونرى هذا الارتباك والضياع مع التناقض أيضاً، لعدم وجود وثائق محددة لفترات محورية في تاريخ الأمة.

إن وثائق ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، ضائعة؛ لذلك
يجتهد كل فرد كما يحلو له. وما حدث في نكسة ١٩٦٧ غير
موثق في أوراق رسمية.

ولدى بعض الأفراد وثائق الدولة، حصلوا عليها
واحتفظوا بها، سواء في مصر أو خارجها.

وقد شهدت مصر ندوات حول هذه القضية تضغط في
اتجاه توثيق أوراق الدولة وحفظها وسن القوانين بشأنها.
وأعتقد أن تأكيد اتجاه التوثيق يرتبط بمسار الأمة
العلمي والحضاري، والفصل بين كيان الدولة والأفراد.

ويثير نشر الخارجية البريطانية لأوراقها أهمية
الارتباط بهذا التقليد؛ لأنه أولاً يحفظ ذاكرة الأمة من
الضياع، وثانياً ينقذ وعي الأجيال المقبلة والحاضرة أيضاً من
موجات تزيف ترغب دائماً في تشويه الحقائق، لأهداف قد
تكون سياسية أو ترتبط بسعي حاكم لجعل التاريخ يدور حول
نفسه.

وقد شهدت مصر أيضاً خلال مرحلة السادات إعادة
صياغة التاريخ لجعل الرئيس آنذاك هو محور حركة الحياة
بالكامل، ولا شيء يدور بعيداً عن ذاته!

التراث والمعاصرة

صدرت عن "دار الساقى" في لندن دراسة مهمة بعنوان "النفس المبتورة" تدور حول قضية مهمة تتعلق بهاجس الغرب في مجتمعاتنا. مؤلف البحث درايش شايغان، عمل أستاذًا في الدراسات الهندية والفلسفية المقارنة في جامعة طهران، وتولى إدارة "المركز الإيراني لدراسة الحضارات". نال كتابه "النفس المبتورة" جائزة غوتفيه الفرنسية للمقالات البحثية.

يحاول الكتاب نقد فكر العالم الثالث بشكل عام، الذي أخفق في حل قضية المعاصرة، أو الالتزام بالجزور التراثية. يركّز البحث على ما يمكن تسميته بالفصام الثقافي، فهناك رغبات جامحة نحو لغة العصر، لكنها تتعرض للقمع والتشويه والاستلاب.

كما أن هناك من جانب آخر رغبة بالغوص في الجزور، إلا أن هذا الاتجاه بدوره يتعرض للإخفاق، نتيجة

ملايسات ثقافية عديدة تجهض السعي الحثيث نحو ربط الماضي بالحاضر .

النزعة التوفيقية

إن بحث "النفس المبتورة" نقدي في أسسه ومنطلقاته، ويتسلح المؤلف برؤية نقدية صارمة، توجّه طلقاتها إلى التجارب الفكرية في العالم الثالث؛ لأنها مهمة العودة إلى التراث فقط، أو تحقيق التزاوج بينهما.

إن المؤلف ينتقد تجارب فكر العالم الثالث، ويركّز على الفكر الإيراني في منطلقاته القديمة والحديثة، ويتناول مدارس هذا الفكر كنموذج، وهدفه نقد تجربة فكر العالم الثالث كله.

تذكرني هذه الدراسة بما كتبه د. حسن حنفي، في مقالة شهيرة باسم "موقفنا من الفكر الغربي"، عرض فيها رأيه الذي يطالب فكر العالم الثالث بالانتقاء والاختيار لتيارات الفكر الغربي، وأن يكون هذا المنهج قائمًا على جنور التراث واحتياجات الواقع ذاته.

داريووش شايعان، ينتقد ما دعا إليه حسن حنفي؛ لأن كتابه يقوم بالهجوم على ما يمكن تسميته بالنزعة التوفيقية في فكر العالم الثالث بشكل عام.

يرى المؤلف، إن حركة الفكر في تجارب العالم الثالث لم تستطع تكوين رؤية خاصة بها؛ لذلك جاء اسم كتابه "النفس المبتورة" أي التي لم تتمكن من تكوين شكلها الخاص، وفكرها الذاتي بها.

يقول المؤلف "فنحن أهل أطراف العالم نعيش في أمن الصراعات بين مختلف قوى المعرفة واتجاهاتها، ونقع في فجوة العوالم المتفارقة التي تتدافع فيشوه إحداها الآخر، فإذا ما أقبلنا على هذا الازدواج بشكل جدي ومن دون نفور، أمكن له أن يغنيا ويوسع معرفتنا وشبكة أحاسيسنا. أمّا أن نكبت هذا الازدواج القيمي ونطرده من المجال النقدي للمعرفة، فذلك لا يفعل غير إغلاقنا على نفوسنا وحبسنا فيها، وبتر نظرتنا إلى العالم الذي يصير واقعه مشوهاً، وكذلك خيالات الأفكار. وبهذا يصبح العالم تمامًا كما في المرأة المكسورة.

يهتم الكتاب بدراسة ظاهرة التخلف. ويستخدم المقياس الغربي لها. فمن رأي المؤلف أن العالم الثالث كله تراجع عن مسيرة التقدم التي قادتها التجارب الغربية، ولا يوضح

المؤلف مفهومه لتيار المعاصر، هل يقوم على أساس تقني أم يرتبط بالمدلول الفكري.

إن بعض الاتجاهات في الفكر العربي، مثل مدرسة "أنور عبد الملك" في كتابه "رياح الشرق" تركز على تجارب حضارية أخرى، غير المقياس الغربي، وتسعى لإقامة نوع من التكافؤ بين الفكر في الهند والصين مع الأيديولوجي في فرنسا وبريطانيا وأمريكا.

تجارب مشوهة

مؤلف كتاب "النفس المبتورة" يعتمد على القياس الغربي، ومن هذه الناحية، يرى أن تجارب العالم الثالث مشوهة ومبتورة؛ لأنها لم تكتمل مع النموذج الغربي.

هذا الطرح بالتأكيد يخضع لمناقشات وجدل؛ لأن المؤلف يراجع تجربة العالم الثالث وفقاً للنموذج الغربي. ويرى أن مدارس الفكر في العالم الثالث لم تتمكن من تحقيق الحوار مع النموذج أو المحاكاة معه.

يقول المؤلف "ولأن تجربتنا ليست مشكلة الغرب، يغيب تقدير مضمونها الفعلي عنه، فأولئك الذين يدفعون أكلاف هذه

التجربة من وعيهم الناعس أي نحن، هم وحدهم المؤهلون لأن يبرزوها ويعملوا على تظهيرها".

يعالج الكتاب مشكلة التخلف، لكنه لا يركّز على مسؤولية الغرب عن بروز هذه الظاهرة. إن العالم الثالث انتزعت منه أساليب الانفتاح على النهضة، ودخل عصور التراجع عن العصر لعوامل خارجية، كانت التجربة الغربية مسئولة عنها.

لا يهتم الكتاب بفحص هذا الموضوع، بينما اجتهدات أنور عبد الملك مثلاً، ربطت ظاهرة التخلف في العالم الثالث بإطارها التاريخي والمادي. وحاولت ربط نموذج النهضة الراهنة التي تحاول الخروج على معادلة الغرب بريح الشرق.

ورغم أن أفكار عبد الملك تقوم على الجغرافيا، أكثر من الفهم الفكري والسياسي، إلا أنه يذكر لمحاولات صاحب كتاب "ريح الشرق" أنه عالج ظاهرة التخلف في إطارها، بينما كتاب "النفس المبتورة" يركز انتقاداته على محاولات فكر العالم الثالث التوفيقي، الذي يحاول اللحاق بتجربة الغرب وهو يستند على التراث.

إن الكتاب ينتقد بعنف محاولات محلية، حاولت قراءة الوجودية أو الفلسفة التقريرية، أو المادية من خلال تراثها، ويصف هذه الاتجاهات بأنها مبتورة وغير كاملة. وهذا يعني أنه يميل نحو الأصول والتراث، لكنه عندما يبدأ فحص ملفات التراثيين يفتح فوهات مدافعه النقدية. إن المؤلف تعمّد نقد اجتهادات التراثيين لصياغة الأفكار المختلفة، والاجتهادات المتعددة، تمامًا كما فعل عندما انتقد محاولات التوفيقين.

تجارب واجتهادات

وينتقد الكتاب محاولة التوفيق، وفي الوقت نفسه يهاجم التراثيين. لكنه لا يقدم لنا النموذج الذي يريده، وإن كانت طريقته النقدية، توحى بأن المؤلف يريد لفكر العالم الثالث العناق الكامل مع الفكر الغربي، من دون محاولة المزج، والتوفيق، أو رفضه كليًا.

عيب الكتاب المنهجي، أنه لا يقدم فكر المؤلف بشكل إيجابي؛ لأنه يعتمد على النفس، كطريق غير مباشر لتأكيد فكرته التي يريدها. إن المؤلف يستخدم المنهج السلبي في

تعريف فكره. وهذه الرؤية دائماً لا تفوز بقوة داخل مناهج الفكر والبحث المقارن.

إن كتاب "النفس المبتورة" دراسة مهمة؛ لأنها تطرح قضايا تشغل مدارس الفكر في العالم العربي، وبلدان العالم الثالث.

إن العلاقة بين الأصالة والمعاصرة لا زالت تستفز خلايا الفكر؛ لأن المعادلة لم تُحل بعد. كما أن تجارب التوفيق والاجتهاد، وقضايا عصور النهضة والحوار مع الفكر الغربي لا زالت تملك زخم الأسئلة التي تبحث عن قناعات محددة.

ولأن القضايا التي يطرحها الكتاب لم تُحل بعد، لاستمرار ظاهرة التخلف، فإن الحوار حولها ضروري. وكتاب "النفس المبتورة" محاولة يغلب عليها الاجتهاد والجرأة، لكن ينقصها الكثير من الجوانب. ولعل صدور هذا الكتاب يشجّع على الحوار. وإن كانت هيكليّة الدراسة، تتوجه إلى القارئ الغربي في محاولة لنقد فكر العالم الثالث برويته وتراثه واجتهاداته المختلفة.

إن النفس المبتورة، ظهرت بهذا الشكل؛ لأنها ظهرت على مرآة الفكر الغربي، الذي يرى أن محاولات مدارس العالم الثالث واقعة في محيط الانفصام، فهي لم تحقق المعاصرة بالكامل، ولم تتجز احتضان ريح الأصولية على الوجه الأكمل.

إن كتاب "النفس المبتورة"، يحرك النقاش والجدل حول قضايا التراث والمعاصرة، ظواهر التخلف والتقدم. وحسنًا فعلت "دار الساقى" في لندن عندما نشرت هذه الدراسة، التي نتوقع لها أن تثير الحوار وتحفز العقل العربي على الاشتباك مع أطروحات المؤلف الذي يثير القضايا أكثر مما يجيب عليها.

سلاح الفكر الغربي

كانت معركة الفكر الغربي في عصر النهضة ضد الثوابت في كافة مجالات التفكير العقلي والإبداعي. كما أنها كانت ضد السلطة الفكرية القائمة، التي تعطي نفسها حق الكلمة النهائية بشأن حركة الفكر والحياة والأدب والفن.

خاض المفكرون في عصر النهضة معركة شرسة ضد السلطات القائمة؛ لتأكيد حرية الفكر، ورفض الأحكام الجاهزة.

عصر النهضة، هو حقبة التمرد الكاملة على تراكمات كبيرة، بدأت في الظهور مع انحسار العالم القديم وسقوط الإمبراطورية الرومانية، ودخول العالم مرحلة الفكر الوسيط. ومن الأهمية الذكر، أنه بينما كان الفكر الغربي يرفض التراث اليوناني بجملته كانت الثقافة العربية تتحاور مع هذا الإرث بجدلية فكرية واعية. وكان ابن رشد يعكف على تراث أرسطو، لترجمته وتقديم شروحه على هوامشه.

وعندما بدأ عصر النهضة الأوروبي، لم يجد المفكرون الغربيون، سوى شروحات الفكر العربي على إبداعات التراث اليوناني القديم الذي شكّل القاعدة لانطلاق العقل الغربي من عصر النهضة إلى الآن.

شهد العصر الوسيط سيطرة التفسيرات الجامدة التي كانت تقف على تضاريس النص، ولم تحاول النفاذ إلى عمقه.

كما انتكست حركة الإبداع الفني، وتجمّدت الفنون الملحمية والمسرحية التي ازدهرت في العصور اليونانية القديمة.

شهد عصر النهضة الصدام بين جديد وافد، وقديم راسخ. التحم الفريقان في معركة شرسة وضارية، إلا أن النصر تحقق في النهاية للتيارات التنويرية التي طرحت رؤيتها بقوة ودافعت عنها، حتى تمكنت من اختراق القواعد التي هيمنت على الفكر وعملت على إجهاض الحيوية العقلية. سادت العصر الوسيط معادلة قاسية تحالفت مع أنظمة سياسية متخلفة وقابضة على الأمور بقبضة حديدية. وكان

من سمات هذه المرحلة تجريم الاشتغال بالعلوم الفلسفية، واستبعاد علم المنطق.

وبسبب هذه القوانين غابت الفلسفة اليونانية بالكامل، واعتمد المفكرون في العصور الوسطى على تحليلات وأفكار توما الأكويني، التي كانت مجرد اجتهادات على النص الديني، ولم تسعَ إلى الدخول إلى لب جوهر الفكر الإنساني، الذي صاغ بعض ملامحه المفكرون الإغريقيون القدماء، خاصة على أيدي أفلاطون وأرسطو، والمدارس الأخرى التي أعقبت هذين القطبين.

تميزت العصور الوسطى بمنع الاجتهاد، وكانت هناك نظرية شاملة تقنن كل شيء، ومن يتمرد عليها يعد من الخارجين على أطر الدولة والقانون. وتمرد مفكرون على هذا الوضع، إلا أن القمع كان السمة الغالبة التي منعت تأثير هذا التمرد على هوية حركة الفكر العام.

عصر الظلام

بسبب هذا القمع، أصبح المفكرون مجرد أدوات تقوم بتفسير النصوص، ونتج عن هذا الوضع الشعر الرديء، والمسرح المتهالك، والموسيقى الميتة.

كانت هذه الحالة تسجل ما يسمى بعصر الظلام في الفكر الأوروبي. ووافق هذه السمة تعملق أنظمة ديكتاتورية لا تعترف بالحريات ولا حق للرأي الآخر في التعبير عن نفسه. هذه المعادلة، واجهت التحدي العارم في عصر النهضة، بعد بروز ما يسمى بشرائح اجتماعية حققت تراكمًا ماديًا، بسبب خطوط تجارية ازدهرت بين المدن الساحلية، ولعبت الموانئ الإيطالية دورًا مهمًا في هذا البعث التجاري، خاصة ميناء البندقية.

هذا النمو الاقتصادي، دفع شرائح اجتماعية جديدة إلى ميدان التأثير الاجتماعي والمالي، ترتب عليه إضعاف السلطات الاستبدادية التي كانت قائمة، وبدأت حركة تمرد ضد السلطة الفكرية المركزية التي تركزت داخل الكنيسة الغربية.

العودة إلى الإغريق

رافق هذا التحرك الاجتماعي ودخول قوى جديدة إلى الساحة عملية بحث في أدب اليونان القديم، وبدأت موجة جديدة تدعو إلى العودة نحو تراث الإغريق والتعامل مع الإرث الذي سجلته العبقورية الإغريقية.

بدأت عملية نهضة شاملة تتجه نحو التراث الإغريقي في كافة المجالات. ويمكن القول بأن الصور الفنية التي بدأ يرسمها الفنانون في عصر النهضة تعتمد على الأسلوب الإغريقي والروماني، على الرغم من أن مضمونها يحكي حكايات من الكتب الدينية. لقد تحولت المادة الفنية إلى لغة قريبة مما كتبه هوميروس وفرجليوس في الأدبين اليوناني والروماني القديمين.

عصر النهضة الأوربية استند في صعوده على ضعف السلطة السياسية المركزية، وهذا سمح ب بروز طبقة التجار بثقافتهم الجديدة وتطلعهم إلى المشاركة في السلطة، وطرح تأثيرهم على مجرى الحياة وتقاليدها بشكل عام. شجعت سلطة التجار الأدب والفن، وبدأت نزعات قومية، هدفها التحرير من اللغة اللاتينية، واعتماد اللهجات القومية كلغات رسمية، وقام الكتاب الإيطاليون بأخذ زمام المبادرة، فعبروا عن عواطفهم وشعورهم بلغة محكية، كانت لهجة التداول اليومي، وأصبحت بعد ذلك لغة الأدب والفن وأداة التفكير. كان هذا التحريك نتيجة صدام حقيقي بين أهل الجمود، وأهل التحديث والاستتارة.

وقد انتصر الفكر الجديد؛ لأنه اعتمد على ظروف ساعدته على الفوز في هذه المعركة. كان البناء القديم كله ينهار، وكان العالم يتطلع إلى عصر مختلف، سماته الأساسية هي الحرية، والاعتماد على التعددية، وعدم تجريم علوم المنطق والفن والموسيقى.

أدرك المفكرون الغربيون، أن انتصارهم في هذه الموقعة الحاسمة في تطور الفكر الغربي، قيمة لا يمكن التخلي عنها أبدًا في المستقبل؛ لأن النصر الذي تحقق صنعته تضحيات مفكرون عظام مثل توماس مور، وجيراردنو برونو وغيرهم، الذي استشهدوا وهم يدافعون عن حق العقل في التفكير، وعن حرية المفكر ودوره المشروع في قيادة عقل الأمة.

منذ هذه اللحظة، تعلمت الخبرة الأوروبية درس الحرية؛ لذلك لم تفرط في هذا المكسب أبدا. لقد أدركت كلمة السر، ولم تتخل عنها، ولم تمنحها لأعدائها تحت أي ظرف.

استمرت المسيرة الفكرية الغربية تفرز المدارس المختلفة والتيارات المتعددة. وكان المفكرون حريصون باستمرار على مقاومة سلطة الرقابة، ومجابهة الضغوط

المختلفة، والتمرد دائماً على السلطة السياسية التي تحاول فرض أسلوبها وأدواتها على العقل والتفكير. أدرك العقل الغربي، أنه انتصر، لأنه حر؛ لذلك حافظ على علاقة الإبداع بالحرية. ودخل بعد ذلك في مواجهات ضارية مع إفرازات فكرية خرجت من تطور مسيرة العقل الأوربي ذاته وسقوطه في بعض الانحرافات، مثلما حدث بالنسبة للإفراز النازي.

جدل جاد

إن الماركسية مثلاً ليست إلا محاولة فكرية لتقديم صيغة مختلفة لحل المأزق الذي سقطت فيه التطبيقات الغربية بعد نهاية عصر الإقطاع، وبداية عصر الثورة الصناعية. إن هذه النظرية مثلها مثل "جمهورية أفلاطون" أو "يوتوبيا" توماس مور. لكن الخلاف بينها وبين هذه الأحلام الخيالية التي تصيغ المدن الفاضلة، أن الظروف والتطورات السياسية في روسيا القيصرية، ساعدت على تطبيقها. وكان ذلك أول محاولة ناجحة لتحويل الحلم إلى واقع. كانت محاولة ماركس هي البحث عن صيغة تعالج آثار الثورة الصناعية. سعت إلى صياغة معادلة مختلفة، فإذا كان

العمال هم قوة عصر الصناعة، فلماذا لا يحكمون، ويكونون هم الطبقة المسيطرة؟

هذا الاجتهاد جاء من قلب الفكر الغربي ذاته، وهو محصلة لرحلة طويلة داخل الفكر اليساري الأوربي، منذ تجاربه المبكرة عند المفكرين الإغريق. وفي بعض محاولات سان سيمون في فرنسا. انتصار هذه النظرية في روسيا، رافقه بعد ذلك ظهور النازية في ألمانيا. وكأن خلايا العقل الغربي أفرزت النقيضين اليسار المتطرف، واليمين العنصري الأشد تطرفاً، وبقيت الليبرالية هي محور الوسط. اتحد التطرف اليساري مع الوسط الليبرالي ضد النازية؛ لأن تلك الأخيرة، كانت تقدم معادلة مجنونة تركز على نظرية عنصرية تُقسّم العالم إلى ضعفاء وأقوياء. واستخدمت السلطة لحرق الضعفاء والإبقاء على الأقوياء الأبقاء.

التحالف الليبرالي واليساري، هزم النازية. وكان معنى ذلك أن عملية الجدل الفكري جمعت بين نقيضين ضد عنصر ثالث يشكل خطراً على العالمين الليبرالي واليساري.

لذلك التقى ستالين مع روزفلت لهزيمة هتلر. وكانت المعركة أوروبية تعبّر عن صراع العقل الأوروبي مع نفسه بعد نمو "البكتريا" النازية بشكل خطير. بانحسار الحرب العالمية الثانية وهزيمة النازي، بدأت معركة أخرى بعد تقسيم أوروبا بين المعسكرين المنتصرين. عالم ما بعد الحرب، هو ساحة الصراع الضارية بين فكرتين، واحدة تمثلها موسكو، وأخرى واشنطن. وكان هذا التقسيم الجغرافي يعكس خريطة فكرية أخرى تنقسم على أرضها القوات الفكرية التي انحاز البعض منها إلى اليمين، والآخر إلى اليسار.

اتسعت الدائرة الجغرافية، لتشمل قطاعات من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ومع بداية الستينيات، كان يظهر أن معسكر اليسار يكسب بينما اليمين يخسر على طول الخط. إلا أن التوسع الجغرافي للنظرية المركزية التي كان قلبها موسكو، أثقل النظرية بتجارب عكست تراث العالم الثالث، الذي ظهرت على سطحه أنظمة الاستبداد، وهي ترتدي الأقنعة الاشتراكية.

كانت المعركة بعد انحسار الحرب العالمية الثانية تشد نقطة توازن بين المعسكرين. فكلاهما حارب النازية

وانتصر، وكلاهما أصبح لديه المساحات الجغرافيا الجديدة،
التي انضمت إلى سيطرته بعد سقوط هنتر، وتكوين حزبي
"الناثو" ليمثل الغرب، وحلف "وارسو" ويعبر عن قوة الشرق.
بدأت المعركة بقوة متساوية في الجانبين، إلا أن
الشرق، كانت تثقل خطواته تجربة ستالينية دامية. ورغم أن
الغرب تعرض لرياح الجنرال ماكارثي، إلا أن البيئة الفكرية
رفضت تدخل الجنرال في إبداع الفن والجمال.

عودة إلى عصر النهضة

انحاز الشرق إلى تجربة الحزب الواحد، التي هي عماد
وجوهر تجربة يؤمن بها، بينما الطرف الآخر، أطلق رياح
التعددية بكامل قوتها وزخمها.

بدأ العقل الغربي يرجع إلى مصادره ومرتكزاته التي
بدأت مع موقعة عصر النهضة. عرف أن الحرية هي سلاحه
في حرب باردة شرسة، وكانت راية الحرية هي الأداة التي
لوح بها لإغراء المنشقين داخل دول الستار الحديدي.

إن المعسكر الآخر انحاز إلى ما يمكن تسميته بنمط
الإنتاج الآسيوي، الذي يعتمد على الاستبداد والسلطة الفردية

الشمولية، بينما الغرب أطلق الحريات وشجّع مراكز البحث والاجتهاد.

وقبل سقوط دول المنظومة الاشتراكية، كان الغرب يدخل مرحلة متقدمة من التطور العلمي والتقني، وكانت هناك ثورة حقيقية في علوم الإدارة والبحث. بينما سقطت حيوية المعسكر الآخر بسبب قوة الأجهزة وتسلطها وهيمنتها الشاملة.

إن المعركة التي حدثت في بداية التسعينيات، هي الامتداد لما حدث في عصر النهضة. ولعل بداية سقوط الأنظمة الحديدية في شرق أوروبا، ارتبط بثورة الفنانين والأدباء، ورئيس تشيكوسلوفاكيا هو كاتب مسرحي، كان رهن الاعتقال قبل اندلاع التمرد في قلب براغ. إن المعركة الأخيرة، نخطئ لو نظرنا إليها على أنها كانت مواجهة بين اشتراكية ورأسمالية. ولقد كانت بين حرية واستبداد. ولا يعني انهيار الدولة الاشتراكية ضياع النظريات والأفكار؛ لأن تلك تظل في وعي الذاكرة الإنسانية. ويظل العقل البشري يبحث دائماً عن حلول لأزمات الواقع. والبحث عن اليوتوبيا

بدأ في العصر القديم، ولن تكف خلايا الفكر عن التأمل والإبداع.

إن المعركة كانت بين أنظمة احتكرت مهمة التفكير، وهذا ما حدث في العصر الوسيط، ولم يقل إنسان إن التمرد على ملامح هذا العصر يعني رفض الدين والمسيحية.

إن المعسكر الذي دخلت تحت دائرة الاشتراكية، أهمل الحرية، واعتبرها لا قيمة لها. بينما المعسكر الآخر استند على الخبرة الإنسانية وما سجلته في موقعة عصر النهضة.

إن العالم تسيطر عليه الآن موجة جديدة تدفعنا إلى إعادة التفكير في كل شيء، لقد سقطت الثوابت، والزلازل هزّت كافة القوالب التي كان لها صفة الثبات.

إن من حق العقل العربي أن يفكر ويعيد التقييم والتأمل والرصد والتحليل. ومن الأهمية تحليل ما جرى في العالم حتى لا ينطبق علينا ما حدث لسجناء كهف أفلاطون، حين كانوا في داخل نفق مظلم لا يرون شيئاً، وكان جهلهم وعماهم يجعلهم يعتقدون أنهم يرون نور الحقيقة، مع أن وضعهم كان في قلب الظلام، وما كانوا يرونه ويلمسونه ليس

إلا أشباحًا نسجها خيالهم المسجون داخل جدران كهف
سميك.

مواقف التفكير العلمي

تعرّف عليّ د. فؤاد زكريا، في بداية الستينيات، كان اللقاء الأول من خلال مطالعة دراسة صغيرة من تأليفه بعنوان "التذوق الموسيقي" كانت سطور الكتاب تعكس ثقافة عميقة ورؤية عقلية ثاقبة، ظل هذا الكتاب دليلي في عالم الموسيقى الكلاسيكية، التي كان يطلق عليها د. حسين فوزي موسيقى الحضارة.

كنا في بداية الستينيات، نبحث عن ثقافة مختلفة، وجاء برنامج أسبوعي في محطة البرنامج الثاني في إذاعة القاهرة، ليفتح أمامنا آفاق الإحساس بلغة موسيقية، تعبّر عن رقي حضاري وعن وثبة إنسانية تجاوزت تضاريس الواقع وانطلقت نحو غايات وآفاق التعبير الفني العميق.

كان كتاب "التذوق الموسيقي" التأليف العقلي والرد الأكثر منطقية لدراسة صغيرة نشرها "يحيى حقي" بعنوان "تعال معي إلى الكونسير".

دراسة فؤاد زكريا، حرّكت الرغبة العارمة في التعرف على جيل عقلائي عربي، كان يشكل أفكاره، ويتحرك لفرض رؤيته في جميع قنوات القضايا المختلفة.

التذوق الموسيقي، قدمني إلى دراسة فؤاد زكريا عن "ديينوزا"، ومن هذه الرحلة مع إمام المفكرين العقلانيين في مجالات الفكر السياسي جاءت ترجمات المؤلف في الفن وعلم الجمال، إلا أن ترجمته لكتاب "هريبرت ماركيزور" "العقل والثورة" كانت البوصلة الواعية لمعرفة أدغال تيارات فكرية كانت تدق أبواب العالم، ولا نعلم عنها شيئاً.

تحولت علاقتي مع مؤلفات فؤاد زكريا، لتنتقل من مجرد الإعجاب إلى احترام عميق لمفكر عقلائي يحاول هز القناعات الوهمية حول أنفسنا والعالم.

شعرت أن الرجل يمارس مهمة المفكر النقدي المستقل الذي لا ينحاز إلى مذهب معين، هذا الموقف عله يحاور اليساريين ويرد عليهم وينتقد موقفهم من نظام عبد الناصر، إلا أنه في الوقت نفسه انتقد بمرارة موقف اليمين من قضية العدالة الاجتماعية وتجربة الأحزاب التي كانت قائمة قبل نظام يوليو، وعندما شعر فؤاد زكريا بطوفان الفكر اللا عقلي

تصدى له عبر كتب مثل "التفكير العلمي" و"نشأة الفلسفة العلمية"، وعندما اشتدت تيارات الأصولية التي تروج لأفكار تصطدم مع روح العصر، وقف وحيداً في ساحة ضارية يفند مزاعم هذا الاتجاه.

إذا كان اللقاء مع فؤاد زكريا تم عبر كتبه ودراساته ومحاضراته، فإنه أدهش جيلنا كله عندما كتب في "الأهرام" بعد معركة أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣، يرد على محاولات تسعى لسلب النصر من الرجال.

كتب مقالة مهمة عن "المعركة والتفكير اللاعقلي"، سببت حساسية لدى قطاع غريب من عناصر ومجموعات الضغط التي كان تريد القفز على مرحلة ما بعد أكتوبر (تشرين الأول).

هذا المفكر العقلاني، وقف دائماً مع الحرية ضد الاستبداد، وعندما خرج من القاهرة ذهب إلى الكويت، ولمدة حقبة كاملة وجد في المناخ الكويتي فرصة للتعبير عن أفكاره وتصورات، وكانت الصحف الكويتية هي المنبر المفتوح أمامه ليمارس من خلاله وظيفته كمفكر.

وأهم مقالات فؤاد زكريا في جميع المجالات، هي التي نشرها في الصحف الكويتية، التي كانت منبراً تعددياً أمام المدارس السياسية والفكرية العربية.

عندما تقدمت القوات العراقية نحو الكويت لاحتلالها في الثاني من أغسطس (آب) الماضي، شعر فؤاد زكريا، كما شاركه في ذلك أغلبية المثقفين العرب، أن الدبابات العراقية موجّهة إلى منبر حر تمتع من خلاله بالحرية المطلقة في التعبير عن أفكاره.

كان بلدوزر الديكتاتورية يتقدم نحو بيئة ديمقراطية تعددية؛ لذلك انطلق فؤاد زكريا ضمن كتيبة المثقفين العرب تدافع عن الكويت من قناعات فكرية ثابتة، ومن منطلق الإيمان بالحرية والدفاع عنها.

هذا الموقف يتسق تماماً مع قناعات مفكر حر ومستقل ومناصر للحرية.

ورغم وضوح هذا الاختيار، إلا أن بعض العناصر المغرمة بالنشويه والطعن في مواقف الرجال، قادت حملة ضد فؤاد زكريا، ولم يكن هدفها سوى خلط الأوراق وإثارة الشكوك.

وقد فعل فؤاد زكريا الشيء المنطقي، الذي يتمشى مع رؤيته، رفض منطق الابتزاز الفكري، وركّز على القضايا الأساسية، وهي التنديد بالديكتاتورية العراقية وفضح مخططاتها، والتصدي لحملة الديكتاتوريين الصغار، الذين حاولوا تزييف الحقائق، حتى يمر العدوان وينجح.

إن الإنسان موقف، ود. فؤاد زكريا اختار الموقف الصحيح، وقد أثبتت الأيام أن الديكتاتورية وباء لا بد من محاربته. وأن الأسلوب القمعي لا يمكن أن يحقق النصر، وأن النظام العراقي ارتكب خطيئة كبرى، وكان لا يمكن أبدًا لأهل العقل والتنوير تأييد حملة تهدف إلغاء شخصية شعب والقضاء على هويته الوطنية.

القضايا الأساسية

من فضائل نكسة ١٩٦٧ أنها هزّت العقل العربي وأيقظته من سباته الطويل... لقد فجّرت النكسة قنبلة داخل قبيلة المنقّفين، جعلت الجميع يلتفت حوله ويعيد من جديد النظر في مجمل أفكاره واتجاهاته. وإذا كان البعض سقط في قبضة الغموض والعبثية، فإن البعض الآخر وضع يديه على مكن الداء وعلى الأسباب الحقيقية التي كانت وراء نكسة مدوية ما زالت تتفاعل أحداثها ونتائجها على ساحة الصراع العربي - الإسرائيلي.

والنكسة مسئولة عن حالة الوعي والانتعاش التي تغمر حاليًا الدراسات والاتجاهات الفكرية الجادة، فهذه المدارس كانت تعيش حالة من الوعي المسلوب الذي أفقدها الرؤية، وأعمالها عن متابعة ما حولها. هذه الهزة العنيفة جعلت أهل الفكر يبحثون عن الأسباب الجذرية التي جعلت الأمة تسقط أمام التحدي الإسرائيلي بسهولة وفي ساعات معدودة.

وإذا كانت الاتجاهات العديدة حاولت تصوير أسباب النكسة بأنها راجعة لتخلفنا عن ركب الحضارة الغربية، وتوقعنا داخل ذواتنا نبني تجربة خاصة، فإن مدارس فكرية أخرى، قالت إن السبب الأساسي، راجع إلى ارتمائنا في أحضان الفكر الغربي، بحيث تحولنا إلى عبيد له، ليس لنا خصوصية ولا هوية تحدد اتجاهنا ومسارنا.

وإذا كان لويس عوض قد حمل لواء الاتجاه الأول، وشرح أفكاره في كتابه "تاريخ الفكر المصري الحديث" فإن مفكرًا إسلاميًا مجددًا حمل بدأب الراية الأخرى. ومنذ سنوات وهو يناضل فكريًا على الساحة لتعميق اتجاه أصولي إسلامي يتبنى الأطروحات الأيديولوجية التي تجند النضال ضد المستعمر وتحشد كل القوى المثقفة خلف راية الفكر الإسلامي المناضل في خندق المواجهة ضد الاستعمار والتبعية بمختلف أشكالها.

وأهمية دور حسن حنفي، تكمن في المنهج التحليلي النقدي الذي يستعمله في حواراته ومناقشاته مع الأفكار المضادة الأخرى، وتساعد ثقافته العريضة وقراءاته في الفكر الغربي والإسلامي، على الجدل ودحض المقولات

والاتجاهات الموالية للفكر الغربي، والتي ترى أن من أسباب الأزمة التي نعيشها هي سقوطنا في قبضة التراث، الذي يخلو من أشكال الديمقراطية، وتهيمن عليه النظرة الأحادية الرافضة للجدل والنقاش.

وتعد مقالة حسن حنفي "موقعنا من التراث الغربي" التي نشرها في مجلة الفكر المعاصر القاهرية في أوائل السبعينيات بداية بروز اتجاهه لنقد مقولات الفكر الغربي، ومحاولته انتزاعها من فكرنا وإحلال بدلاً منها حلقات الفكر الإسلامي وأسس التنويرية القائمة على العقل والنظر، والمؤسسة على تعددية حقيقية تحترم الإنسان وفكره، ولا تتحاز لأشكال العنصرية والاستغلال بكافة صوره.

ومحور هذه المقالة دعوة حسن حنفي لوقف موضوعية من الفكر الغربي، تتعامل معه بحذر، وتتناول أفكاره بتأن، وعدم التسليم المطلق باتجاهاته وفلسفته.

وقد طالبتنا المقالة بأن ننظر لهذا الفكر من خلال تراثنا أولاً وأخيراً، وأن نتعامل معه عبر عقلنا الواعي بفكرنا التراثي.

ونستطيع أن نقول إن حسن حنفي من بداية السبعينيات، وهو يصدر تباعاً الدراسات الإسلامية، التي تنفض الغبار عن التراث وتحوله لأيدولوجية فكرية مقاتلة، تسعى للصدام مع العدو الخارجي وتتصدى لفرق الاستغلال والنهب الداخلي. وقد استطاع د. حسن حنفي من خلال محاضراته في الجامعات العربية المختلفة، أن ينشئ تياراً فكرياً إسلامياً يرفض السكونية والتبرير، وأن يتحول الفكر الإسلامي الخلاق إلى وسيلة تعمق التبعية والاستغلال بمختلف صورها وأشكالها.

ولقد أدار عبر كتبه ومحاضراته وأبحاثه حواراً مثمرًا مع كافة الاتجاهات السياسية والفكرية، وحوار ولا يزال يحاور أصحاب الرؤية الغربية وينقد مجمل أفكارهم. فدراسته العميقة للفكر الغربي وإطلاعه على مصادر الفلسفة المسيحية، وتمكنه من فهم المناهج الحديثة، أشياء جعلته قادرًا على الحوار مع الجميع بلغتهم، ونقدهم من خلال فكرهم عن طريق استعراض تناقضاته وأغراضه في السيطرة والهيمنة. ولقد نقد حسن حنفي بمرارة شديدة، المستشرقين، الذين يتعاملون مع الفكر الإسلامي، من منطلق استعماري غربي،

وبيّن في كتبه وأبحاثه إفلاس أفكارهم وتبعيتها بصراحة لخطط الغرب في الهيمنة على العالم الإسلامي.

إن الدكتور حسن حنفي، مفكر إسلامي يرى أن الفكر في خدمة القواعد العريضة من الناس، التي تتبلور مصالحها الحقيقية في هزيمة منهج التبعية، وفي دحض فلسفة الاستغلال.

وهو من هذه المنطلقات الفكرية يعرض الفكر الإسلامي في أصوله الحقيقية، فهو مع الناس، وضد الاحتكار، والسيطرة، ومع الشورى ويناهض الديكتاتورية، يقف بصراحة شديدة مع العدل الاجتماعي والمساواة، وحق الجميع في الحياة الحرة الكريمة.

ولم يجد هذا الموقف الذي تبناه حسن حنفي، سوى العنت من قبل السلطات الرسمية، التي رأت في دعوته خطورة كبيرة على فلسفتها ومجمل اتجاهاتها. فلقد حرصت عليه فقهاء السلطان هؤلاء المهتمون بمسائل "الحيز" و"العادة السرية" ويتركون في نفس الوقت القضايا الأساسية التي تهم جموع المسلمين.

السلفية السياسية

استطاعت أبحاث مهمة وقراءات سياسية واعية، الكشف عن عيب خطير، يعاني منه الواقع السياسي العربي. وهو غياب أية نظرة مستقبلية، تتعامل مع الواقع القادم، وتشخص سماته، أو تحاول تقديم بوصلة ذكية للسير في طريقه ودروبه، التي ما زالت مجهولة حتى الآن.

وترى بعض الأفكار الشابة الناقدة لمجمل توجهات الفكر السياسي العربي الراهن، نرى أن سبب غياب نظرة مستقبلية، راجع أولاً وأخيراً، لاستغراق الجميع في أوراق الماضي، فما زالت معارك الماضي مشتعلة، ما زال على سبيل المثال، يعترض "الوفد" على تصورات الحزب الوطني القديم لدور سعد زغلول، ومصطفى النحاس، وما زالت أغلب الأفكار المطروحة على الساحة، هي اشتباك بين أفكار قديمة، ومعارك كان من المفروض أنها أصبحت في ذمة التاريخ.

وأتصور أن سبب الانغماس في الماضي، راجع للأزمة السياسية التي عصفت بالمجتمع منذ نكسة ٦٧، وكان من نتائجها بروز نهج الردة بشكل كامل، هذا النهج طرح جانباً مكتسبات جديدة، تحققت خلال مرحلة ثورة ١٩٥٢، وأعاد بقوة غريبة رموز المجتمع القديم بالكامل، فلما عادت هذه الرموز، وجدت أن الجديد الذي طرأ مع ثورة يوليو، لا علاقة لها به، على العكس هي تعاديه وتحاربه؛ لذلك عملت هذه القوى على بعث الماضي، واعتبرته أنه هو النموذج المضيء، والنمط الكامل، وطرحت فكرها المرتبط بهذه المرحلة، وحاولت ولا زالت أن تنفي الحاضر، لصالح ماضٍ قديم، ليس للجيل الجديد علاقة به.

هذه الهزة العنيفة، التي حدثت، هي المسؤولة عن تجديد معارك الماضي، وقد انجرفت تيارات سياسية مستقبلية إلى هذه المصيدة، فدخلت في حوارات رهيبة ليس حول الحاضر، أو المستقبل، وإنما حول تقييم شخصية سعد زغلول، وتحليل حادث ٤ فبراير، وتبرير ما حدث بعد واقعة اغتيال سيرلي ستاك، الذي كان من نتائجها إقصاء حكومة الوفد، التي شكلها سعد زغلول بعد اندلاع ثورة ١٩١٩. هذا

الارتداد العنيف إلى الماضي، راجع إلى بعث التيارات القديمة، التي جاءت بروح مضادة تمامًا لثورة يوليو، لذلك حاولت نفيها من التاريخ، وحاولت إحلال بدلاً منها أوراق أخرى من الماضي، تصورت أنها هي الحقيقة بذاتها، وما عداها نوع من الوهم والسراب.

هذه الحالة، هي التي دفعت بعض الباحثين الشباب، إلى تشخيص الحالة الراهنة لكافة القوى السياسية، بأنها حالة سلفية وصاغت بعض تيارات الشباب مصطلحًا جديدًا هو السلفية السياسية فالكل سلفي بمعنى أنه مستغرق في الماضي بشكل كامل، وهذا الاستغراق، يمنع رؤية الحاضر، ويحجب أية نظرة موضوعية تتعلق بالمستقبل. هذه السلفية السياسية مؤثر خطر، يعكس نوعية أزمة سياسية يعاني منها الجميع، سواء أهل اليمن أو معشر الشمال أو قبائل الوسط.

ويترتب على بروز هذه السلفية، استغراق الجميع في معارك الماضي، فكل تيار يدافع عن ماضيه بصلابة شديدة فيكفي أن نفتح صحيفة مثل الوفد لنرى نوعية هذه السلفية التي تمسك بخناق جريدة تحولت من مجرد صحيفة خبرية،

إلى مرجع تاريخي تصيغ التاريخ بالشكل الذي يرضي خطها السياسي.

إن صحيفة الوفد مشغولة بنقطتين، الدفاع عن تاريخ الوفد قبل ثورة يوليو، وهذا يعني النضال بلا هوادة لنشر أوراق مهمة. تتعلق بدور الوفد بالنسبة للديمقراطية وصراعه مع القصر.

النقطة الثانية هي الهجوم المكثف على ثورة ٢٣ يوليو، فهي رجس من عمل الشيطان ولم تحقق لمصر أي نوع من الإنجازات.

جريدة تعبّر عن حزب كبير وعريض مثل الوفد، مفروض أن تطرح تصوراً ما للحاضر، غير أوراق الماضي لماذا؟

لأن هناك عناصر جديدة، دخلت الواقع وأصبحت تشكل صورته. فمصر الآن غير مصر عام ١٩٥٢ عندما قامت الثورة، وإن كان الوفد ما زال يصر أنها هي لم تتغير ولم تتبدل؛ لذلك المعارك التي كان يخوضها في بداية الخمسينيات ما زالت مطروحة بنفس القوة.

هذه السلفية السياسية المرتبطة بالماضي، ليس لها علاقة بالحاضر؛ ولذلك ليست لها صلة بالمستقبل، وأعتقد أن هذا هو سبب الأزمة التي تمسك بركاب الكل الاستغراق في الماضي، ومعاداة المستقبل.

لذلك من يتأمل الخريطة السياسية في مصر مثلاً يرى أن الجماهير العريضة في وادٍ وأغلب التيارات السياسية في وادٍ آخر فبينما الواقع يعاني من مشكلات رهيبية يفرزها يومياً ما زالت الأحزاب السياسية تتعارك حول دور سعد زغلول، وزينب الوكيل، ومصطفى النحاس.

إنها سلفية سياسية استمرارها يشكل خطورة على الواقع السياسي؛ لأنها تمنعنا من التعامل مع الواقع ومن الحوار مع المستقبل.

تأملات في الخطر

عاش، المفكر اللبناني الراحل "حسين مروة" حياة حافلة، كان يترجم بفكره الواضح، موقف مجموعة المستيرين العرب، الذي أصروا، ويصرّ بعضهم على هز الجمود، وزلزلة حالة التزمّت، وتعميق المنهج النقدي، سواءً في التعامل مع التراث، أو في تناول مظاهر حياتنا المعاصرة.

والذين هجموا على الشيخ الذي تجاوز عامه الثمانين وقتلوه بالرصاص. كانوا يترجمون بفعلهم الإجرامي، طبيعة الحوار الشرس، الذي استيقظ في أعوام الفتنة، عندما حلّت الرصاصة محل القلم، وشغل الجلاّد وظيفة المفكر.

هذه الحقبة المجنونة، دفع ثمنها رجل في مكانة حسين مروة، ومفكر في وضع مهدي عامل، الأول كان ينقد المسلمات ويعريها، ويشد الناس نحو لغة العقل، والثاني مفكر سياسي، كانت كتاباته ولا زالت "بوصلة" حساسة، تنير الطريق في أحراش الحياة السياسية العربية.

ونحن نرى أن اغتيال مفكرين وأدباء ومنظرين
سياسيين من عينة مروءة، وعامل تجسيد لأزمة طاحنة تمسك
بالفعل بخناق الأمة العربية، وتعبّر عن محنة حقيقية تمر بها.
وهذه الأزمة بدأت في السبعينيات بالذات، وتطورت
ونمت بشكل خطير في الثمانينات وما زال خطرهما يستفحل
ولا زال الكل يقف موقف المتفرج إزاء نموها وتشعبها.

وقد يرى السياسيون أن سبب هذه الأزمة هو انتصار
نهج التسوية وبروز سياسات المهادنة وتمكن حزب الاعتدال
من واقعنا. فكل هذه العوامل في رأي هذا الفريق تراحمت
وتجمعت ومنحت الغضب غير المنظم فرصة للظهور، فجاء
الرفض على شكل إرهابي يعبر عن التمزق ويعكس الأزمة.
وقد يبدو هذا الرأي صائبًا وله وجاهته لكن السؤال
لماذا يتجه هذا الغضب نحو رموز وطنية؟ وتجاه عناصر
شاركت بجهد كبير في تشييد الفكر المناهض للتبعية بكل
صورها؟!!

إن هناك عوامل وعناصر نجحت في تحويل الغضب
والإحباط إلى قنوات فرعية مدمرة، فبعد النكسة مباشرة نما
غضب موجّه للاستعمار والتبعية رفع شعارات سليمة من

أجل مواجهة العدو، طالب بالحرية والديمقراطية والعدل الاجتماعي، وبحق الجميع في المشاركة في تنظيم المجتمع للتصدي للعدو الغاصب للأرض والشرف الوطني.

هذا الغضب المشروع، عبّر عن نفسه في مظاهرات ٦٨ التي اجتاحت شوارع القاهرة، وعكس نفسه في الكتابات السياسية التي ازدحمت بها الساحة.

هذا الغضب صبّ في قنوات صحيحة، خلق جيلاً يعرف بالتحديد من هو العدو ومن هو الصديق. إلا أن عوامل الردة التي تكالبت منذ السبعينيات عملت بكل الطرق والوسائل على جرف هذا الغضب المشروع بعيداً عن شواطئه ألقت به في اليم المظلم وتحول جيل كامل من حالة الوعي الصحيحة إلى حالة الفوضى والاضطراب، ولم يجد أمامه سوى الإرهاب وسيلة وحيدة، ونتيجة للفوضى العامة وجّه مسدسه وطلقات نيرانه إلى رموز التحرر والاستتارة، حسين مروة، ومهدي عامل.

بعد النكسة مباشرة، برز دور حسين مروة وكتاباتهِ التنويرية، خصوصاً في مجال التراث، وشاركه مهدي عامل في نقد سياسات الردة عن المشروع الوطني التحرري.

كتاباتها ساعدت بشكل أو بآخر على بلورة ملامح جيل جديد، يعرف أهدافه على وجه اليقين ويعرف أنه مطالب بإحداث التغيير السياسي في الداخل ونقد أسس تراثه ليشيد على أنقاضه رؤية تراثية سليمة، تكون سلاحًا من أجل التحرر والاستقلال والخروج من حلقات التبعية.

جيل ما بعد النكسة، كان يعرف تحديدًا من هو العدو ومن هو الصديق. فالعدو هو الرابض على أرضنا والصديق، هو الذي يساعدنا على النهوض والمقاومة. وكان رجال مثل مروة، وعامل يقفون في خندق الصديق، لذلك كان جيلنا يعرف قيمتهما الفكرية والسياسية.

أما الجيل، الذي جاء في حقبة الجنون، والتي أفرزته مخططات جهنمية والتي تمكنت من جعل العدو حليفًا وصديقًا فإنها جعلت في العقول أن المتورين العرب حلفاء الشيطان ويجب قتلهم، وهذا الكلام ليس مبالغة فيكفي قراءة أية جريدة من الجرائد الصفراء التي تحفل بها الساحة، لنرى التحريض العلني على رموز الاستنارة بدعوى أنهم ماديون وعلمانيون ولا يؤمنون برسالات السماء.

هذا التخريف تنتشره وسائل غربية انتشرت في واقعنا
كالوباء، ويصدقه سذج صغار، لم يكتمل نموهم العقلي، وبدلاً
من أن يوجهوا فوهات مسدساتهم نحو العدو الحقيقي الذي ما
زال يحتل الأرض يوجهونها نحو صدور رجال مثل حسين
مروءة، ومهدي عامل.

لقد نجحت تيارات الردة، في صياغة عقلنا بشكل
مزيف وغير حقيقي هذا النجاح نحصد نتائجه الآن فالأمة
تتحرك بدون عقل وطلقات الرصاص تتطلق لتقتل حراس
وعينا وبوصلتنا الصحيحة نحو تعيين ورسم أهدافنا الحقيقية.

عنف الشوارع وعنف السياسة

تسود المجتمعات الغربية هذه الأيام موجات عنف، شغب في الشوارع، حوادث قتل واغتصاب، اعتداء يومي على النساء، أخبار مفزعة عن تعذيب الأطفال وقتلهم وممارسة الفحشاء معهم، أشياء مرعبة تنقلها الصحف يوميًا، وتبثها محطات التلفزيون، وتنقلها وكالات الأنباء.

البعض يرى في هذه الظواهر الدليل على انحلال الغرب، علامات على الخواء الروحاني والتعلق بأهداب المادية، والاستغراق في ملذات الجسد. أصحاب هذه الرؤية الدينية نراهم في "الهايد بارك" يحملون اللافتات التي تبشّر بفناء العالم كعقاب للآثام والبعد عن منهج الدين، ومعاداته، والاستجابة لنداء الشيطان.

وكلما جدّت حوادث جديدة، كلما خرجت نداءات هذا الاتجاه، تبشّر بقرب النهاية وبحلول أيام الانتقام، التي ستطهر الجسم الإنساني من ذنوبه، وسيعود بعدها طاهرًا نقيًا.

هذه الرؤية الخاصة للعنف والدماء في مجتمعات الغرب، لا يراها البعض الآخر علامة على انهيار، أو ظاهرة تحلل غربية؛ لأن المسألة في نظرهم تخرج عن هذا النطاق الأخلاقي والديني، ويرون أن المجتمع على العكس يتقدم، فالعلم يحقق إنجازات رهيبة، والعقل الغربي في أحسن حالاته، فلا توجد أية مؤشرات على نهاية أو عقاب جماعي لحالات العنف والشذوذ، التي تسيطر على أخبار المجتمع الغربي.

أصحاب هذه الرؤية، يرون أن الموضوع لا يخرج عن ظواهر شاذة، تحدث في مجتمع، وفي أي وقت وأن المسئول عنها هو ميوعة بعض القوانين التي تعامل الممارسات الإجرامية برحمة وشفقة، وأنه من أجل إعادة الأمن إلى الشوارع الغربية، فإن المطلوب سن قوانين متشددة تعمل على معاملة المجرمين بعنف وشدة، وهناك حركة نشطة الآن لإخراج المزيد من التشريعات الجنائية. التي تسعى لحصار الجريمة والشذوذ الإجرامي في الأحياء الأوروبية.

أصحاب التحليل السياسي يرون المسألة عكس ذلك، فلا هي دينية أخلاقية، ولا هي راجعة لنقص في ترسانة القوانين

التي تتعامل مع الجريمة والمجرمين. يرون أن الموضوع برمته مرتبط بتوجه المجتمع السياسي، فانخفاض دعم الحكومة للأحياء الفقيرة ألقى إلى ساحة الانحراف الاجتماعي بأعداد هائلة، كما أن غلق المدارس الحكومية، ونقص اعتماداتها، ساعد على دفع أبناء الجيل الجديد إلى الشوارع يتلقون فيها دروس الإجرام، ومبادئ الانحراف الاجتماعي.

وأصحاب هذا التحليل، يرون أن الانقسام الاجتماعي الحاد بين من يملكون، وبين هؤلاء الذي لا يملكون، مسئول عن الشعور بالإحباط الذي يمنح أرضية صالحة لنمو الشعور الإجرامي. ومن رأيهم أن المجتمع المتوازن اجتماعيًا، تغيب فيه مظاهر الشذوذ الإجرامية وتتلاشى؛ لأن سبب الجريمة في نظرهم اجتماعي سياسي مرتبط بشكل المجتمع، وبتوجهاته وسياساته.

الأزمة الاقتصادية والبطالة والتوسع في التنمية الرأسمالية، كلها عوامل تغذي الجريمة في الغرب، أضف إلى ذلك تحليل جماعة أخرى، لا تختلف مع التحليل السياسي لكنها تضيف عنصرًا مميزًا، فمن رأيها أن غياب دعم الدولة عن الثقافة الرفيعة، ونقص موارد الطبقات المطحونة دفع

فئات عديدة من الشباب بالذات، لتلقي ثقافتهم من مصادر تعد حليفة للعنف والأفكار العنصرية، وكافة أشكال الانحراف الاجتماعي.

لقد غاب دور المؤسسات والمجالس المحلية، وتقلصت النوادي الاجتماعية، وأغلقت دور تربية وتنشئة نتيجة غياب الدعم الحكومي. هذه الأماكن كانت تحمي الشباب من ثقافة الشوارع، التي يهيمن عليها الجماعات العنصرية التي تتجمع في "البارات" وتقوم بغسل أدمغة الشباب وصياغتها بطريقة عنصرية غير إنسانية. كما أن هذا الشباب ذاته أصبح يتلقى ثقافته من مصدرين خطرين، صحافة الزبالة الضحلة والعنصرية، وشاشة التلفزيون وأفلام الفيديو.

والملاحظ أن التلفزيونات الغربية تحولت في السنوات الأخيرة لساحة للعنف والدماء والإباحية الشاذة بمختلف صورها، كما أن أفلام الفيديو تَوزع بالملايين أفلامًا، تعتبر العنف بطولية! فسلسلة مثل أفلام "رامبو" التي وزعت الملايين في الغرب كلها تحض على التدمير والقتل، و"رامبو" هذا حيوان قاتل لا يعرف رحمة ولا شفقة! والغريب أن هذا النموذج المريض صورته على اعتباره بطلاً قومياً!

الشباب الغربي يقلد "رامبو" ليس على الشاشة، وإنما في شوارع أوروبا، يقتل كما يفعل، ويغير على المدنيين العزل، ويقتلهم كما فعل "رامبو" تمامًا. هذه المواد تصل إلى عقل الشباب في الغرب فتصيغ أساليبهم وسلوكياتهم.

وهناك رأي آخر سياسي أيضًا يرى أن السياسات الغربية، الخارجية بالتحديد، تعتبر العنف وسيلة لحسم الصراع ويكفي أن ننظر لدور أمريكا في "نيكارجوا" وما فعلته في جرينادا، وغاراتها على ليبيا، ودعمها للإرهاب الدولي المسلح، فتساند عصابة بينوشيه في شيلي وتدعم حكم الجزائريين في السلفادور وغيرهما من بلدان العالم الثالث.

هذه الممارسات الإجرامية، تبثُّها محطات التلفزيون الغربية على أنها بطولة، وتصور، "ريجان" باعتباره بطلاً فلماذا إذن يشكو الناس من الإجرام في شوارع أوروبا، لماذا يعتبرون "ريان" الذي أطلق الرصاصة على عشرات وقتلهم في ضاحية "هنجرفورد" البريطانية سفاحًا، بينما نفس الرأي العام الذي يدينه هو الذي يصفق بشدة للقتل الجماعي الذي

تمارسه حكومات همجية تمارس البطش والإرهاب على
مستوى العالم.

الديمقراطية هي الحل

من المؤكد أن تعدد الآراء، والاجتهادات مطلوب لدعم مناخ ديمقراطي، يشجّع كل المدارس على الحوار، ويساند كل زهور الفكر من أجل التفتح، والازدهار.

ونحن مع التعدد، لأن فرض الرأي الواحد، تحت دعاوى أية شعارات أو يافطات جريمة في حق هذا الوطن، الذي أصبح يرفض هيمنة الأحادي، ويناضل، لتدعيم فكرة الاختلاف، ويطالب بالحوار كوسيلة معقولة وممكنة لدفع مشروعات التنمية خطوة إلى الأمام.

والحل التعددي، ليس وصفة غريبة قادمة إلينا من عالم المجهول والخرافات، وإنما هو حل واقعي، ثبت إمكانية تحقيقه في بيئات حضارية مختلفة، تقدمت ليست لأنها أفضل منا، وإنما لأنها اختارت النهج، الذي يسمح للأفراد بالتعبير عن أنفسهم وبلورة شخصيتهم.

ولسنا نريد تكرار ما يحدث في الغرب للتدليل على هذا الكلام، وإنما الذي نريد قوله، إن الغربيين تقدموا لأنهم فننوا

عمليات الاختلاف. نجحوا في وضع قواعد تحمي أصول المجتمع التعددي الذي يحمي الرأي الآخر ويصون حقه، ويدافع عن اختياراته واجتهاداته.

ونحن تأخرنا عن الركب الحضاري، ليس بسبب قصور إمكانياتنا الذهنية، وإنما لأننا رفضنا الاختيار التعددي وانجرفنا نحو تبني الأشكال الديكتاتورية.

وساعدت الظروف الاستعمارية على قمع الحل الديمقراطي الذي ظل غائبًا عنا لقرون وأحقاب، حتى هبت علينا مع بداية القرن رياح جديدة، حملها إلينا المتتورون العرب هؤلاء، الذين كافحوا لأجل زرع بعض اللبانات المتواضعة عن أسس التعددية وكيف أنها وراء أي تقدم حضاري.

ويكفي أن نقرأ ما كتبه رفاعة الطهطاوي، في كتابه "تخليص الإبريز" ونتعرف على اجتهادات شيوخ الأزهر، قبل حملة نابليون، ولعل فهم محاولات الشيخ حسن العطار، توضح إلى أي مدى، كان الهم الديمقراطي مطروحًا على وعي الشرائح المثقفة من تركيبة المجتمع العربي.

إن المفكرين العرب، حاولوا منذ بداية تفتيت
الإمبراطورية العثمانية طرح فكرة التعددية كبديل للأحادية
القمعية. وقد دفع هؤلاء "قواتير" باهظة التكاليف للمنادة بهذا
النهج، الذي عادته ووقفت ضده، كل التيارات، الراضية
لفكرة وجود الرأي الآخر ليس على الساحة السياسية فقط،
وإنما في كل مناحي الحياة، في الأدب والفكر والفن
والاجتماع.

النضال من أجل التعددية قديم في تراثنا؛ لأن المفكرين
يعرفون بحسهم المرتفع أن الأفكار الشمولية تقتل المجتمع،
وتحوّله إلى صيغة واحدة، ليس فيها حياة أو إبداع،
أو أي نوع من الخلق الحضاري.

ونحن نتصور أن المعارك الأساسية الدائرة على ساحة
الواقع العربي المعاصر، هي بين فريقين فريق يطالب
بتعميق فكرة التعددية باعتبارها الحل الوحيد المطروح على
وعي المنطقة، وفريق آخر لا يطرح، ولا يقدم سوى قمع
الأحادية بكل قيودها وظروفها الرهيبة التي تسلب حقوق
الناس، وتحولهم إلى أشباح لا شكل لهم ولا مضمون.

والذين يؤيدون الفكر الأحادي، هم مجموعات كبيرة،
مصلحتهم تكمن في السيطرة على مقادير الواقع سواء كانت
هذه السيطرة سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية. أمّا الذين
يطرحون الحل الآخر، فهم يريدون كسر دائرة الاحتكار،
وإفساح الطريق أمام كل الأفكار والاتجاهات .. بحيث يتمكن
الناس من معرفة الصالح من الطالح في الأفكار والنظم
السياسية.

والمشكلة أن أنصار الفكر الشمولي والأحادي، يمسون
بمقاليد السلطة في أيديهم، ولا يريدون إفساح الطريق أمام أي
فكر لا يتفق مع ما يطرحونه؛ لذلك يستعملون العنف مع كل
معارض ويمارسون كافة الإجراءات الاستثنائية مع أي
معارض لهيمنتهم، حتى من يختلف معهم حول نوع معين من
الفن والأدب، يجد نفسه مطارداً من قبل قوات مكافحة
الشغب، ووحدة الأمن المركزي التي تطارد الأفكار
والاتجاهات المعارضة لنهج الفئات المسيطرة.

وهذا القمع الذي تمارسه الأنظمة الأحادية، لا يترك
فرصة للحوار أو النقاش وهذا الوضع لا يسمح إلا لبروز

العنف كوسيلة قادرة على إجبار هذه السلطات إلى الاستماع والجدل.

ولأن العنف بطبيعته مدمر فإن استعماله لا ينتج عنه سوى المزيد من العنف والمزيد من القلق والاضطراب. إننا نرى أن الحل الوحيد للخروج من هذا المأزق، هو تنمية مناخ ديمقراطي رحب، تساعد على ازدهاره بحيث يكون قادرًا في النهاية على تطوير منهج الأحادية وإفساح الباب أمام الفكر التعددي المستقل.

وهذا يتطلب الحوار حول الفكر السياسي وحول الأدب والفن ونظريات علم الاجتماع.

وحماية هذا الحوار مهمة المثقفين والقوى الوطنية المطالبة بالإصرار على فكرة التعددية؛ لأنها الحل الوحيد والممكن لإنقاذنا من الوقت الذي تجهزه لنا فرق الشمولية وكتائب الأحادية القمعية.

متقفون وجواسيس

أمرت محكمة بريطانيا صحيفة الصنداي تايمز بدفع غرامة باهظة لزعيم العمال الأسبق مايكل فوت والاعتذار له رسميًا عن تقرير موسع نشرته يتهم السياسي البريطاني ٨١ عامًا بالعمالة للاتحاد السوفيتي السابق، وأنه كان ضمن حلقة نقل معلومات ودعاية لحساب جهاز الاستخبارات السوفيتي. واعتمدت الصحيفة البريطانية على معلومات لجاسوس روسي مزدوج أوليج جروديفسكي نشرها في كتاب يتهم فيه متقفين بريطانيين بالعمالة، بل الحصول على أموال ثابتة في مقابل تقديم معلومات، والعمل في الوقت نفسه على نشر ثقافة سوفيتية معادية للغرب.

وادعى الجاسوس الذي كان مسئولاً عن مكتب بريطانيا خلال سنوات ما قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، أن مايكل فوت كان يتلقى أموالاً بانتظام لدعم صحيفة راديكالية تدعى "تربيون" وكان يجتمع مع مسئولين استخبارات بشكل دوري.

وقد توسعت الصنداي تايمز في نشر هذه الادعاءات بطريقة بدت وأنها تصفية حسابات ومحاولة لتجريم التيار الفكري البريطاني الذي ينحاز إلى اليسار الأوربي. وهذا الاتهام يقول إن المثقفين البريطانيين في الخندق الراديكالي كانوا عملاء، وليسوا أصحاب فكر أو مبدأ.

وقد اضطر المحرر الأدبي لصحيفة "الجارديان" ريتشارد جوت للاستقالة من موقعه بعد نشر الجاسوس المزدوج السابق اتهامات بأنه حصل على حوالي عشرة آلاف جنيه من الاستخبارات السوفيتية نتيجة الهجوم على الرأسمالية والترويج للفكر الاشتراكي في صحيفته خلال مرحلة الحرب الباردة.

وفضل جوت الانزواء بينما اختار فوت المواجهة ومقاضاة "الصنداي تايمز" وحصل أخيراً على التعويض الذي طلبه مع أتعاب محاماة تصل إلى حوالي مائة ألف جنيه إسترليني.

وقد كان موقف فوت يمثل رد الاعتبار لسياسيين وأصحاب فكر اختاروا ضفة أخرى أثناء الحرب الباردة عن قناعة وفهم ورؤيا وليس مجرد عمالة وقبض أموال.

وكان جروديفسكي ادعى أن فوت كان يحمل الاسم
الحركي فوت وأنه ظل لسنوات طويلة على اتصال بخلايا
استخباراتية روسية.

وخطورة هذا الادعاء أن فوت كان يتزعم حزب العمال
المعارض ودخل انتخابات عام ١٩٨٣ على قمة هذا الحزب
والذي لو قُدِّر له النجاح لأصبح زعيمه رئيس الوزراء
البريطاني؛ مما يعني أن جاسوسًا يعمل لجهات أجنبية يرأس
حكومة بلاده.

وأعتقد أن فوت اندفع نحو القضاء وصمد في ساحته
ليس لتبرئته تاريخه فقط باعتباره من المثقفين البريطانيين
البارزين، وإنما لإعلان وطنية الحزب العمالي أيضًا ونظافته
الكاملة من التزامات معادية لأمن البلاد.

وقد رفضت مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة
التعليق على هذه الاتهامات وقت نشرها، حيث إن فوت كان
ينافسها في عام ١٩٨٣ على موقع الحكم غير أن سياسيين
من الحزب الحاكم نفسه استبعدوا هذه الاتهامات؛ لأن زعيم
الحزب المعارض الأسبق يتميز بنزاهة سياسية وهو
راديكالي نعم لكنه ليس جاسوسًا.

واعتبر فتح هذا الملف مجرد عملية انتقام لأن اليسار عندما كان في السلطة اتهم اليمين بالعمالة والآن جاء الانتقام من أهل اليسار بعد انهيار حائط الأيديولوجيا وتفكك الاتحاد السوفييتي بالكامل وانتصار الرأسمالية الحالية.

وقضية فوت تؤكد بعض القضايا منها أن سلاح الاتهامات معتمد ويستعمل ليس في بلادنا فقط وإنما في دول العالم الأول التي تزوج لحرية الرأي وحق الأفراد في الاختيار والاعتقاد.

ولقد استعملت سلطات في العالم هذا السلاح ضد صحفيين ومفكرين، وسجنتهم بتهمة التجسس والحقيقة أن كل جرائمهم هي الانتماء لفكر ما أو الدفاع عن غرض سياسي يخالف الحكومة الموجودة في السلطة.

القضية الثانية، في هذا الملف، هي أن الصحف نشرت الاتهامات والقضاء حسم الموقف بمعنى أن الصحافة تملك المعلومات، فإن عليها الاعتذار وتعويض المتضررين ماليًا.

الأمر الثالث أن القضاء أمر بتغريم الصحيفة وليس الصحافي وتلك قضية ذات أهمية خاصة؛ لأن الصحيفة

تستطيع دفع التعويض المطلوب أمّا كاتب الخبر أو التعليق
فلا يستطيع ذلك.

وقد ساد ارتياح عام في دوائر السياسية والثقافة
البريطانية لتبرئة مايكل فوت من الاتهامات بالعمالة؛ لأن
الرجل مثقف متجرد يعيش حياة بسيطة ورغم شيخوخته لا
يزال يواصل الكتابة والتأليف والمشاركة في حياة سياسية
باعتباره صاحب فكر أولاً وأخيراً وليس مجرد عميل يقبض
الأموال من أجهزة الاستخبارات السرية.

إن موقف المفكر يجد دائماً تفسيرات مغلوبة وأحياناً
متعمدة وذلك نتيجة حساسية الاتجاهات السائدة والتقليدية في
الاشتباك مع أفكار المتمردين.

ولقد ظل فوت دائماً في صفوف الراديكالية يدافع عما
يراه الحق والعدل والإنصاف وهذا الموقف لم يعجب مخبر
سوفيّتي سابق جمع بين الشرق والغرب لمصلحته الخاصة
وقبض من الجميع.

ولأنه تدرب على كراهية الفكر والعداء للمثقفين فقد
اختار اتهام سقراط بريطانيا بالعمالة، لكن القضاء البريطاني
رفض تقارير الجواسيس وأقرّ أن فوت مثقف يعبر عن

قناعاته وأن اتصالاته مع مسئولين سوفيت كانت بحكم نشاطه السياسي الذي كان من مهامه الالتقاء بالجميع دون أن يعني ذلك أنه عميل أو يحصل على أموال.

وأكد الحكم أن على الصحف التي نشرت هذه التقارير المشوهة الاعتذار ودفع التعويض وتكاليف المحامين أيضاً.

